نديم الهوى

مذكراتي اللندنية

Twitter: @ketab_n
8.4.2012

Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com

ketab.me

نديم الهوى

مذكراتي اللندنية

ketab.me

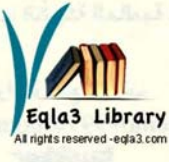

دار المؤلف
Dar Al-Moualef
للنشر والطباعة والتوزيع ش م م
for Publishing, Printing and Distribution s.a.r.l.

Twitter: @ketab_n

مذكراتي اللندنية

Twitter: @ketab_n

ⓒ خالد صالح الغامدي ، ١٤٣٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، خالد صالح
مذكراتي اللندنية . / خالد صالح الغامدي .- الظهران ، ١٤٣٣هـ
٢٤٤ ص ؛ ١٥,٥ × ٢٣,٥ سم
ردمك : ٥-٩٣١٧-٠٠ - ٦٠٣- ٩٧٨
١- الغامدي، خالد صالح يحيى - مذكرات ٢- لندن - وصف ورحلات
أ . العنوان
ديوي ٩١٤,٢٠٤ ١٤٣٣/١٦٦٢

رقم الإيداع : ١٤٣٣/١٦٦٢
ردمك : ٥-٩٣١٧-٠٠ - ٦٠٣- ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة © 2012 لنديم الهوى
لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادّته بطريقة الاسترجاع،
أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت «إلكترونية» أو «ميكانيكية»
أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة الناشر على هذا كتابة ومقدّماً.

مذكراتي اللندنية، الطبعة الثانية
سيرة ذاتية
نديم الهوى
ISBN 978-603-00-9317-5
إخراج وغلاف: الشركة العالمية للكتاب

للتواصل مع الكاتب
Ndeemo9999@hotmail.com
twitter
@nadeemo9999

طبع في لبنان
My London Diary
By Nadeem Al-Hawa

Copyright © 2011 by Nadeem Al-Hawa. All rights reserved
www.wbpbooks.com
Twitter: @ketab_n

إهـــداء

"إلى من لا يهمه أمري... أنت كل عمري"

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

إهـــــداء ٥
المحتويات ٧
تـــقـــديـــم ٩
قبل الرحيل إلى لندن..... ١١
دنيا جديدة ١٧
سأكون لوحدي ٢٠
جاكلين ٢٢
المكتبة ومقهى الفكر العربي..... ٢٤
محمد رضا..... ٢٨
لن أعيش في جلباب طباخ..... ٣١
غـــــوايـــــة..... ٣٤
أول لقاء بالفايد صاحب هارودز ٣٧
فندق "كلوستر ترس"..... ٤١
شيبة عرعر..... ٤٧
ملكة جمال العرب في لندن ٥٠
زحمة يا دنيا..... ٥٣
"الكوينـزواي" شارع الحب..... ٥٩
أرجوك عجل بالرحيل ٦٣
غزوة زينون..... ٦٤
الساحرة ومسيو معاشي ٧١
رجل الحسبة الأول في لندن..... ٧٨
ولد خال زوج أم زوجة صدام بالرضاعة..... ٨٣

Twitter: @ketab_n

وما الحب إلا للحبيب اللندني..... ٨٩
معركة في سوهو ٩٦
جريمة في البيكاديلي..... ١٠٤
مس من الجان..... ١٠٩
نديم في محكمة الشياطين ١١٥
شفاء داء ودواء..... ١٢٨
فندق بارك لودج ١٣١
تأبط نقداً ١٣٦
عمر الشقي بقي ١٤٠
صور وذكريات..... ١٤٥
سهرة في الهيبدروم ١٦١
فتى النسيم يتسول في لندن ١٦٥
ساعة سميرة توفيق ١٧٠
بريصة الأصفهاني والأمير تركي الثاني ١٧٣
تعقب بريصة في مصر..... ١٨١
في سكن طلاب الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٨٨
بريصة يعترف..... ١٩٣
رجال حول أخي ٢٠٣
الحقيقة المرة ٢١٠
ضاقت علينا لندن بما رحبت ٢١٣
والدتي في أسواق لندن ٢١٨
رحلة نهرية مع سميرة توفيق..... ٢٢٠
فصل المدرسة وفصول لندن الأربعة..... ٢٢٢
المفتاح ضاع في الباص..... ٢٢٨
ليلة رأس السنة في سجن "بادينجتون" ٢٣١
قاضيان في لندن..... ٢٣٤
على فراش الموت ٢٣٨

Twitter: @ketab_n

تـقـديـم

إليكم قصتي العتيقة التي دارت أحداثها في مدينة الضباب لندن خلال العامين ١٩٨٤ و١٩٨٥ وجزء من العام ١٩٨٦، عندما سافرت لمرافقة أخي ليتلقى العلاج من داء سرطان الدم، والتي سردتها بدقة بعد مرور أكثر من ٢٥ سنة على حدوثها كما أذكرها الآن. فصّلت في بعض المواقف واختصرت في أخرى وذلك لتحفظي من الاسترسال لأسباب خاصة، وكذلك لأعطي فرصة لخيال القارئ لإكمال الجزء المفقود منها. قد أكون شطحت قليلاً في السرد، لكني أحب أن أؤكد لكم بأن أساس القصة حقيقي، بيد أن داعي الحبكة الدرامية وأسلوبي في السرد هما اللذان أعطيا العنان لقلمي لينسجها كما ستبدو فصولها لكم. كتبت كل قصة كما طرأت عليَّ بدون ترتيب للتواريخ، وسيجد القارئ فيها الجوانب التراجيدية والكوميدية والرومانسية والجريمة والخيال... أرجو أن أكون قد وفقت في تدوينها لكم كما هي أو أقرب لما كانت عليه.

محبكم نديم الهوى

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قبل الرحيل إلى لندن

تعود بي الذكريات إلى العام ١٩٨٤ عندما أتممت دراسة مرحلة الثانوية العامة في مدرسة الخليج في الدمام، وأصيب أثناؤها أخي الذي يكبرني بسنتين بداء سرطان الدم «اللوكيميا»، والذي لم يكن العلاج متوفراً له بعد في السعودية. وبعد حصولي على الشهادة، قرّرت الالتحاق بكلية الملك عبد العزيز الحربية في الرياض، بعد أن توسط لي زوج أختي في عملية القبول فيها، وكان يعمل كقائد لاستخبارات الدفاع الجوي في المملكة. أذكر أنه طلب مني فقط ورقة بيضاء طواها على ركبته وكتب عليها بعجلة توصية مقتضبة لقائد كليّة الملك عبد العزيز الحربية في الرياض: «أفيدكم بأن حاملها هو أخ زوجتي وآمل أن تجد له مقعداً في الكليّة!!!». عندما وصلت الرياض قدّمت أوراقي للكليّة وقبلت من دون تعقيدات تُذكر بفضل تلك التوصية البسيطة، فلم يكن القبول في الكليّة بالمسألة الصعبة في تلك الأيام.

بعدما أنجزت عملية التسجيل، تم تحويلنا إلى المستشفى العسكري في الرياض لإجراء الفحوص اللازمة، ولما استلمت أوراقي وطلب مني الضابط الذهاب إلى المستشفى، سألته، وكان من أهل الجنوب، بلهجة أهل الشرقية التي كنت متأثراً بها كثيراً: «ما عندكم باص يودّينا للمستشفى» كانت لهجة غريبة عليه ويبدو أنه لم يعهدها من قبل، فهي لهجة دمامية قريبة من لهجة أهل البحريـن، الأمـر الذي أدهشه وجعله ينظر نحوي شذراً، ثم صرخ بأعلى صوته: «أفللح» أي أقلب وجهك، الناس يا بابا

Twitter: @ketab_n

تتسابق تكمل التسجيل وحضرتك تبي بالاص، لا وش رأيك أرسل معاك سواق العائلة يوديك... بلاش مقاضي للبيت اليوم... يا عسكري خذ ذا البلية وانطله برا... هيهيهيه!!.»

لكن لحسن الحظ التقيت في الصالة بعض أقراني الذين درست معهم خلال المرحلة الابتدائية في مدينة الطائف، وكانوا مثلي يقصدون التسجيل في الكليّة، وشاءت الأقدار أن نجتمع سوياً بعد سنوات عديدة من الفراق في الرياض. ذهبت معهم إلى المستشفى العسكري وأجرينا الفحوص الطبية الضرورية، وأتذكر أنهم اكتشفوا سرطان في الرئة لأحد الأشخاص المتقدمين للتسجيل معنا.

بعدما قُبلت مبدئياً في الكليّة، سافرت مع زوج أختي إلى مكة المكرمة خلال العشر الأواخر من شهر رمضان لمقابلة سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز (رحمه الله) لطلب تحويل أخي للعلاج إلى لندن عن طريق الملحقية العسكرية، ودخل أبو نسب للمختصر الخاص بسمو الأمير وعاد بأقل من دقيقة واحدة، فسألته: «عسى ما شر، شكلك ما قدرت تعرض الموضوع؟» فابتسم وقال لي: «أبشرك طويل العمر وافق على التحويل للعلاج في لندن!!!». رددت باستغراب شديد: «كذا بكل بساطة وافق في أقل من ٤٠ ثانية، ما يمديه قرأ»، لم يتسنى له الوقت لقراءة الموضوع «المعروض لكن في الواقع هذا الذي حصل بالضبط».

ولكن لو تعلمون أن تلك الأربعين ثانية كانت تعني بالنسبة إلي رحلة إلى لندن الثمانينات طالت مدتها نحو سنتين رافقت فيها أخي للعلاج، وتهت خلالها في شوارع لندن السبع توهات، عشتها وحيداً في معظم الأوقات وقابلت خلالها بشراً لم أعهدهم من قبل، ومررت بتجارب وحكايات بعضها كان أقرب إلى الخيال، وهو الأمر الذي غيّر مجرى حياتي لاحقاً... وكذلك إلى الأبد.

وعدنا إلى الدمام وبدأنا التجهيز لسفر أخي، وكان أخي الذي يصغرني هو الذي سوف يتبرع بجزء من نخاع عظمه لأخي العليل، حيث

Twitter: @ketab_n

أن هذه هي الطريقة المتبعة في علاج مرضى سرطان الدم، وعرفنا ذلك بعد أن قام جميع أفراد الأسرة بإجراء الفحوص الطبية لدى الدكتور السوداني الأنيق عز الدين إبراهيم في المستشفى التعليمي في الخبر والذي كان دوماً يضع نحو ستة أقلام مختلفة الألوان في جاكيته الطبي الأبيض.

ثم بعد نحو شهر، سافر أخي المريض، مع أخي الصغير المتبرع وكذلك أخي الأكبر ووالدي إلى لندن، وبقيت أنا مع الأسرة في انتظار الالتحاق بالكليّة الحربية. بعد حوالي ٢٠ يوماً اتصل بنا أبي من لندن وقال: «يا نديم (اسمي المستعار طوال الرحلة)، يجب عليك الاستعداد لمرافقة أخيك في لندن في القريب العاجل، فقد علمنا من الطبيب المعالج الدكتور «جولدمان»، أن عملية العلاج ستتطلب الكثير من الوقت ويجب أن يكون لديه مرافق طوال الرحلة»، ولأن أخي المتبرع يتعين عليه العودة سريعاً لأن لديه اختبار دور ثانٍ، أما أبي وأخي فسيعودان لوجود الكثير من الارتباطات والعمل لديهما في السعودية. وعندما سألت أبي وماذا عن الكليّة الحربية، هل أتراجع عن الالتحاق بها؟، رد عليّ وقال: «إنس موضوع الكلية... أخوك أهم الآن، وسوف أعوضك عنها خيراً منها!!!».

نسيت أمر الكلية بكل بساطة، بالرغم من أنه كان حلماً بالنسبة إلي أن أرى النجوم تتلألأ على كتفيّ كبقية أقراني في أيام الصبا تلك... فجهزت أوراق السفر الضرورية والتأشيرة بسرعة وانتظرت على أحرّ من الجمر لندن التي كنت دوماً أسمع عنها منذ كنت غراً، وأكثر ما عرفت عنها هو ما شاهدته في مسلسل قديم كانت تدور أحداثه في شوارع لندن الخلفية واسمه «الأتوبيس ذو الطابقين ها هوقادم Here come the double decker». وقبل السفر مباشرة ذهبنا للتخييم في شاطئ «الهاف مون»، كرحلة وداعية قبل لندن، وكان من زملائي في تلك الرحلة، راشد الماجد الذي أصبح لاحقاً مطرباً مشهوراً في عالم الطرب، ونبيل وسعد الشعيبي ومحمد وليد، وكلهم فنانون على مستوى عالٍ، بل إن نبيل الشعيبي (الشعيبي وليس نبيل شعيل)، كان صوته أجمل من صوت راشد الماجد بكثير، فقد كان صوته حزيناً، ترق له القلوب وفيه بحّة رقيقة، خصوصاً إذا شدا بأغنية

Twitter: @ketab_n

كلها شجن على نغمات عوده الجريح: «يا حبيبي أهواك وروحي فداك... ودي أسأل والله أسأل على حبيبي إلي راح، راح وخلاني وحيد راح وخلاني حزين.»

في آخر يوم من الرحلة كنت نائماً داخل الخيمة وحبات الرمال تملأ أذنيَّ، والجو حار ورطب بالرغم من وجود تكييف في الخيمة، وأتى فجأة موظف عند أخي اسمه «حسين الشربيني» مصري يوقظني من النوم، «قوم يا نديم، قوم يا عم أنت مسافر الليلة دي لندن، قوم أمال».

قمت وذهبت من فوري إلى سوق «عيال بن ناصر»، في الدمام، الذي يتوسط سوق الأرزاق، وسوق الحب واشتريت سراويل ماركة «أبو رفسة» وجاكيتاً طويلاً من مخلفات الحرب العالمية الثانية أو الأولى، لست متأكداً، ورجعت إلى البيت وأخذت جل ملابس أخي الكبير الذي كان يدرس في أمريكا والمتواجد حالياً في بريطانيا.

عند المساء دعاني كل من رشود ونبيل، لتناول «وليمة سندوتشات» في «بوفية عزيز»، شربت خلالها ثلاثة أكواب منجا لأول مرة وكأني جمل يقوم بتعبئة سنامه استعداداً لرحلة يقطع فيها البراري والقفار، وكادت أن تنفجر بطني من ذلك عندما وصلت المطار لأني كنت ضعيفاً جداً ووزني لم يزد يوماً عن ثمانية وخمسين كيلوغراماً.

ثم ذهبت إلى مطار الظهران القديم وكانت رحلتي على طيران «برتش كاليدونيا»، وهي خطوط اندثرت منذ زمن، فركبت في الطائرة وماني عارف منين يودي على فين!!!... وجلست في الطائرة بين مسافر ياباني وآخر إنجليزي حمر عطر. كانت لغتي الانجليزية فاشلة في تلك الأيام، لذلك لم أتحرك من كرسيّ طوال الرحلة الميمونة، ولم أجرؤ أن أستأذن من جاري خشية أن أخطئ في كلمة «إكسكيوزمي» مثلاً، بالرغم من أني رددتها سراً في قلبي مرات ومرات وتأكدت بأنها صالحة للاستخدام الآدمي. بعد العشاء أتت المضيفة بالمشروبات، فاخترت سفن آب في كأس بلاستيكي أبيض، لكني اكتشفت أنه خمر من رائحته النفاذة،

Twitter: @ketab_n

وتورطت كيف أناديها لإرجاعه، كنت خجلان من فتح أي حوار، لكن عندما هدأت الأمور وذهب الجميع في سبات عميق، قمت بسكب الشراب تحت المقعد فانتشرت الرائحة في جميع أنحاء الطائرة حتى وصلنا لندن.

عند تعبئة نماذج الهجرة التي تُسلم عند الوصول، سألت الياباني الجالس بجانبي عن طريقة تعبئتها، لكني اكتشفت أنه أهبل ولا يفهم كلمة انجليزي واحدة، حتى أني حسبت أنه أصقه، ما يفهم لا يس ولا نو، لذا طلبت المساعدة من مُورّد الخدين البريطاني، والذي يبدو أنه تورط وهو يحاول يائساً أن يفهمني طريقة تعبئتها، نصف ساعة بس عشان يفهمني تاريخ الميلاد!!!. لذا أتممت العملية بعد ذلك بشخابيط ما أنزل الله بها من سلطان، خط شي «كابيتال» وشي «سمول» وادعيت أن عنواني في السعودية هو شارع الأمير سعد!!!، أي سعد الله يرحم والديك، أصلاً ما اعرف حتى اسم شارعنا ولا عمري طالعت اللوحات إلّي معلقة فيه!!! إذا فيه أصلاً لوحات... لا... وكتبت كلمة أمير بالإنجليزية Shari alamerr saaad ولما اقتربنا من موظفي الهجرة، اصطفت في طابور قصير، فكان المسار المخصص للبريطانيين فقط، ولما وصلت عند موظف الجمارك فهمت منه على غفلة إني في مكان خاطئ، وأشّر لي على طابور آخر مزدحم، اتجهت إليه، وبعدين رجعت مرة ثانية وقلت له، «آر يو شور»، مسوي نفسي فاهم، فصرخ علي قدام الله وخلقه مع صباح الله خير صرخة مدوية حملتني لآخر الطابور في المكان المخصص للمنبوذين، قصدي إلي غير البريطانيين.

صعدت بعد جهد خرافي إلى صالة الوصول في مطار «جيت ويك»، وهو المطار الثاني بعد هيثرو في لندن، وسمعت أحداً يناديني نديم... نديم، وتوالى صدى الأصوات لأرى أبي ومعه شابان جزائريان، سلمت على أبي وعرّفني على الشابين نسيم وعبد الرحمن. واتجهنا إلى محطة القطار نحو وسط لندن. كنت مذهولاً مما أرى أمامي، فلأول مرة أرى الناس بشكل لم أنسه طوال حياتي، كأنني كنت في السعودية أشاهد تلفازاً

Twitter: @ketab_n

أبيض وأسود طوال عمري الفائت، لكن الآن بدأت أشاهد تلفاز ألوان ١٠٠٠ بوصة وعليها بوسة. أول مرة أشاهد البوليس الانجليزي في ملابسه التقليدية أمامي بطوله الفارع الذي لم أعهده، وكذلك اندهشت بشدة من أناقة النساء ورشاقتهن، وتجولهن من دون عبايات وإلّي ما يشتري يتفرج، وصرت أبحلق في خلق الله وأتساءل عن سر الابتسامة التي لا تكاد تفارقهم أبداً، خصوصاً عندما يتفاجؤون بنظراتي المتفرسة والمسترسلة.

ثم ركبنا القطار المتجه إلى محطة فيكتوريا بوسط لندن، وجلست أمامي صبية بريطانية في العشرينات من عمرها، ذات شعر أشقر وخدود حمراء وعيون زرقاء، وعلى ما يبدو أن الصدمة الثقافية بدأت أعراضها لدي من دون أن تأخذ حتى دور الحضانة، فبادلتها النظرات المشفوحة بقوة، فابتسمت لي ابتسامة رقيقة، فقلت في نفسي شكلها حبتك يا ولد!!!... أخ لو الوالد يروح يأخذ له كوفي، كان أشبك معاها وتصير ماي جيرل فريند. بس والله كنت معذوراً بسبب ما عانيت من قحط وفقر وحرمان عاطفي مزمن فأنا أجزم الآن أن البنت الإنجليزية كانت تبتسم اندهاشاً من ملابسي غير المتناسقة بالمرة. فنعالي وانتم الكرامة نجدية تصدر ضجيجاً عالياً على أي سطح خشن... وفحيحاً فوق الفرش وصريراً عند عدم انتعالها، وبنطلوني كحلي نايلون من سوق الخميس بالقطيف على بلوفر رمادي من عصر هتلر، بلوزة من سوق عيال بن ناصر، بس كان والله العالم يشفع لي تلك الأيام وسامتي ورشاقتي، بالرغم من رداءة ردائي.

Twitter: @ketab_n

دنيا جديدة

وصلنا إلى محطة فيكتوريا ثم استقلّينا الحافلة إلى الشقة رقم ٤١ في عمارة رالف كورت، القابعة في شارع «الكوينـزواي» في وسط لندن، وعندما دخلت الشقة صُدمت عندما رأيت أخي وقد سقط شعر رأسه وذقنه وحواجبه بسبب العلاج الكيماوي. بل إنه أصبح أقرب إلى الهيكل العظمي. ضممته وبكيت حزناً عليه خصوصاً أنه قبل أربعة أشهر كان شاباً وسيماً عملاقاً يدرس المستوى الثاني في كلية الطب في جامعة الملك فيصل، قبل أن يصاب بجرح في ركبته أثناء لعبة كرة القدم، وحاول علاجه بشتى الطرق، ولكن الجرح بدأ يزداد سوءاً، لذلك أجرى فحصاً للدم وظهرت النتيجة إيجابية بإصابته بسرطان الدم. بحثنا له عن علاج في كل مكـــان في السعودية، حتى أن أبي أشترى له ناقة بـ ٢٥ ألف ريال، وكان هذا أعلى سعر في تلك الأيام قبل مزايين الإبل، ووضعنا الناقة مع صاحب حلال اسمه بن هندي وكان يُحضر إلينا يومياً دلواً من حليب الناقة نسقيه لأخي لعله يشفيه.

بعد أن جلست مع أخي واطمأنيت عليه تجولت في الشقة الجميلة الصغيرة المساحة مقارنة مع بيوتنا في السعودية، وعرفت أن أخي الكبير اشتـــراها بحوالـي ٤٥ ألف جنيـه من صاحبها العراقي، وكان سعر الجنيه ٣٠,٤ ريالات فقط. وقد قام أخي ببيعها لاحقاً عام ٢٠٠٠ بـ ٧٧٠ ألف جنيه. ثم ذهبت إلى الغرفة المجاورة ونمت حتى العصر، لأصحو على جلبة ثلة جزائريين مطاوعة يرحبون بيّ ويتحمدون عليّ بالسلامة، فقد كان أخي المريض من منظريّ ورواد صحوة الثمانينات الميلادية في السعودية، وبرغم صغر سنه وقلّة خبرته كما يبدو لي الآن، كان يقرأ ويحفظ ويفكر

Twitter: @ketab_n

بطريقة تختلف عن الكثير من أقرانه. أذكر قبل سفره إلى لندن للعلاج أنه كان من الناشطين في دعم الجهاد في أفغانستان، وكان يجمع التبرعات الهائلة ويجتمع مع (أمراء حرب كما كان يطلق عليهم). مستحيل أن تصدقوني لو ذكرت أسماءهم الآن، ولن أذكرهم أبداً، لأنهم كانوا في تلك الأيام مدعومين من كل الجهات والآن أصبحوا غير مرغوب فيهم. تبادلت معهم الحديث على عجالة، وبصراحة لم أطق التعامل معهم أبداً، فأنا قادم إلى لندن لمرافقة أخي والعناية به حتى يشفى بإذن الله، وأريد أن أرى لندن التي أسمع عنها دوماً منذ نعومة أظفاري، أريد أن أتمتع برؤية الطبيعة الغناء والريف الإنجليزي الذي شاهدته في كثير من الأفلام والقصص والأسواق الجميلة والعريقة والمقاهي اللندنية. بسنا يا عمي مطاوعة... شبعت من المطاوعة إلي كانوا مخلين بيتنا «مزار شريف»، لكنهم الغريبة ما قدروا يسيطرون على عقلي بالرغم من تقديري لمستواهم العلمي والثقافي فأكثرهم كانوا في كلية الطب، وأذكر أنه كان عندي في تلك الأيام سيارة جيب من نوع سوزوكي وكان أخي يستخدمها كثيراً لتوصيلهم إلى كلية الطب في جامعة الملك فيصل لمدة تزيد عن سنة لأنهم كانوا مفلسين، ولو جمع ما في جيوبهم عن بكرة أبيهم وضُرب المبلغ بأربعة أضعاف لما وصل إلى عشرة ريالات. كنت بدوري دوماً أصيبهم بالضيق والضجر عندما أتأخر عليهم في التوصيل، لكنهم لم يستطيعوا أن ينتقموا مني لأنهم كانوا محتاجين لخدماتي وإلاّ انقطعت بهم السبل. الآن ما شاء الله، كلهم أطباء مستشارون ورؤساء أقسام ويعدّون من الطبقة العليا في المجتمع، وحتى الطواعة بعضهم لحسها.

عندما رآني الإخوة الجزائريين في الشقة بدأوا بتفحصي جيداً... بس شكلهم ما استبشروا خيراً، فقد حسبوني من رفاقهم، لكنهم شافوا شخص ثاني ما راق لهم. لذا تركتهم وطلعت بعد ما لبست بالطو هتلر وتجولت وسط شارع «الكوينـزواي» لأتنفس الصعداء، فأجواء لندن جميلة في شهر أغسطس العليل، والناس حلوة ومحال القهوة المتراصة على الرصيف يرتادها زبائن «كلاس» جلهم أوربيون وقليل من العرب، لأنه في تلك

Twitter: @ketab_n

الأيام ما كان كل العرب يجون زي الحين. تقدمت إلى آخر الشارع حتى وصلت إلى حديقة «كنجنستون» التي تقع في الطرف الجنوبي من الشارع، وتعتبر امتداداً «للهايدبارك» من ناحية الغرب وتسكن فيها الليدي ديانا، وتشارلز ولي العهد البريطاني، يعني صرت باختصار جار الليدي ديانا بعدما كنت بالأمس فقط جار عبد الله بن غرم الله بن يعن الله وأولاده في السعودية. دخلت الحديقة ولأول مرة في حياتي أشاهد بالعين المجردة التلال الخضراء اليانعة على مدى البصر... وأشجاراً باسقة تتهادى شامخة وسط هواء لندن العليل... وأسراب الحمام تقف على عاتقي بدل أن تهرب مني، والبط والإوز يقترب مني وأنا أجلس على المقعد أنظر نحو البحيرة الدائرية في وسط الحديقة... ولم أجد أثراً للنخيل الذي تركته خلفي في «شارع أبو مية» في الدمام، الذي يُسقى بماء مالح ليل نهار ولسنوات عديدة لكن لم يتعدَّ طوله متر ونصف المتر ولونه أشهب مغبر، أنا أول مرة أطلع برا السعودية، وأحسست فعلاً أني في حلم وردي لا أريده أن ينقطع أبداً. رجعت مندهشاً نحو شارع «الكوينـز واي»، ودخلت قهوة عربية بجوار «مكتبة رمضان»، وجلس بجانب يزول سوداني بادرني بالتحية متسائلاً: «أنت عربي؟» أجبت: «نعم.» وقعدنا نسولف وكان أثنائها يكرع البيرة بشراهة، فقلت له بلقافة: «ليه تشرب خمر يا زول» قال: «هذا مهو خمر، هذه بيرة خفيفة»، رددت بإصرار: «له كلها حرام.» قال: «حتى بعض السعوديين يشربون اش معنى بتنصحني أنا.» فقلت له بكل براءة: «يا أخي أنا كل السودانيين إلي شفتهم بحياتي كانوا دايم أول ناس في المسجد، بس أول مرة أشوف سوداني يشرب خمر.» أنا قلت الكلمة هذي وشكل السوداني أنضرب بشحنة ٢٠٠ ألف فولت وتغير وجهه ثم بكى المسكين، قال: «يا أخي والله أنا في قلبي مسجد ومئذنة بس ظروف هروبي من السودان خلتني أصير كذا.» ثم طلب الحساب وغادر على عجل بعد أن رمقني بنظرة كأنه يقول: «طلعت لي من وين يا النكبة»، بعدها جلست وكأني لم أفعل شيئاً وطلبت كعك وقهوة، فهل سأكون مصلحاً اجتماعياً في لندن من أولها... لننتظر ونرى بقية الفصول.

Twitter: @ketab_n

سأكون لوحدي

بعدما استقر بي المقام في لندن، أخذني الوالد ثالث يوم إلى الملحقية العسكرية لأنها هي مرجعنا في العلاج. ذهبنا إلى الملحقية العسكرية وكانت في منطقة هولاند بارك، القريبة من نوتنينغ هيل جيت، وشمال هاي ستريت كنجنستون وسجلت إسمي مرافقاً جديداً لأخي لأن الوالد وأخي الكبير سوف يغادران إلى السعودية عما قريب. بهذا التسجيل صار يصرف لي مئتان وخمسون باوناً كل أسبوع، وأخي المريض مئتان وخمسون، يعني خمسمئة في الأسبوع. بصراحة كان مبلغاً كبيراً وأكثر من حاجتنا تلك الأيام. وفي الملحقية العسكرية قابلت أحد الأشخاص يشبه «سبأ با هبري»، مذيع الأخبار في السعودية؛ فسألته: «أنت سبأ با هبري؟» قال: «لا أنا أخوه.» وقعدنا نسولف نصف ساعة مع بعض ولما جيت أروح قال: «ترى أنا «سبأ با هبري»، بس حبيت أمزح وياك.»

وفي اليوم التالي رافقت أبي في زيارة للسفير السعودي في بريطانيا، «ناصر المنقور»، رحمه الله، الذي كان صديقاً قديماً للوالد، عندما كان الوالد يعمل ذات يوم في مجال المقاولات وكان السفير رئيساً لشركة إسمنت اليمامة. قابلنا السفير بودّ شديد وطلب مني الاتصال به في أي وقت أو بمدير مكتبه إن احتجت للمساعدة. وفجأة بدأ يتحدث معي باللغة الإنجليزية، ولما أحسّ أنه قاعد يؤذن في مالطا، قال: «شوف يا ابني أنت جاي مرافق لأخيك، وهذا عمل نبيل، لكن بيكون عندك وقت فراغ طويل ولازم تتعلم اللغة الإنجليزية عشان تستفيد من وجودك هنا»، وما انتظر ردي ونادى سائقاً سورياً وقال: «تأخذ نديم لمدرسة اسمها» لينك سكول

Twitter: @ketab_n

أوف إنجلش Link School of English، وتسجله فيها وتغطي مصاريف الدراسة من المحاسبة.» شكرناه على مبادرته الطيبة، وأصلاً كنت سأسجل نفسي في أي معهد عندما تستقر أموري، لكن سبقنا رحمة الله بطيبته وببعد نظره.

بعد مرور بضعة أيام عرفنا أن العلاج سيستمر لأشهر طويلة، وبما أن أخي المريض كان سلفياً متشدداً ولا يأكل طعام «أهل الكتاب»، برغم وجود آية كريمة تحلل أكلهم، بس وش نقول عاد. عشان كذا بدأ أبوي يعلمني فن الطبخ، فبدأ معي خطوة خطوة، كيف أولاً أطلب من الجزار تقطيع الخروف حسب الأكلة إلي بعملها، مثلاً، المشوي بالفرن يقطع قطعاً مستديرة مثل الإستيك، الريش كيف تكون، وعلمني الكبسات والمشخول وعلمني كيف أسوي أكلة اسمها منتو، كان أخوي يحبها، وهي عجين وسطه لحم تم تحميسه وتطبخ على البخار. احتجنا لعمله أن نشتري قدراً خاصاً، فركبنا «الأندرجراوند «قطارات تحت الأرض في لندن» من «الكوينـز واي»، إلى منطقة أسواق شعبية غالبية البائعين فيها من اليهود وفيهم الكثير من اليهود العرب وتسمى ليفربول ستريت. رحنا هناك وكان السوق فعلاً شعبياً وعربياً فيها تقليد للماركات والأسعار رخيصة جداً وتكثر فيها المطاعم الشعبية مثل الفش آند شبس الأكلة الشعبية الأولى للإنجليز. والفش آند شبس للمعلومية أصبحت الأكلة الشعبية للبريطانيين منذ العام ١٨٨٨م. والسبب أنه في تلك السنة تقريباً بدأ تسيير القطار البخاري بين معظم المدن فأصبح من الممكن نقل السمك من الشواطئ إلى المدن الداخلية خلال ساعات بسيطة قبل أن يتلف السمك، وبذلك ازدهرت مطاعم الفش آن شبس. كانوا في السابق يلفونها بورق الجرائد وتؤكل باليد، الآن تلف في أوراق أو صحون مع شوك بلاستيكية.

اشترينا في النهاية القدر الذي يوجد في وسطه شبك معلق، عشان نضع تحت الشبك ماء وفوقه نضع العجينة وداخلها اللحم المحموس، وبكذا تنضج الأكلة بالبخار ونحصل على أكلة منتو شهية، وبالهناء والشفاء. يا سلام... آخرتها طباخ في لندن.

Twitter: @ketab_n

جاكلين

في البداية ومع عدم معرفتي الجيدة بشوارع لندن ومحالها الجميلة، فضلت كثيراً الجلوس على نافذة الشقة المنيفة في الدور الثاني، فأقوم طوال النهار بفتح النافذة لينعشني تيار الهواء البارد في شهر أغسطس، حيث يحلو لي القراءة، واختلاس النظرات من وقت لآخر، مراقباً المارة الذين لا ينقطعون في هذا الشارع الذي لا يهدأ ليل نهار. واكتشفت في الجهة المقابلة من عمارتنا في شقة مواجهة لنا تماماً امرأة جميلة وبرونزية اللون تروح وتجيء في شقتها المشرعة الستائر في ملابس منزلية بحتة. وفي بعض الأحيان تنزل للتريض مع كلبها الصغير من نوع بودل، وترمقني بنظرات وابتسامات غاية في الروعة، فلونها البرونزي مع أسنانها البيضاء كأنها قطاف الثلج، منظر لم أكن متعوداً عليه البتة، فما زلت برغم مرور بضعة أسابيع على وجودي في لندن أعاني شيئاً ما من الصدمة الثقافية وبخاصة تجاه الجنس اللطيف.

بيد أنه في أحد الأيام وقد كنت عائداً لتوّي من المدرسة، صادفتني تلك المرأة البرونزية الفاتنة أسفل العمارة، فبادرتني بالتحية باللغة العربية وقالت: «شو ما بدك تبطل قراية ع الشباك، عامل حالك عبد الحليم حافظ»... يا ساتر طلعت عربية... فابتسمت لها وبصوت سعودي مصلوخ ومتهدج... قلت لها: «جنابك عربية؟» قالت: «يا عيب الشوم ولو عربية أباً عن جد، أنا إسمي جاكلين من لبنان.» تشرفنا يا ستي... أنا نديم الهوى، من مدينة العمال في الدمام، شارع أبو مية، قصدي من السعودية.

سألتني: «شو بتعمل هون وشو العجأة في شئتكن؟» قلت لها: «على

Twitter: @ketab_n

السالفة والعجأة، تعرفين سكان الجزائر كثير وبعضهم هاجر لشقتنا بحثاً عن المأوى!» ضحكت وقالت: «الله بيعين.» مشيت معها قليلاً فدعتني لتناول فنجان قهوة معاً، ولأنها كانت امرأة كلاس وتعمل في محال «ماكس مارا»، أخذتني إلى مقهى في فندق «رتز»، والذي اشتراه في تلك الفترة المليونير الفهلواني محمد الفايد، صاحب محال «هارودز» الشهيرة وصاحب شركة «هاوس أوف فريزر». استقللنا سيارة تاكسي نحو فندق «رتز» وشربنا في بهو الفندق الوثير شاي «إيرل غراي» مع البسكويت والفطائر اللندنية المترفة. ثم أشارت لي أثناء تبادل أطراف الحديث نحو مقعد جميل محاط بحبال حمراء كسياج، وسألتني: «تعرف لمين هيدا الكرسي دخلك نديم؟» أجبتها بالنفي، فقالت: «هيدا الكرسي تثبرني محجوز منذ العام ١٩٥٥ لمهراجا هندي، لأن جنابه أتى يوماً من الأيام لشرب الشاي فلم يجد مقعداً متوفراً له، فقام بحجز المقعد إلى الآن ليستخدمه متى ما شرف». يا ساتر، يعني حوالي ثلاثين سنة سجن، قصدي حجز، يا الله، والله لندن فيها غرائب وعجائب، وإلي عنده فلوس يقدر يسوي فيها أشياء كثيرة ما تخطر على البال. والمهراجا يا سادة يا كرام هم ملوك الهندوس القدماء الذين بدأوا بالانقراض حالياً ولم تعد لهم صلاحيات سوى صلاحيات شكلية، وهذا الكرسي قد يكون أهم صلاحياتهم في الوقت الحالي، والله أعلم.

Twitter: @ketab_n

المكتبة ومقهى الفكر العربي

من أفضل الأشياء التي كانت تتميز بها لندن قبل عصر الإنترنت هي الكتب المتوافرة بها دون غيرها من الدول وكذلك مكتباتها العريقة باللغتين العربية والإنجليزية، وهي الكتب الأصلية التي ألفها كتّاب مهنيون بعضهم من المستشرقين وآخرون من اللاجئين السياسيين. كما أن فترة الثمانينات كانت سنوات هجرة الصحافة العربية والكتّاب الكبار لأسباب سياسية وأمنية، فأصبحت لندن تعج بالصحف الرصينة والأخرى الصفراء التي كانت تعتمد على الابتزاز والفضائح والإثارة. ومنذ نعومة أظفاري كنت شغوفاً بالقراءة بشتى أنواعها، فكنت أقرأ بمعدل كتابين في الأسبوع. وأكثر ما كنت أقرأ تلك الأيام قصص المغامرات البوليسية، مثل: «سلسلة المغامرون الخمسة تختخ ولوزة ونوسة وعاطف ومحب»، وهم عبارة عن مجموعة من الأطفال الذين يقومون بحل الألغاز البوليسية والجرائم التي تحصل بمحيطهم، و«سلسلة ليدي بيرد»، وهي من أجمل كتب الأطفال على مستوى العالم، وكذلك حكايات «طرزان» ومعظم روايات «أجاثا كرستي» ومغامرات «روبن هود» والجريمة لـ«تشرلوك هولمز»، ومن بعدها صرت أقرأ لـ«تشارلز ديكنس»، ورحلات أنيس منصور وفلسفة سيد قطب وطه حسين ومحمد أسد وغيرهم. ولعدم وجود مصادر متعددة للتسلية في تلك الفترة الغابرة، كانت القراءة تسحرني لأبعد حدود، فأتفاعل مع الشخصيات والأحداث كأني جزء من الحبكة. وعندما تقدم الزمن صرت أقرأ بنهم أكبر ليل نهار، حتى أن ذلك أصبح يسبب لي بعض المشكلات الشخصية مع من حولي لأنني أقرأ أكثر مما أتحدث.

Twitter: @ketab_n

أذكر في إحدى المرّات أنني كنت مسافراً في رحلة من مطار لندن إلى لوس أنجليس وكانت الرحلة تستغرق ١١ ساعة، قضيتها كلها في قراءة كتاب «محارب من الصحراء»، لخالد بن سلطان. وكان بجانبي رجل إنجليزي ينام ويصحو، يأكل ويشرب، يذهب ويعود، «وأنا أعيط»، قصدي وأنا أقرأ حتى انتهيت من الكتاب قبل نهاية الرحلة بدقائق، ووالله لم أحس بطول الرحلة أبداً وكأني ما زلت في لندن أنتظر إقلاع القطار، فقال لي الرجل الإنجليزي: «كنت أعتقد أننا أكثر شعوب العالم قراءة، لكن عندما رأيتك علمت أننا أمة لا تقرأ.» فرددت عليه بابتسامة: «هوّن عليك أيها الإنجليزي العجوز ولا تقسُ عليّ فأنا أقرأ، أي نعم، ولكن للأسف المعلومات التي أقرأها لا أتذكرها جيداً، فذاكرتي أعتبرها أضعف ذاكرة في العالم، ولو كانت ذاكرتي قوية لكنت الفيلسوف اليوناني سقراط بسبب نهمي للقراءة.» وعندما نزلت مطار لوس أنجليس أخرجت كتاباً ثانياً لكي أقرأه مما سبب خناقة من عائلتي أمام صاحب التاكسي. لذا بدأت باقتناء الكتب اللندنية من مكتبة الساقي العظيمة التي أسستها الراحلة مي غصوب، فأعدت قراءة الكتب التاريخية والدينية والسياسية ومذكرات المستشرقين التي قرأتها سابقاً، ومن أول كتاب تاريخي قرأته تلمست الفرق بين الكتب التي تُكتب لدينا، والتي يكون حجمها عادة نحو خمسمائة صفحة ولو دققت وتمحصت جيداً لوجدت أنه يمكن اختصارها في ورقه ونصف الورقة والباقي جله حشو وكذب ومضيعة للوقت. وأشد ما أعجبني قصة توحيد المملكة بأقلام المستشرقين والتي كانت تُكتب بشكل مغاير عما قرأته، وخصوصاً ٧ مجلدات كنت قد قرأتها سابقا للزركلي باسم «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز»، ولكن للأمانة كل الكتّاب كانوا مسحورين بشخصية الملك عبد العزيز ودهائه، وأنه تفوق حتى على القواد والملوك التاريخيين مثل تشرشل والملكة فيكتوريا. في مكتبة الساقي اعتدت رؤية السيدة مي غصوب صاحبة ومؤسسة دار الساقي باستمرار، ولم أعرف قيمتها ككاتبة أو كمؤسِّسة لأهم المكتبات العربية في المهجر إلاّ بعد مدة طويلة. فقد كانت متوسطة الجمال ونحيلة الجسد، بيد أن ثقافتها

Twitter: @ketab_n

عالية وتتحدث العربية والانجليزية والفرنسية بطلاقة، ودوماً تسير ملتصقة بي، إذ كلّما أتيت أبحث في الرفوف عن كتاب ما، كانت تقوم بإعادة تصفيف الكتب، لأني كنت لا أعيدها كما يجب، تحملتني كثيراً، يمكن تشجيعاً لي لصغر سني، أو استظرافاً، فهي رحمها الله تزوجت سبعة أشخاص في حياتها، بالرغم من أنها توفيت وعمرها ٥٤ سنة فقط.

ومن كثر ترددي على المكتبة تعرفت على شخص سوري يرتادها اسمه عبد الوهاب الفتّال، وهو رجل مرتبك ولجوج ومزعج ونكدي وأحمق وتطول قائمة سيئاته إلى ما لا نهاية، ولكن جذبني إليه نقده اللاذع وتحويله كل حكاية إلى نكتة، فالنكت عنده لا تتوقف. فذهبت بمعيته في إحدى المرات نحو مقهى الفكر العربي بعد أن ابتعت صحيفة صفراء ابتزازية (كانت سماوية اللون)، لنتجاذب أطراف الحديث والحش في الأنظمة العربية مع شلة من أقرانه الذين يحبون الحش في دول الخليج، وأنا أحش في دولهم من شرقها لغربها. كانوا شلة كذابين وسقط المتاع، وبدوري كنت أتعبهم بمناكفتي وطول لساني وصحتي، لأنهم كانوا مرضى بالضغط والسكر فكانوا لا يستطيعون مجاراتي وافحامي، بل إن بعضهم تأتي عليه أيام ووجهه محمرّ ويشير عليّ بعدم فتح أي موضوع فالأمراض لا تساعده على النقاش.

في ذلك اليوم المشهود استلمت الجريدة السماوية اللون واسمها «الشرق الجديد» وبدأت أقرأها وأنا أتبسم من أسلوبها الساخر والرخيص في نقد الأنظمة العربية، بل إنني رميتها فوق المنضدة ولم أستطع إكمالها من كثرة الضحك وخشية أن يسيء الظن بي الزبائن الذين من حولي، فسألني عبد الوهاب الفتّال ما رأيك بها... أعجبتك؟ قلت له إنها صحيفة قذرة وصاحبها أقذر منها وشكله مبتز، ينقد دول الخليج بالذات ويتناول الأمور الشخصية ولو رموا له المال عند الجزم لقبّل أيديهم وأقفل المجلة، أو جعلها تمجدهم ليل نهار. زعل مني عبد الوهاب وحاول التبرير والتماس الأعذار لنهج الصحيفة ولكن كنت أحاجه وأفحمه في كل مرة. في المساء وأنا أتصفح ما بقي من جريدة الشرق الجديد وأنا ممدد على السرير

Twitter: @ketab_n

نظرت في العمود الذي يُكتب به معلومات عن الجريدة وصاحبها أو رئيس التحرير واكتشفت ويا للعجب أن اسمه «عبد الوهاب الفتّال» هاهاهاهاها، يعني كنت طول النهار في قهوة «الفكر العربي»، ومن دون أن أعلم كنت أسبّ في الرجال في وجهه المغسول بمرق.

Twitter: @ketab_n

محمد رضا

كما أن لندن جميلة وتتنوع فيها مباهج الحياة، إلاّ أنها تعجّ بالنصابين والأفاقين وبعضهم حرام والله يكونون فيها، فهم يشوهون ديكور لندن الجميل ويسيئون للذوق العام. في أحد الأيام وأنا أتناول إفطار الصباح مع صديق يمني شمالي اسمه قاسم يدرس الطيران الحربي «أيام اليمن يمنان ونص» في محل شاورما بـ«الكوينـز واي»، الموجود بجانب محل التزلج على الثلج، وجلس في ركن غير قصي عنّا رجل بطيني ضخم يلبس ثوباً بني اللون وشبشب حمام وأنتم الكرامة، شكله كأنه طفل ضاع من أمه فكبر في مكانه ومع الزمن انتفخ بطنه حتى شاب شعره. أثناء تناول الشاورما الساخنة الملفوفة بالخبز العربي الحار والطازج ذي العبق الشهي والمحشو بمخلل الفلفل التفاحي اللون، لاحظت وأنا أتحدث مع قاسم عن فوز المنتخب السعودي لأول مرة بكأس آسيا، أن ذلك الشخص الغريب الشكل والأطوار والشبيه بشدة بالممثل الراحل محمد رضا مشغول باستراق السمع منا ويرقب كل كلمة نتفوّه بها، بل إن عينيه جحظتا عندما قلت بأن شريط فيديو مباراة كأس آسيا والتي فاز فيها منتخبنا عام ٨٤ سوف يصلني غداً من السعودية مع شحنة الطائرة العسكرية التي تأتي تباعاً للملحقية العسكرية في لندن. لم يكن هنالك قنوات فضائية ولا إنترنت وكان المتداول في تلك الأيام الغابرة المغبرة أشرطة الفيديو من نوعي JVC وVHS، لذا لم يعد مسترق السمع يكتفي بالتلصص بل قفز من منضدته وهو يرفع طرف ثوبه تماماً مثل الفنان محمد رضا، ودخل بكل ما أوتي من دفاشة معنا في الحديث وبدأ بتعريف نفسه أخوكم محمد رضا السكرتير

Twitter: @ketab_n

الثاني في السفارة السعودية، منورين والله، مبروك فوز المنتخب، أنا وأنا وأنا... وأخذ يعدد مناقبه وبطولاته التي خاضها في الأحلام حتى صدع رأسي. وفي نهاية المطاف سأل عن شريط الفيديو وقال: «ممكن نشوفه سوا؟» قلت: «ممكن جداً، بس أنا أحتاج أن أشتري جهاز فيديو أولاً لكي نشاهده.» رد قائلاً: «أنا عندي فيديو.» قلت: «حلو.» أتيت بالشريط لاحقاً حسب الاتفاق وأخذه مني» وقال: «خلاص تجون في الليل الساعة ٨ نتفرج.» جاءت الساعة الثامنة وطرقنا عليه باب شقته، كان يسكن العمارة التي فيها محل الشاورما فوق «الاسكيتنج»، لكن للأسف لم نجد إجابة، وراح اليوم الأول والثاني وما لقينا الأخ، أخيراً وبعد أربعة أيام رأيته في المطعم وقلت: «وين يا عمي اختفيت؟» رد علي بكلام ما له علاقة بموضوعنا أبداً: «أنت شفت أحد أطيب مني؟ آذيتك بشيء؟» وأضاف: «أنا خطيبتي في جدة ردت لي الساعة إلي أرسلتها في البريد هدية لها.» وأظهر لي الساعة من جيبه حسبتها شباصة شعر من أبو ريالين... والله جعلني أنسى موضوع شريط الفيديو وقلت: «يا أخي هذي ساعة واحد يرسلها من لندن لخطيبته، المفروض تروح بوند ستريت، وإلاّ هارودز وتأخذ شيء مميز، وش ذي، نعن أبوك لو جدتي شرتها من سوق الصورايخ في جدة كان ما ركبتها سيارتي، هو ما صدق إنه ضيعني بالكلام.» وقال: «خلاص بسمع نصيحتك وأروح اشتري لها ساعة الآن من بوند ستريت، مع السلامة.» لكني استدركت أنه ما رد لي الشريط، وتأكدت أنه أفاك أثيم، قلت كلمة واحدة: «بترد الشريط وإلاّ لا يا محمد يا رضا.» قال: «أصله علق في الجهاز والجهاز عند المصلح» ما خليته يكمل، وتركته يذلف وهو رافع ثوبه كأنه كرته، بس عرفت وش دواه هالخرتيت.

في اليوم الثاني رحت للسفارة السعودية وقابلت السفير وقلت له على حكاية السكرتير الثاني وكيف شلح علينا شريط مباراة المنتخب، وأنه لم يعيد الشريط، تعجب السفير كيف من الممكن لسكرتير السفارة أن ينزل لهذا المستوى من التعامل مع الناس؛ لكن بحنكته وخبرته، قال لي: «لا تنبس بشفة واتبعني نذهب لمكتبه.» دلفنا لمكتب السكرتير الثاني المزعوم

Twitter: @ketab_n

ورأيت إنساناً يختلف تماماً عن محمد رضا المأفون، إنساناً محترماً ومهذباً اسمه سليمان المتروك، وقدمه السفير لي وقال: «هذا الأستاذ سليمان سكرتير السفارة الثاني وهذا نديم.» تعارفنا وتبادلنا المجاملات ثم ما لبثنا أن عدنا إلى مكتب السفير، وقال لي بابتسامة تعلوها الشفقة: «أكيد ليس الشخص الذي تبحث عنه.» قلت: «طبعاً وش جاب الثرى للثريا، هذا شكله محترم هذاك أصلاً استغربت يكون سكرتيراً ثانياً أو سكرتيراً في مدرسة.» سألني: «ما عرفت اسمه أو أي شيء يدل عليه؟» قلت: «اسمه محمد رضا.» رد: «اش قلت، محمد رضا؟ الله لا يعطيه العافية، روح يا ابني انزل تحت في القبو وناده لي.» نزلت وتحت الدرج لقيت محمد رضا لابس طاقية لها أذنين وفي أعلى الأذنين كرة صوف منتفة كي تقيه من قسوة البرد في القبو، وسرعان ما حاول الهروب مني عندما لمحني قادم إليه واتجه نحو حمام صغير يصنعه الانجليز عادة تحت الدرج أو يستخدم أحياناً كمخزن، تبسمت من شكله وهو يحاول الفرار وقلت: «تعال يا سكرتير الغفلة وكلم السفير يبيك ضروري.» طلع ويقول: «أنت وش سويت، شكلك خربت بيتي، في ستين داهية المنتخب والشريط.» ودخل على السفير الذي قال له باختصار جملتين فقط: «نقلناك للعمل في غينيا بيساو بعد شهر جهز حالك، بس لا تنس ترجع الشريط لنديم قبل ما تسافر...» وأعاد لي الشريط في اليوم نفسه مساءً، وأصبح محمد رضا يلطم ويولول ودعاني للعشاء في مطعم إيراني في «أيرلز كورت» وهي منطقة يسكن بها ويملكها الكثير من أخوتنا من دولة قطر، وطلب مني أن أشفع له عند السفير، كسر خاطري الصراحة ما كنت ناوي أسبب له أي أذية بس هو السبب. رحت للسفير بعد يومين وقلت له: «سامحه يا طويل العمر خلاص رجع لي الشريط.» رد علي: «إلي سواه انتحال شخصية مهمة في السفارة وأنا ماني رايح أنقله أنا عندي عجز في الموظفين، بس خلّيه يخاف شوي عشان يتوب.» رحت بسرعة بشرته، وهو ما صدق راح لكابينة تلفون لندن الحمراء واتصل بأمه الست فتو وقال: «يا ماما باركيلي، ماني رايح أكون سفير في غينيا، أنا بكمل سكرتير أول في السفارة في لندن!!!»

Twitter: @ketab_n

لن أعيش في جلباب طباخ

في الشقة تابعت في العناية بأخي بشكل مكثف فقد كنت أختار له بحرص شديد أفضل الوجبات المغذية والصحية وأحاول أن تكون السلطات والفواكه والأغذية كلها معقمة لأن مناعته كانت أقل من المستوى المطلوب بعد أن قام بعملية نقل نخاع من أخي الصغير إليه. كنت أعمل له إفطار الصباح «كورن فلكس» مدعم ومحلى بالعسل من أجود أنواع العسل من «هارودز» وحليب طازج يومياً يصل إلى عتبة العمارة كل صباح وهو تقليد بريطاني بدأ عام ١٨٨٠ بعربات تجرها الخيل، قبل ذلك كانت العربات تجر خزان حليب كبيراً وتعبأ في دلال أصحاب المنازل، وأذهب بعد ذلك إلى Link School of English لدراسة اللغة الإنجليزية، والمدرسة لحسن الحظ على بعد خطوات من السكن، في شارع Westbourne grove أي أنه أثناء السير في «الكوينـز واي»، يكون مركز «الوايت ليز» على الشمال، وعندما ينتهي المركز يكون في نهاية الشارع PUB، تتجه لليسار وهنالك بعد حوالي خمسة محال تجارية توجد المدرسة، وهي في الدور الثاني. بعد المدرسة أعود فأشتري له من محال الحلال الموجودة تحت المدرسة، الدجاج، أو لحم الخراف الطازج، وهي لذيذة جداً، أكثر لذة من اللحوم الموجودة في السعودية، فتخيل خرافاً تتغذى على الأعشاب الطبيعية الممتدة على مدى البصر وتشرب من مياه الأنهار أو الأمطار التي لا تنقطع، لا تأكل شعيراً مجففاً أو كيماوياً ولا حرارة تقطع أنفاسها أو أحواش ضيقة تؤثر على طراوة لحومها، فكان الفرق كبيراً في الطعم، حتى لو لم يستخدم سوى الملح والفلفل الأسود أثناء شيها، يكون لها طعم غاية

Twitter: @ketab_n

في اللذة. وبعد أن أشتري اللحوم أعرّج على بائع خضار في مدخل نهاية شارع «الكوينـز واي»، وهو من عائلة يهودية لا تزال إلى الآن تمتهن نفس العمل وصداقتي مستمرة معهم، فكنت أبتاع منهم مقدار طبخة ليوم أو يومين فقط، حرصاً أن يكون الطعام طازجاً قدر الإمكان. ومن ثم أعمل له غداء وعادة يكون غداء وعشاء. وكالعادة الأخوة الجزائريون لا يزالون يأتون زرافات ووحدانا وكنت أعمل حسابهم يوماً بعد يوم، حتى أصبحت طباخاً رسمياً لحضرتهم، فبدل الدجاجة صرت أضع دجاجتين أو ثلاث، أو فخذ خروف كاملاً، بل إن بعضهم أصبح يقترح بقوة عين أن أتعلم الكسكسي، عشان أرضي جميع الأذواق ولا أكون «متعصباً لأكل السعودية». كان أخي يعتبر مرشداً عاماً «للإخوان الجزائريين»، بينما أصبحت فجأة «الطباخ العام»، لحضراتهم، فأزداد حنقي على ما آلت إليه الأوضاع فحدثت بها يوماً أحد زملائي في المعهد واسمه حمدي المصري الذي يعمل في مطعم رمضان في شارع «الكوينـز واي»، ويدرس في مدرسة اللغة فقط للحصول على الإقامة والغرض من وجوده في لندن هو العمل فقط وليس اللغة. فأخبرني بأن لديه الحل، فطالما أن أخي لن يأكل إلاّ طعام المسلمين فهو يتبرع بأن يُعد له وجبات الطعام يومياً من المطعم مقابل مبلغ بسيط، هو نفس المبلغ الذي يكلفني ثمن مقادير الوجبة، ولكن لكمية تكفي ٢ أو ٣ أشخاص على أبعد تقدير. وبهذا قطعنا التموين عن «الإخوة» وتمكنا من «تجفيف منابع الدجاج»، مما نتج عنه أن خفت حركة الرجل عن الشقة ٤١ Ralph Court. فأصبح لدي وقت أكبر للحركة والخروج في شوارع لندن وزيارة متاحفها وحدائقها والسينما وما إلى ذلك. ومع مرور الأيام بدأت أنتبه لنفسي جيداً، خصوصاً بعد أن ركزت وضعي في المدرسة وأصبحت أتقن اللغة الإنجليزية بسرعة رهيبة لأن الجو العام وطريقة التدريس جعلت تعلمها سهلاً جداً بالنسبة لي، وقد كنت أعاني كثيراً قبل ذلك منذ الصف الأول متوسط وحتى الثالث ثانوي ولم أستطع النجاح إلاّ بالغش واللف والدوران في هذه المادة. حتى مظهري العام تغير بمقدار ١٨٠ درجة، فقد انتظرت إلى أن أتت مناسبة Guy Fawkes وهي

Twitter: @ketab_n

عيد يقوم فيه البريطانيون بإشعال الحرائق في المنتزهات العامة وفي الساحات، احتفالاً بنجاة الملك «جيمس الأول» العام ١٥٧٠ عندما قام بعض رجال الدين بمحاولة نسف البرلمان عليه لاعتقادهم بأنه لا يطبق التعاليم الدينية المسيحية كما يجب، فقد كان ليبرالياً زيادة حبتين. لكن المؤامرة كُشفت بالصدفة وتم إحراق رجل الدين Guy Fawkes، وأصبح ذلك اليوم احتفالاً سنوياً يتم فيه إحراق الأشجار والألعاب النارية. فقمت باستغلال هذه المناسبة الكبيرة وأحرقت فيها جميع الملابس المهلهلة الرخيصة والرديئة التي أتيت بها من الدمام، من سوق عيال بن ناصر وسوق الخميس بالقطيف وعلى رأسها بالطو هتلر عديم اللون، كريه الرائحة. كما قمت لاحقاً بقص شعري لدى المزيّن العالمي في لندن Andrew Jose، وبسبب توفر السيولة المالية، صرت ألبس أجمل الملابس من Top Man و Selfridges وغيرها من المحال التي كانت مشهورة تلك الأيام. فأصبح شكلي مقبولاً جداً... أي مقبول يا عمي... كنت والله وسيماً لدرجة كانت الفتيات هن اللائي يتحرشن بي، وأنا أتهرب خجلاً وكذلك لعدم وجود الثقة الكاملة بأني أستطيع أن أعبّر عن نفسي كما يجب، فأقول، يا ولد خلهم يحسون إنك ثقيل ولا تتورط بسوالف منت قدها.

Twitter: @ketab_n

غـــوايـــة

في أوج فصل الخريف كنت سائراً لوحدي وسط حديقة «جيمس بارك»، وحفيف أشجارها الشجي يصدح في أذنيّ، بينما تتلاعب الرياح الباردة في الأوراق الذهبية المتساقطة من فروعها، وقد أصبح النهار قصيراً جداً والمساء يحل عند الثالثة والنصف، فالأشجار التي كانت خضراء باسقة في شهر أغسطس الفائت بدت الآن جرداء موحشة وفروعها كأنها أشباح تحيط بالحديقة من كل اتجاه. فقررت وسط هذا الجو الموحش أن أحتسي القهوة في كوخ صغير يستخدم كمقهى والذي كانت إضاءته الخارجية خافتة لتزيد من وحشة المكان والزمان معاً. طلبت قهوتي وبدأت ارتشافها في الوقت نفسه الذي جلست فيه بالقرب مني فتاة جميلة تضع مساحيق براقة يعكسها الضوء الخافت. ابتسمت لي بغواية وبادلتني الحديث عن الجو وكيف أنه موحش ويزيد من الشعور بالوحدة والملل. وافقتها الرأي وتجاذبنا أطراف الأحاديث المختلفة، ثم ومن دون مقدمات طويلة طلبت مني مرافقتها للسهر معاً في أحد النوادي الليلية في شارع «هاي ستريت كنجنستون»، ويسمى Sombrero، وافقت في الحال، فهذه أول تجربة لي أن أواعد فتاة حقيقةً وليس في أحلام اليقظة. ولأني كنت شاباً غراً فقد قررت أن أخوض التجربة من دون تراجع، فأخذت منها العنوان ووعدتها أن أكون هناك بعد أن أطمأن على أخي وأتأكد أنه قد تناول عشاءه.

عرجت على حمدي المصري وأخذت عشاء لأخي المريض الذي أخبرته بأني سوف أتأخر بعض الشيء لارتباطي بموعد مع أحد الأصدقاء،

Twitter: @ketab_n

فدعا لي بالتوفيق وأن يحفظني الله من كل سوء وخرجت فركبت الأندرجراوند من Bayswater station إلى High street Kensington station، بحثت عن النادي الليلي فوجدته من دون عناء وكان في القبو أسفل شارع هاي ستريت كنجنستون. عندما نزلت الدرج وجدت أحد لاعبي الخليج المشهورين يلبس ثوباً عمانياً (جنسيته ليست عمانية، لكنه كان أحد هدّافي دورات الخليج) وجالس في النادي وكأنه في قهوة أبو حمدان (أول مرة أدخل نادياً ليلياً)! «بتتعبون من كثر ما تسمعون كلمة (أول مرة في حياتي)، لأني جاي بقراطيسي بصراحة.» جلست على أحد المناضد وأنا أرى الناس من حولي سكارى وهم سكارى بالفعل وعبق الدخان يكتم الأنفاس والموسيقى الصاخبة تصم الآذان. بعدها وصلت الفتاة التي كنت في معيتها في حديقة «جيمس بارك»، ولم أتبين ملامحها مرة أخرى لأن المكان لا تضيئوه سوى الأنوار التي تتراقص مع الموسيقى، رحبت بها وطلبت لها قهوة سكر زيادة، لأني رفضت أن أطلب لها خمراً، وطلبت لي عصير برتقال «عرنجوز»، فضحك النادل من طلبي ولكنه سرعان ما عاد وقدمه لنا. أثناء الحديث معها طلبت مني أن نرقص معاً خصوصاً عندما صدحت أغنية مشهورة تلك الأيام وهي Careless Whisper، فاستعددت للرقص معها، بيد أني رأيت صديقاً قد تعرفت عليه من قبل واسمه أحمد الحبتور من الإمارات العربية ويدرس في لندن، فنظر إليّ نظرة غريبة وكأنه متضايق من شيء. ابتسمت له وتقدمت وسلمت عليه وقلت: «ما بك يا أحمد تنظر إليّ هكذا؟» ردّ عليّ بضيق شديد: «نديم هل تعلم مع من تجلس الآن؟» رددت: «لا، لكنها فتاة تعرفت عليها عشية هذا المساء في حديقة «جيمس بارك»، ودعتني للسهر معاً ولا أعرف سوى اسمها الأول.» قال: «يا حبيبي هذه الفتاة التي تتأبطها وأنت مسرور كانت رجلاً حتى السنة الماضية وهي معروفة في هذا المكان وقد حولت نفسها لفتاة، وإن كنت ترضى بهذا الوضع فأنا لا أرضاه لك.» لم ينهِ أحمد كلامه إلاّ وتذكرت ذلك السوداني الذي قابلته في أول مرة في قهوة الفكر العربي، فأحسست بنفس الضيق الذي اعتراه فركضت نحو دورة المياه، كرمتم، وأفرغت ما في جوفي، ثم

Twitter: @ketab_n

وليت هارباً خارج الملهى. ثم لحق بي أحمد ليطمئن علي، وكانت لديه سيارة زد أكس حمراء اللون وقال: «أركب معي، سآخذك للشقة لكي ترتاح». قلت له: «لا، لا تأخذني للسكن، بل أصنع لي معروفاً وخذني إلى المسجد في Green Park.» فوصلت إليه قبل صلاة الفجر وصليت ركعتين استغفاراً، ثم فتحت المصحف ويداي ترتجفان وقرأت، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾ صدق الله العظيم.

Twitter: @ketab_n

أول لقاء بالفايد صاحب هارودز

شاهدت محمد عبد المنعم الفايد أول مرة العام ١٩٨٤، بعد سنة من شرائه شركة «هاوس أوف فريزر» والتي تتبعها محال «هارودز» الشهيرة، وذلك عندما كنت أتناول القهوة والكعك مع موظف السفارة السعودية سليمان المتروك، الذي تقاعد عن العمل ويوجد بالرياض حالياً، في المقهى الفرنسي الراقي والموجود في الطابق الأرضي والذي يعود تاريخه للعام ١٨٧١، ورواده هم من الطبقة المخملية الإنجليزية. كان الفايد يجلس مع بعض رفاقه إلى طاولة قصية بيد أن صوته النشاز كان يطن في آذاننا من بين كل رواد المقهى، خصوصاً وهو يتحدث بإنجليزيته الركيكة بلكنة مصرية بلدية، فيردد، «زيس، زات، توقيزر» this, that, together، ثم يكركر بعد كل جملة أو جملتين. سألني المتروك هل تعرف من هذا الرجل؟ كنت أعتقد أنه يوناني أو من مواطني شرق أوروبا على أبعد تقدير، لكنه قال لي: «هذا هو الفايد الذي اشترى هارودز مع أخويه علي وصلاح». وأثناء خروجنا من المقهى ألقينا عليه التحية ورد بتحية أحسن منها وهو الشيء الذي لم يعد يقوم به الآن، ويعرف ذلك كل من قابله من العرب في السنوات الأخيرة أثناء تجواله طوال النهار، وبخاصة في الصيف في وكالة البلح بتاعته، هارودز، ففي السنوات الأخيرة أصبح أكثر تجهماً وكأنه لا يمت للعرب بصلة ولم يأكل معهم يوماً فولاً أو بصلة. قد يكون ذلك بسبب حجم المآسي التي ألمت به وأنهكته في مشوار حياته المتقلب بين الجوع والفقر والغنى الفاحش والحروب التجارية الطاحنة والنجاح وصعود المراتب الاجتماعية بسرعة ثم فقدانه المأساوي لابنه ولفظه من قبل الطبقة المخملية الإنجليزية وإقفال أبواب الملكية في وجهه.

Twitter: @ketab_n

لكن من هو هذا الفايد الرجل اللغز الذي تدور حول حقيقة شخصيته الكثير من علامات الاستفهام حتى للسلطات البريطانية نفسها. ولمعرفته نبدأ باسمه الحقيقي الذي هو محمد عبد المنعم فايد وليس الفايد، يُقال إنه أضاف أل للتفخيم. أما أبوه فهو رجل بسيط كان يعمل مدرس لغة عربية في مدارس الإسكندرية، وبدأ الفايد حياته بكل عصامية فعمل عندما كان يافعاً كحمال في ميناء الإسكندرية، ثم أنشأ مكتب استيراد وتصدير في الإسكندرية مع أخويه علي وصلاح وامتلكوا ثلاثة مراكب بحرية صغيرة وسماها صلاح الله وما شاء الله وعماد الله، وهذا يوضح تأثير النشأة الدينية عليه في بداية حياته. وتعرّف مع مرور الوقت على عدنان خاشقجي وتزوج من شقيقته الكاتبة الراحلة سميرة خاشقجي، والدة ابنه دودي، أو عبد المنعم، وبدأ من هنا الانطلاق نحو الحلم الكبير فحقق في البداية مكاسب كبيرة لكن سرعان ما تراجع للصفر بعد أن أمم جمال عبد الناصر بعض أملاكهم في مصر، التي توافقت مع بعض الخسائر التجارية في السعودية، فقرر ترك المملكة والتوجه للعمل في السوق الجديدة الواعدة في الإمارات العربية المتحدة. فسافر إلى الخارج بسيارته البيجو الكحيانة وحمّل عليها عفشاً بارتفاع السيارة مرتين، مثلما نرى الآن السيارات الصغيرة في الصيف وجلهم من المدرسين العرب وهم عائدون نحو أوطانهم، فنرى سيارة كورولا مثلاً تحمل عفش شقة كاملة وتسير بسرعة سيكل وعادة تكون شبابيكها مفتوحة بالرغم من حرارة الصيف اللاهبة. لم يكن يتوفر لدى الفايد الكثير من الكاش في ذلك الوقت، ولكن كانت تتوفر في عقله مشاريع بالمليارات، فوصل إلى الإمارات بشق الأنفس بعد أن عانى من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وبدأ بسرعة العمل هنالك وكوّن ثروة جيدة وعوّض الكثير من الخسائر المالية السابقة. دخل مع شيوخ الإمارات الكرام الذين أكرموه وأعجبوا بهذا الجنتلمان المصري الأنيق والذي كان يسرح بهم بالكثير من المشاريع التي يسيل لها اللعاب واستطاع تكوين ثروة كبيرة خلال ثلاث سنوات وهو يبلغ من العمر حوالي ٣٦ عاماً فقط. أنشأ وهو في الإمارات شركة مقرها بريطانيا اسمها «كوستين للمقاولات»، التي فازت بعقود عمرانية ضخمة في الخليج، كما أنشأ شركة أخرى في بريطانيا استطاعت أن تفوز بعقد تأمين الخضار والفواكه

Twitter: @ketab_n

يومياً للقصر الملكي، وهي من أحد أسباب رفض الملكة البريطانية أن يكون المعلم بتاع الباذنجان والكوسى والقرع البلدي، نسيباً لهم في يوم من الأيام، حتى وإن اشترى لاحقاً هارودز والكثير من الشركات الناجحة، فلا يزال في نظرهم المعلم الجاهل ولا تهمهم كنوزه أبداً. قام الفايد عام ١٩٧٩، بشراء فندق «رتز» التاريخي في باريس وأعاد له السمعة الراقية التي تميز بها طوال تاريخه العريق بعد أن تدهورت لبعض الوقت بسبب سوء إدارته السابقة، وقام بكل ذكاء بالتلحوس والتقرب من أهم زبائنه في ذلك الوقت وهو سلطان بروناي حسن بلقيه، الذي كان يقيم فيه عند زيارته لباريس، وكان يحجز عادة له ولحاشيته ١١١ حجرة من أصل ٢٦٠ حجرة. وبسبب هذا الاهتمام الشخصي من الفايد وتوطد العلاقة بينهما، طلب منه سلطان بروناي أن يقوم بسلسلة من الاستثمارات التجارية باسمه في بريطانيا، فبدأ أولاً بشراء فندق «الدورشستر» في شارع «الباركلين» بمبلغ يصل نحو ٢٥٠ مليون جنيه إسترليني، ثم اشترى عام ١٩٨٣ شركة «هاوس أوف فريزر» وتملك بذلك متجر «هارودز» بالإضافة إلى العديد من المشاريع الضخمة الأخرى.

الفايد لديه الآن أربعة أبناء وبنات من زوجته عارضة الأزياء السابقة الفنلندية، بالإضافة إلى ابنه الراحل دودي من سميرة خاشقجي. وبالرغم من استثماراته الكبيرة في بريطانيا فهو لم يحصل على الجنسية البريطانية، التي يحصل عليها أي هلفوت يطلب اللجوء السياسي ويخسّر الدولة البريطانية راتباً ومعيشة وسكناً وتعليم أبنائه مجاناً، وسبب الرفض هو أنه ثبت للسلطات البريطانية بأنه شخص «غير نزيه، وغير صادق»، كما أنه ولهول المصيبة، وبالرغم من كل تلك المليارات، وأنه يمتلك متجر «هارودز»، رمز الطبقة المخملية وقبلة الطبقات العليا في المجتمع الإنجليزي والعالم كله، إلاّ أنه مرفوض ومنبوذ تماماً من حفلات ولقاءات الطبقة الإنجليزية الراقية. فهو ممنوع عرفياً منذ نحو عشرين سنة من حضور الحفلات التي تشرفها الملكة، وبخاصة من قبل عدوه اللدود وزوج الملكة إليزابيث، الأمير فيليب، ولذلك حاول المعلم «حسب الله»، محمد الفايد أن يضرب ضربة معلم جديدة في بلاد الإنجليز و«يتشعبط» بالعائلة المالكة

Twitter: @ketab_n

بواسطة يد الأميرة ديانا في محاولة مستميتة لدخول المجتمع المخملي البريطاني من أوسع أبوابه، ويحسب أن المسألة مثل «الشعبطة» في أتوبيس ميدان التحرير. فالمشكلة أن الفايد لا يزال وبرغم ثرائه الفاحش يشعر بعقدة النقص في قرارة نفسه، فحاول أن يزج بابنه للزواج من الليدي ديانا والتي كانت تمر بحالة إحباط بعد طلاقها من ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز. وفي رأيي المتواضع، الأميرة ديانا لم تكن تنوي الزواج منه بتاتاً، لكن كأي مطلقة محبطة تحاول أن تغيظ طليقها وأهله بأقسى ما يمكنها، وأن تداوي جراحها وتنتقم لكرامتها المهدورة، فلم تمانع التقرّب من دودي كيداً في حماتها الملكة إليزابيث، وفكر المعلم «حسب الله»، أبو دودي أن المسألة سايبة وأن الطريق سالكة للطبقة المخملية، فهو في مخيلته الواسعة، أنه بعد كتب الكتاب الخميس «الجاي» إن شاء الله، وعمل الفرح فوق سطوح «هارودز» سيكون بلا شك أبو نسب مع العيلة المالكة وما فيش حد أحسن من حد بعد كدا. لكن حساباته كانت خاطئة للأسف، فالعائلة البريطانية والبريطانيون لا يمانعون أن تستثمر وأن تشتري وتبيع، مثلك مثل جميع تجار العالم في بلادهم، لكن أن تدخل عليهم من المنور وتختلط بالدماء الملكية، فهذه وحدها تحتاج حرباً صليبية عكسية تدوم ٨٠٠ سنة أخرى، والله أعلم.

وللأسف فإن الفايد مازال بعد أن تفركشت القوازه إلي كانت في دماغه لوحده، يحاول طوال الوقت أن يتحجج بقميص الأميرة ديانا، وأن خلفها مؤامرة استخباراتية بريطانية فرنسية، ويضع تمثالاً لهما في «هارودز» وخاتم «ألماز» داخل هرم صغير من الكريستال في النصب التذكاري لدودي وديانا، يعني غصب خطيبته. كل ذلك غير صحيح وهراء تام، لكن الفايد إما أنه كذب الكذبة وصدقها، أو أنه يستثمرها لآخر مدى لأنها في النهاية تصب في مصلحته وتظهر مدى أهميته لأن خصومة مش أي كلام، فهم بمستوى العائلة الملكية والاستخبارات البريطانية، فهذا هو العلاج الذي يحتاجه باستمرار ليثبت بأنه هو «البيه» الكبير.

Twitter: @ketab_n

فندق "كلوستر ترس"

الأستاذ عابد العتيـبي، مدرس من مكة المكرمة قوي البنية وفي عنفوان الشباب ويتمتع ظاهرياً بصحة وافرة، وصل مدينة لندن بعدنا مباشرة بحثاً عن العلاج، وكان مصاباً كذلك بسرطان الدم، وعندما تعرفنا عليه اعتقدنا بأن الشخص الآخر المرافق له، الضعيف البنية كأنه هيكل عظمي، هو الشخص المريض وأن الأستاذ عابد الصحيح البدن هو من سيتبرع بالنخاع العظمي للصعلوك المرافق له، لم نكن نحن من أعتقد ذلك فقط، بل إن الدكتور «جولدمان» الطبيب المعالج عندما استقبلهما التبس عليه الأمر في البداية، كما حصل معنا. وهذا يوضح مدى خطورة هذا القاتل الصامت الذي قد يصيب الإنسان في أي وقت حتى وإن كان صحيح البدن وفي مقتبل العمر.

سكن عابد العتيـبي ومرافقه مرزوق العتيـبي في فندق اسمه Gloucester Terrace ويعمل بنظام الشقق ويبعد مائة متر عن فندق «لانكستر جيت»، الشهير والمواجه «للهايدبارك»، والفندق الأخير معروف للسياح العرب وتُقام فيه حفلات غنائية في الصيف لمحمد عبده وراشد الماجد وعبادي الجوهر ورابح صقر ونوال ونجوى كرم وغيرهم، وقد حضرت بعض تلك الحفلات وسكنت فيه لاحقاً مرات عدة. أما الفندق الصغير «كلوستر ترس»، الذي سكن فيه الأستاذ عابد، والذي يعمل بنظام الشقق فتعود ملكيته لشخص عربي أو عربجي، لا فرق واسمه شيبة عرعر، وهو رجل متهور وجشع وبلطجي طويل وهبيل أبيض البشرة كريه العشرة ويعشق كرة القدم مثلي، لكنه أكثر جنوناً وجنوحاً وصفاقة. وقد توطدت علاقتنا معه عندما كنا نعود عابد باستمرار في شقته، وكوّنا معه فريق كرة

Twitter: @ketab_n

قدم جله من سكان الفندق الخاص به وبعض الإنجليز الصيع من الحي نفسه، وكان شيبة عرعر من هوسه باللعب ينقلب إلى تكروني» أبيض بخاصة إذا أغاظه أحد أثناء اللعب سواءً بعدم تمرير الكرة له دون غيره أو في إضاعة فرصة التهديف في مرمى الخصم، فيقوم بالزعيق والصراخ ويلطم على وجهه الأشلح، بل إنه في كثير من الأحيان يشق قميصه إلى نصفين عندما يُهزم. وبرغم أننا كنا نلعب للتسلية وحباً في رياضة كرة القدم، إلاّ أنه كان يخبرني أحياناً بأنه في بعض الليالي يجافيه النوم بسبب هزيمة في التمرين وكأنه فقد التأهل لكأس العالم.

عابد وبالرغم من مرضه الخطير، كان إنساناً وسطياً أو أقل من وسطي «حبة ونص»، وكنت أنا وسطياً و«عليها بوستين» من الناحية الدينية ومتأثراً كثيراً بأخي إلى درجة ما، خصوصاً فيما يتعلق بـ«طعام أهل الكتاب»، فكنت كلما نود أن نأكل طعاماً ما، أقول لهم، لحظة يا جماعة لن نأكل هذا الطعام حتى نتأكد بأن ليس فيه أي من مشتقات الخنزير، فيصبر عليّ الأستاذ عابد صبر أيوب حتى أتأكد بأن ex3F16، مثلاً ليست مادة من مشتقات ذيل أو رمش أو عرق الخنزير لا سمح الله. وكان عابد يمشي الأمور ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ويكتم غيظه صابراً على لقافتي وأظنه غير محتسب لذلك، حتى أتى يوم وقد أبتاع صابونة من النوع الرخيص والرديء من سوق «شبردزبوش» الشعبي الذي يقع ناحية الغرب من «الهايدبارك»، وقد شد للصابونة الرحال مسافة سبعة كيلومترات قطع خلالها خمس محطات «أندرجراوند»، وعاد فرحاً بها هاشاً باشاً واستعد المسكين للاستحمام، فقلت له: «تمهل يا عابد أفندي، دعني أقرأ المكونات فقد يكون ضمن مكونات الصابونة زيت شحم الخنزير والعياذ بالله، لأني سمعت كثيراً بأنه يُستخدم عادة كرغوة للصابون.» فأكفهر وجهه واحمرت عيناه وارتعدت فرائصه وسحب الصابونة مني بكل عنف وقال: «والله يا نديم يا ولد أبو نديم يا فيلسوف العصر والأوان، لو أني عصرت الصابونة بكلتا يداي هاتين وطلع منها خنزيراً حياً يمشي بشحمه ولحمه لما ترددت أن أستحم بها صباحاً ومساءً، أغرب عن وجهي فقد غثيتني بنصائحك وحاصرتني حصار عكا بخنازيرك». وعندها عرفت أن لقافتي قد

Twitter: @ketab_n

أوصلت عابد إلى حافة جنون الخنازير، فقلت له: «خلاص روح استحم ولا تزعل وحقك عليّ يا عم عابد، وعلى ما تخلص استحمام بالصابونة المشبوهة سوف أذهب أنا ومرزوق، المرافق له في العلاج، لإحضار العشاء حتى يطيب خاطرك.» وذهبنا إلى مطعم في شارع Bishop's Bridge والذي تقع فيه محطة بادينجتون ستيشن العتيقة والتاريخية والتي افتتحت عام ١٨٥٤ واشتهرت بتصوير الكثير من الأفلام القديمة داخلها نظراً لطرازها الفيكتوري الخلاب والملهم لكل المخرجين، ويتفرع شارعها من شارع ادجورورود.

فأحضرنا من أحد المطاعم العتيقة في ذلك الشارع كمية وافرة من الفش آند شبس وبيتزا وبيبسي، كما أني وجدت بيضاً شهياً مغطى بطبقة من السماق المقرمش فأحضرت منه عدد خمس بيضات، وعدنا أدراجنا وقد خرج عابد من حمام الهنا منتعشاً طرباً ويغني حاملاً بين يديه الصابونة بكل حرص وعناية وكأنه يخشى أن أصادرها على غفلة منه. وبدأنا بتناول العشاء اللذيذ خصوصاً وأن الجو كان بارداً جداً وفي البرد يحتاج الجسم للطعام أكثر من أيام الدفء، وقبل أن نبدأ الطعام قال لي مازحاً: «هاه يا دكتور نديم، فيه خنزير وإلا نسمي بالله؟» فأجبت: «لا خلاص أنا غيرت الاستراتيجية من الآن فصاعداً، سوف نأكل الطعام أولاً ثم نتأكد، ولكل حادث حديث، فحتى أنا والله طفشت من حكاية الخنزير.»وفعلاً بدأنا بالأكل بشهية مفتوحة، وأتت فجأة خديجة المغربية والتي تعمل في الرسبشن تسأل عن صاحبنا السعودي فؤاد، الذي يسكن في الفندق نفسه ونظرت نحو الطعام الذي نتناوله وصرخت فينا بشدة: «تأكلوا حلـــوف (الخنزير)، حرام عليكم، احشموا يا مسلمين.» قلنا: «وين الحلوف يا خديجة؟» ردت: «البيض المسلوق إلي بتزطوه، تحت طبقة السماق شرائح لحم حلوف قرف الإنجليز، الله يقرفكم.» صدمنا لما تأكدنا بأننا قد تناولنا الخنزير فعلاً والمصيبة أنني أنا الذي أحضرته بيدي وقد كنت لهم دوماً الناصح الأمين، وراح كل واحد يفرغ مافي جوفه من الطعام، وحرّمت بعدها أن أكون مصلحاً اجتماعياً ما حييت أبداً.

Twitter: @ketab_n

أما فندق «كلوستر ترس» لمالكه شيبة عرعر، والذي يسكن فيه عابد فقد كان فندقاً مريباً جداً، وتدور الشكوك الكثيرة حول صاحبه، فقد كان هنالك حوالي خمس شقق مؤجرة لسعوديين، بالإضافة إلى الأستاذ عابد، كان على ما أذكر هنالك طباخ من مكة المكرمة لديه طفل مريض جداً بالإسهال المزمن، عدم المؤاخذة، وكان يصاب جسمه بالجفاف والهزال حتى يقترب من حافة الموت بسبب فقدانه السوائل، ليدخل المشفى فتعود له الحياة بواسطة المغذيات لفترة من الزمن ثم يخرج، لكن سرعان ما ينتكس، فأتى به أبوه إلى لندن بحثاً عن العلاج.

وشخص آخر اسمه «مهجع»، اسم حقيقي من الشمال، وآخر اسمه «شوعي» من جيزان، لما تسأله عن اسمه يرد عليك بطريقة غريبة كأنه صوت مسجل قديم سريع «شوعي!» وكان ابنه لا يسير على رجليه ويركب كرسياً متحركاً، ولكن لا أذكر الآن ماذا كان نوع مرضه، لكن الذي أذكره جيداً أننا كنا في رحلة عربية إلى «ملاهي آلتون تاوزر»، وسأله منظم الرحلة خلال مسابقات بين المسافرين للتسلية في الطريق عن هوايته، فأجاب إن هوايته أن يشتري مزرعة، فأعاد السؤال أكثر من مرة بأنه، ليس «ما هي أمنيتك يا شوعي؟»، ولكن «ما هي هوايتك يا شوعي؟» وأصر شوعي على شراء المزرعة حتى كادت أن تقوم خناقة بينه وبين منظم الرحلة.

كما كان يسكن في الفندق المشبوه شاب اسمه فؤاد، من جدة وكان في سني ولكن وزنه يصل إلى نحو ٢٠٠ كيلوغرام وهو يتعالج من داء السمنة، ومشكلة جسمه كما عرفت، بأنه يحتاج يوماً كاملاً لحرق بيضة واحدة فقط، لذلك وضع له البروفسور برنامجاً ممتازاً مع بعض العلاج حتى وصل وزنه ٦٨ كيلوغراماً وأصبح وسيماً وسعيداً ومقبلاً على الحياة ويرتدي أجمل الملابس بعد أن كان يمشي في أزقة لندن بثوب سعودي كأنه خيمة يكلفه طاقة كاملة من القماش ويرتدي فوقه جاكيتاً بلون رصاصي طوال المدة التي عرفته فيها. في إحدى المرات ظهرت له صورة من الخلف في مجلة «المجلة»، وهو يسير في شارع البيزووتر، وكانت الصورة ضمن تقرير عن استثمارات العرب العقارية في بريطانيا، وكُتب تحت صورته

Twitter: @ketab_n

(أحد تجار العرب يبحث عن فرصة استثمارية في لندن)، وكان فؤاد سعيداً بظهور صورته الخلفية بدلاً من أن يقدم شكوى ضد المجلة التي استغلت صورته من دون وجه حق. بعد أن نزل وزنه وأصبح معقولاً جداً، بل رائعاً غادر لندن في إجازة إلى السعودية لمدة شهرين ليري أهله المفاجأة الجميلة وكيف أصبح إنساناً آخر وسيماً تعشقه الفتيات، اللائي كثيراً ما أعرض عنه بل ضحكن منه أو أشفقن عليه عندما مر دونهم يوماً ما. لكن وللأسف الشديد، فعندما عاد إلى لندن بعد انقضاء إجازته الطويلة نوعاً ما، استقبلته في المطار وصُدمت من هول ما رأيت، فقد عاد إلى وزنه البشع القديم بالتمام والكمال وحشر نفسه من جديد في لباسه القديم، ذلك الثوب المنفوش المهلهل والجاكيت الرصاصي الكريه. وعندما عاد كان قلقاً ويتوجس في نفسه خيفة أن يراه البروفسور المعالج في صورته الجديدة القديمة، فأخذني معه في اليوم التالي للمشفى وعندما دخلنا على البروفسور وتأكد أنه هو فؤاد، قذف الطبيب بنظارته بعنف على الطاولة وبكى بحرقة على مجهود سنة كاملة تبخر بسرعة على موائد «أرملة البحر الأحمر، جدة».

كما أنني لا زلت أذكر بأسى شخصاً رابعاً من «القصيم» اسمه «مالك الحزين»، كان مصاباً بسرطان الرئة وفي الخمسينات من عمره، يهيم وحيداً على وجهه دوماً في أزقة لندن بثوب وشماغ من دون عقال ويحمل معه أينما ذهب سجادة صلاة عتيقة زرقاء اللون من القطيفة المتموجة فيصلي عليها كلما حان وقت الصلاة. وأخبرتني في أحد الأيام الممرضة «مسز جراث»، أن أمام «مالك الحزين»، فرصة أقل من شهرين للحياة وبعدها سيموت لا محالة بسبب تطورات المرض الخبيث. فأصبحت أساعده في شراء أغراضه وتوصيله والعناية به وخدمته وتلبية طلباته كأنها أوامر بالنسبة لي، حتى أنه سألني في أحد الأيام بنظرة مكسورة، عن سبب عطفي الزائد عليه، فتوقف الكلام في حلقي ودمعت عيناي وهربت منه من دون أن أرد عليه، لأنه على ما يبدو لم يكن يعلم بأنه سيموت بعد أسابيع قليلة. وقد توفي لاحقاً بعد أن أدخل المستشفى لآخر أسبوعين وأصبح خلالها يصاب

Twitter: @ketab_n

بنوبات سعال لا تنقطع، لا أبالغ بالقول إنها تستمر نحو ٥ ساعات متواصلة، فكنت من حزني عليه أصم أذنيَّ وأنا في غرفة أخي حتى لا أسمعه وهو يتألم.

كان يوجد الكثير من العرب في الفندق، ولكن لم أنسَقط فتاتين يمنيتين تعيشان لوحدهما في الفندق، اسم المريضة دمعة والأخرى أمل، كانت دمعة مصابة بسرطان في أحد أعضاء جسمها، ولم أكن أذكر كيف وصلتا لندن، ولكن أذكر أنهما أصيبتا بالفاقة وضيق ذات اليد ولم تستطيعا حتى دفع أجرة الفندق، فما بالكم بالعلاج. وكنا في الغربة نعتبرهم مثل أخواتنا، فكفيناهما السكن والطعام والمصروف اليومي، وهذا ما كنا نقدر عليه في تلك الفترة، وعندما نذهب للنزهة في «الهايدبارك» والذي يقع خلف الفندق في العصريات الجميلة، كانتا تسيران خلفنا على استحياء، ثم تجلسان في مكان قصي عنا ونحضر لهما المكسرات والبسكويت والكعك وهما تعدّان لنا القهوة اليمنية بالقشر والشاي الصنعاني. وقد تجلت بيننا الرحمة والأخوة في الإسلام بكل صفاء وإيثار، فأصبح شغلنا الشاغل هو سترهما ومساعدتهما في تدبر أمورهما، لكن بقيت مشكلة علاج المريضة منهما مشكلة ليس لها حل، فكلفة العلاج تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات، وهو ما يفوق ميزانياتنا جميعاً. وفي يوم من الأيام السعيدة الحظ كان الأستاذ عابد يسير وحيداً في «الهايدبارك» وجلس بجانبه رجل عربي وقور وتبادلا الحديث معاً، وكان اسم الشخص على ما أذكر السويدي، وهو من الإمارات العربية المتحدة وكان يعمل مستشاراً لشخصية كبيرة في الإمارات فأستغل عابد الفرصة وشرح له مأساة دمعة وأمل، وعرض عليه إمكانية مساعدتهما، فوافق السويدي من دون تردد، وطلب أن تأتي الفتاتان للسفارة الإماراتية من الغد والتحدث مع السفير الإماراتي حينئذ وأظن اسمه مهدي التاجر، وتم تحويل دمعة للعلاج بكل بساطة ومن دون أي روتين أو تعقيد في مشفى Cromwell Hospital. وقد احتفلنا بعابد بعد أسبوع من حصول دمعة على العلاج في حديقة «رتشموندز بارك» وحملناه فوق رؤوسنا وقذفنا به في السماء بعد الغداء مثلما ما يفعل اللاعبون عندما يحملون مدرب الفريق عند الفوز بالكأس وسط زغاريد دمعة وأمل.

Twitter: @ketab_n

شيبة عرعر

كثرت مع مرور الأيام السرقات في فندق «كلوستر ترس»، للسكان الخليجيين والسعوديون منهم بالذات، فقد تمت سرقة جميع المرضى السعوديين الواحد تلو الآخر باستثناء شخص واحد فقط. كان كل أسبوع أو أسبوعين يُسرق أحد المرضى، فيتم الاستيلاء على ماله كاملاً أو الذهب والمجوهرات. وكان واضحاً للجميع أن السرقة تتم بتواطؤ من أصحاب الفندق لأنه لا يوجد عنف أو كسر للغرف، كما أن السرقة كانت تحصل خلال خروج السكان للعلاج أو التسوق، وكأنهم يعرفون مواعيد دخولهم وخروجهم، ولم ينجُ من السرقة سوى «مهجع»، الشمالي لأنه كان سعودياً بقراطيسه ولا يثق بأحد مطلقاً، حتى نحن لم يكن يثق بنا. وأجزم أن هذا السبب هو سر نجاته، فالشيخ «مهجع»، إذا جلس معنا لا يخبرنا شيئاً عن نفسه بتاتاً وكأنه يحمل أسراراً خاصة بـ«السي آي إي»، ولا يأكل من أي طعام نقدمه له أو حتى يشرب الشاي معنا، وعرفنا بعد ذلك أنه «موصى كويس» في السعودية من الحرامية والدجالين، لدرجة أنه أدخلنا في قائمة المشتبه بهم، فقد كان يعتقد بأننا سنضع له الحبوب المنوّمة في الكأس مثل الأفلام. وأحلق شنبي إذا ما كان مخبي فلوسه، كلها في شراريبه أو في طيات ملابسه الداخلية طوال فترة علاجه، وأعتقد بأن من كان يعرف سر مكان فلوس «مهجع بيه»، هو فني الأشعة فقط والذي من المؤكد أنه رأى الفلوس واضحة في شرائح الأشعة خصوصاً المعدنية منها.

كان السعوديون في تلك الأزمان يستغفلهم الناس بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فلم يشتكِ أحد من الضحايا للشرطة لعدم فهم حقوقهم

Twitter: @ketab_n

أو لخوفهم من أن يسبب لهم ذلك المتاعب كما كانوا يتصورون. وقد شككنا كثيراً في شيبة عرعر، وما زلت أعتقد إلى الآن أنه كان خلف تلك السرقات التي تقع أسبوعياً في فندقه، فهو لا يكترث لتلك الجرائم، ولم يتخذ أي إجراء ليحافظ على أموال زبائنه أو سمعة فندقه. وبغض النظر عن أنني لا أسكن في الفندق لكنني حنقت عليه بسبب سرقة هؤلاء المرضى المساكين، وقررت الانتقام منه بطريقتي الخاصة، وبالرغم من أنني مسالم مع الآخرين وأسامح دوماً كل من يسيء لي، ولكن لم أحتمل أن يسرق ذلك الجشع المرضى المساكين. فأخبرت مرزوق، مرافق عابد، بما نويت فعله لشيبة عرعر جزاءً وفاقاً لما اقترفت يداه، وفعلاً انتظرت إلى أن أتى وقت تمرين فريق كرة القدم فاختارني شيبة عرعر أن أكون معه في الفريق نفسه لسوء الحظ ولكني طلبت أن أكون في الفريق المضاد، فوافق على مضض. وسرعان ما حانت الفرصة التي انتظرتها طويلاً عندما أتت هجمة علينا وكنت ألعب في الدفاع وكان شيبة عرعر يجري بكل سرعته خلف الكرة كمهاجم ويريد أن يرفع الكرة نحو مرمانا فعدوت باتجاهه بكل سرعتي، وبدلاً من أن أنقض على الكرة ركزت بدقة على مفصل قدمه وأنا أتذكر الرجل المسكين «مالك الحزين»، الذي سرقت كل أمواله، فاصطكت رجل شيبة عرعر المندفعة بباطن حذائي المدعم بأصابع صغيرة مدببة، حتى سُمع من قوة الالتحام صوت فرقعة صادرة عن ثنايا مفصله. فصرخ شيبة عرعر، بأعلى صوته صرخة اهتزت لها أشجار «الهايدبارك» وتحدث بها الركاب في باصات «هاي ستريت كنجنستون»، ثم تلوى في الملعب من شدة الألم، وأخيراً حاول النهوض واللحاق بي لينتقم مني، لكنه عندما ارتكز واقفاً هوى مرة أخرى نحو الأرض لأن قدمه انطبقت كانطباق الذراع نحو الساعد بسبب تهشم مفصله، فقلت في نفسي «ذق» يا شيبة عرعر إنك أنت العزيز الكريم يا سارق المرضى والمساكين.

وأصبح شيبة عرعر بعدها يمشي بجبيرة لمدة تزيد عن شهرين، توقفت معها سرقات المرضى طوال وجود الجبيرة في رجله. ولم أعد لزيارة المرضى في الفندق إلاّ بعد أن هدأ غضب شيبة عرعر، وتقبل الأمر

Twitter: @ketab_n

بأنه مسألة خطأ وليس عن قصد، فعاتبني عندما رآني بعد ذلك بشدة لكنني لم أكترث له، وقلت له: «يا عمي مفصل رجلك هو إلي ضرب باطن رجلي، وباطن رجلي ما ضرب مفصل رجلك، تقدر تعيدها خمس مرات.»

Twitter: @ketab_n

ملكة جمال العرب في لندن

صادفني شيبة عرعر، بعد مدة من شفاء إصابة قدمه في بهو فندق «كلوستر ترس»، وقال باستعلاء: «راحت عليك يا نديم، لو لم تكسر مفصلي لجعلتك اليوم عضواً في لجنة تحكيم ملكة جمال العرب في لندن التي أعكف على تنظيمها خلال الشهر القادم، لكنني ألغيت اسمك تماماً عن ذلك عقاباً لك، ألا تعلم أنك كنت ستعيش أجمل أيام حياتك في تلك اللجنة يا مسكين، فقد كان من الممكن أن تكون لك صلاحيات كبيرة وكل يخطب ودك من المتسابقات الجميلات». ولما استفسرت منه عن ماهية تلك المسابقة الغريبة التي ينوي تنظيمها، شرحها لي بالتفصيل الممل، فقلت: «تباً لك، والله لا أتشرف يا شيبة عرعر، أن أكون معك في لجنة الفسق والمجون أيها الأخرق.» لكن لو تعلمون يا قومي من هن ملكات جمال العرب التي قدمهن الأفاك شيبة عرعر، في لندن والتي عاصرت أحداثها لاحقاً عندما نظمها صيف العام ١٩٨٥، وغطتها الصحافة العربية في المهجر للأسف ومن ضمنها صحيفتنا الخضراء التي تغط الآن في سبات عميق. فائتنان من المتسابقات كانتا تعملان في غسل الصحون في مطعم إيراني في Earls Court، وأخرى تعمل في ملهى «الكيت كات». وملهى «الكيت كات»، كان مقره في نهاية شارع «الكوينـز واي»، واندثر الآن، وقد ارتدت ذلك الملهى أيام الصبا والطيش. والذي أثار فضولي الشديد في تلك الأيام وجعلني أخوض تلك التجربة، أنه كان يقف دوماً أمام بابه حارس مصري يلبس طربوشاً أحمر ونظارة طبية دائرية عتيقة سمكها ٧ ملم ووجه قديم كأنه ولد عام الفيل، في البداية فكرته غسالة طايحة من الدور

Twitter: @ketab_n

الثاني. عندما رآني الحارس المنتف وعرف أنني عربي قال لي: «أرب أرب» (اقترب، اقترب)، فاقتربت فقط لأنني حسبت صوته هو صوت جنزير الغسالة اشتغل على غفلة، ولكنني اكتشفت بعد جهد جهيد بأنه إنسان، فأنصت ملياً له وفهمت ماذا يريد فنزلت درج الملهى المظلم وجلست إلى منضدة في المقدمة وكأني في مغارة علي بابا المضاءة بكل ألوان الطيف وتصدح في جنباتها أغنية «السح الدح أمبوه». ثم أحضر لي الجرسون عصير أناناس وفي أعلى الكأس مظلة صغيرة كزينة وقطعة أناناس على الأطراف، وحسب الجرسون أني طفل تاه من أهله في لندن فتدحرج من أعلى الدرج فسقط على طاولة (البيست)، وقال: والله، كما أذكر الآن، «طبعاً الشمسية دي تشيلها قبل ما تشرب العصير»...يا حلاوة شايفني أهبل ذا الجرسون... فقلت له: «ليه أنت فاكرني لسا جاي من الترعة يا محترم؟» وكانت تجلس إلى المنضدة المقابلة لي فتاة جميلة تضع رجلاً على رجل مثل طريقة الممثلة ناهد جبر، في مسرحية «شاهد ما شافش حاجة»، وتبدو صغيرة ونضرة وعندما تعرفت عليها أخبرتني بأن اسمها «رمال»... لن أكمل هنا، وهذه الفتاة هي إحدى المتسابقات اللائي شاركن في مسابقة «ملكة جمال العرب في لندن». ومتسابقة أخرى كان وجهها مليئاً بحب الشباب وعندما تغضب يصبح لونها أحمر والحبوب بيضاء بشعة مقززة، وخليط غريب وعجيب من المغلوبات على أمرهن، وكل واحدة منهن تحمل في طيات قلبها مأساة حزينة تقطع أنياط القلوب بالرغم من فجورهن الظاهر. لكن شيبة عرعر الفهلواني حبك المسرحية بحرفية عالية ووصولية تامة، وكان للتصوير من زوايا معينة وملابس المتسابقات ولمسات الكوافير الفضل في إخراج المسرحية وتغطيتها إعلامياً على أنها مسابقة رصينة لاختيار ملكة جمال العرب في لندن والتي أقامها في الفندق المجاور لوكره، «لانكستر جيت هوتيل». وفي اليوم المشهود ارتدى شيبة عرعر ملابس راقية وسرّح شعره العكش لدى المزيّن النسائي فظهر بشكل يستحق معه منافسة المتسابقات على اللقب. وعندما أعلنت النتيجة فازت بلقب ملكة جمال العرب في لندن «رمال»، التي كانت بائعة للهوى في ملهى «الكيت كات»،

Twitter: @ketab_n

وكانت جائزتها فيديو وثلاثمائة باوند فقط ورحلة إلى «ألتون تاورز» قيمتها ٦٠ جنيهاً، وحصل شيبة عرعر في المقابل على دعم مالي كبير من تلك الصحف العربية أضافها إلى ما سرقه من أموال المرضى.

وصدق الأمير خالد الفيصل عندما قال في قصيدته الجميلة: «ليه تتعجب!!! ترى ما على الدنيا عجب... هي حكمة الرحمن خلاها تدور»، فقد دارت الأيام والسنوات وبعد أكثر من ٢٢ سنة، تحجبت ملكة جمال العرب، بائعة الهوى «رمال»، ولله الحمد، وتابت وحسنت توبتها، وهي تعمل الآن في مدرسة عربية، أحتفظ باسم المدرسة والمدينة، وقد ازداد وزنها كثيراً وودعها الجمال إلى الأبد وأصبحت أماً لثلاثة أبناء. وآخر مرة شاهدتها فيها كان في العام ٢٠٠٦، عندما كانت تتريض في إحدى الحدائق بعد أن أوصلت أبناءها للمدرسة الإنجليزية، وكم كنت سعيداً وأنا أراها وهي تتبدل من حال إلى حال وتحرق خلفها المراحل السوداء من حياتها. والجميل أنها تتعامل معي باستمرار وهي تجهل أنني أعلم أسرار ماضيها، وأننا قد جلسنا إلى طاولة واحدة في «الكيت كات»، وبيننا «عيش وملح ومزة»، فهي لا تذكرني لأنني لم أكن بحياتها سوى «عابر سبيل»، ولم أكن يوماً «عابر سرير».

Twitter: @ketab_n

زحمة يا دنيا

في آخر شارع «الكوينـز واي»، تقع الشقة رقم ٤١ رالف كورت التي كنت أقطن فيها، وهي مكونة من مدخل صغير طوله نحو مترين بعرض مترين وعلى اليمين تقع دورة مياه، وعلى اليسار يوجد مطبخ صغير وفي الأمام غرفتي نوم، وعلى اليسار كذلك بجوار المطبخ توجد صالة استقبال منيفة بها مدخنة عتيقة ونافذة عريضة تطل على شارع «الكوينـز واي»، الجميل الذي لا ينام أبداً. ويعتبر موقعها رائعاً للغاية، فهي في منطقة «الوستمنستر»، والتي تسمى المنطقة رقم ٢ من وسط لندن. في تلك الأيام، كنت أحب ولم أزل حتى الآن، أن أقضي جل أوقاتي ليلاً ونهاراً بصحبة الأصدقاء لأنني أقدس تلك اللحظات التي لا تقدر بثمن، ولا يعتقد أي صديق عرفته يوماً ولو لفترة بسيطة بأنني قد نسيته، حتى لو أبدت له الأيام ذلك، فلكل إنسان مكانة في قلبي مهما طال الزمن وتعاقبت السنوات. وفي لندن سبب لي ذلك الطبع بعض الإحراجات من وقت لآخر نظراً لصغر مساحة الشقة. فقد كنت أدعو أي شخص أراه وأتعرف عليه لزيارتي في الشقة، وأقدم له دوماً واجب الضيافة، وهي عادة اكتسبتها من أخوالي البدو. ففي إحدى عطل نهاية الأسبوع اجتمع في الشقة ثلاثة أشخاص من الرياض أسماؤهم سعد وفهد وناصر، يدرسون في مدينة «بورتسمث» جنوب لندن، وقد تعرفت عليهم في فندق اسمه «بارك لودج». كذلك وصل في الوقت نفسه صديق اسمه عادل النصر شاب متأنق يرتدي ملابس عصرية وبريهة إيطالية جميلة ومظلة فخمة يتكئ عليها وهو يتمخطر بزهو في شوارع لندن الرئيسية ويهش بها على من يقترب منه وكأنه

Twitter: @ketab_n

«لورد» إنجليزي عريق، بالرغم من أنه يعمل في أرامكو في منطقة نائية اسمها السفانية. وقد سعدت جداً بمعرفته والتنزه برفقته في لندن، فقد تجولنا كثيراً في حدائقها وحاناتها وشوارعها الخلفية وبخاصة منطقة المقاهي الراقية والمسارح في «كوفنت جاردن» التي تناسب أسلوب حياته المتأنق. وأذكر أن لغته الإنجليزية جداً قوية، أقوى مني بمراحل في تلك الفترة، لكن ما أذكره كذلك بأنه قد غضب مني وبقوة في أحد الأيام، لأننا كنا نلهو مع بعض الأحباب في «كلوب إمباير» الذي مازال ليومنا هذا يتوسط ساحة «لستر سكوير». ومن الحماس والميانة» «باللبناني بتمون على صاحبك» سحبت بريهته الإيطالية وقذفت بها نحو السقف فظهرت صلعته اللامعة التي كان يخفيها بعناية فائقة عنا تحت الأضواء العاكسة، فسرعان ما جلس القرفصاء في محاولة يائسة للاختباء تحت أرجل المتراقصين مغطياً صلعته بكلتا يديه وكأنه قد تعرى. ثم قرر الانتقام مني، ففررت منه للدور الثاني وبدأت مطاردة «توم آند جيري» وسط الظلام فكنت أتحاشاه بسهولة وسط حشد من الإنجليز الذين شاركوني اللعبة فقد كنا نرى بوضوح انعكاس الأضواء على صلعته اللامعة وهو قادم نحونا.

ووصل أيضاً إلى شقة الحرية محمد الماجد وهو شاب دمث الأخلاق من الرياض، أذكر أنه عندما رأى الزحمة في الشقة، اقترح إبقاء المفتاح الوحيد الخاص بباب الشقة معه لئلاّ يضطر للانتظار عند عتبة العمارة عندما يكون الجميع في الخارج، «العب غيرها يا حمودي والله لو أنك جاكو يا عمي». كما حشر معنا في الشقة الدكتور عادل الكيلاني من سوريا، وكان يدرس تخصصاً طبياً دقيقاً في «أدنبرة»، ونعرفه عن طريق أخوه الذي كان يدرس المرحلة الثانوية في الدمام والذي سبق وحصل على مرتبة الطالب الأول على مستوى المملكة في العام ١٩٨٠ ولكنه زُحزح للمركز الخامس حتى يكون السعودي دوماً في المقدمة ولو بالتزوير والضحك على الذقون. الدكتور عادل الكيلاني عندما كان يريد مراجعة سفارة بلاده السورية في لندن يقوم بتفتيش شنطته فيسلمني المصحف الشريف ويقول لو رأته السفارة لدي لا تهمونني بالانتماء إلى الإخوان

Twitter: @ketab_n

المسلمين وداعمي الإرهاب، وقد ينهون بعثتي الدراسية بسبب وجود المصحف. وما أذكره عن هذا الرجل الطيب هو نصائحه المهذبة لي طوال فترة معرفته في لندن، فقد كنت في تلك الفترة الولد الشقي الغرّ الذي يهوى المشاكسة والتسكع واللعب والسهر وكثرة الحركة، فكان يُلاحظ ذلك فيسديني نصائح أبوية وهو خجل مني وكأنه هو المذنب. في إحدى المرات عندما كان يزورني ذهبت إلى المطبخ لتحضير العشاء، وكان يوجد على المنضدة الشريط السلبي (النيجاتيف)، لصور التقطتها أنا وجاكو على شاطئ جزيرة «آيل أوف وايت»، الإنجليزية التي تقع على بحر المانش بين بريطانيا وفرنسا، فتفحصها جيداً تحت الضوء، فلم ترق له. فبدأ بسلسلة من النصائح الهادئة حتى أنني نسيت العشاء في الفرن إلى أن أحترق، فقدمته له محروقاً وقلت له: «هذا ما جنيته على نفسك الليلة يا دكتور عادل عشاء محروقاً.» ولا أذكر للأسف بأني عملت بأي من نصائحه يوماً ما، ولكن بقيت له مكانة عظيمة في قلبي وأتمنى أن أزوره في سوريا وأرى كيف أصبحت أحواله بعد كل تلك السنين.

وكذلك وصل من السعودية في الوقت نفسه ابن خميس، وهو رجل في الخمسينات من العمر أسمر البشرة ويعمل ميكانيكياً في قسم صيانة السيارات في أرامكو وكان يشكو من العقم وأتى إلى لندن طلباً للعلاج بتأشيرة سياحة. ويتميز بطيبته وجزالة أحاديثه وقصصه الطويلة الشيّقة التي تمتد لساعات وساعات مندون أن نمل من الإصغاء إليها وكأنه حكواتي سوري يروي الحكايات في ليالي رمضان في سوق الحميدية العتيق. ومن شغفنا بقصصه كنا نتحلق حوله كطلاب كتاتيب لسماعها مفضليها على السهر أو مشاهدة الأفلام في السينما أو التسكع في شوارع لندن. وقد تاه ابن خميس أيما تيه في لندن بين الأطباء العرب النصابين الذين طلبوا منه إجراء عشرات التحاليل وصور الأشعة والفحوص من دون فائدة ترجى. كما أنه طوال مدة مكوثه في لندن كان يلبس ثوباً خربزي اللون من الجرسيه ذي لمعة خفيفة، ينام فيه ويقوم من دون أن يتجعلك، فلم يحتج لكيّه أبداً. أول يوم وصل فيه إلينا قطع لي لحمة من فوق صحن الأرز أثناء العشاء

Twitter: @ketab_n

وقذفها باتجاهي وقال: «منقولة»، أي تفضل، فأخذتها وازدرتها فشعرت أنني قد أكلت لحمة مغموسة في بنزين، ويبدو أن يديه لا تزالان مخضبتين بالبنزين من آثار عمله في صيانة السيارات، وبسبب تلك اللحمة المليئة بالمادة المشتعلة ابتعدت عن أي مصدر شرر لأيام. ابن خميس كان دوماً يصحو مبكراً فيذهب من فوره، وقبل أن تقوم الشلة، إلى البقال الهندي المجاور فيعود حاملاً فوق رأسه، كأهل مكة، كرتوناً به أنواع شتى من الخبز والجبن والخيار والطماطم والمخلل وعلب الفول المدمس والبيض والبسترما والزيتون، ليبدأ هوايته بالتفنن بإعداد فطور ملكي. عندما أيقظني وهو عائد من البقالة اتجهت معه نحو المطبخ لمساعدته في إعداد وجبة الفطور، فتفاجئنا أن سليمان الزنجي ينام على بلاط المطبخ، بينما خالد اليماني كان قد أغلق غطاء الموقد ووضع فوقه بطانية ومد جسمه عليه وشخيره يصل لساعة «بيغ بن»، فقمت بمعاونة ابن خميس بسحب خالد وقذفت به إلى الصالة في مكاني وسليمان في مكان ابن خميس.

لسوء الحظ لم يستفد، ابن خميس، من العلاج في لندن شيئاً فكانت زيارته سياحية كتأشيرته، بل إنه أصيب بعرج دائم في ركبته قبل العودة من كثرة مشاوير لندن الكعابية وبسبب وزنه الزائد، والقشة التي قصمت ظهر البعير هي أني اصطحبته يوماً سيراً على الأقدام من «الكوينز واي»، مروراً بـ«الماي فير» ثم منطقة «البيكاديلي» ولم أراعِ سنه أو وزنه، وكانت غايتنا شراء فاكهة من سوق الخضار الشعبي في «البيكاديلي»، بيد أن فيوز ركبته اليسرى ضربت بسبب هذا المشوار الطويل الذي أمتد أكثر من ٤ ساعات ذهاباً وإياباً. فعاد للسعودية بعدها متأبطاً عكازاً يتهادى به ذات اليمين وذات الشمال، وأجزم بأن مشكلة العقم لديه قد تعقدت أكثر فأكثر، فالركبة لها دور حسب معلوماتي من الناحية الفيزيائية.

لم يستمر حال الزحام طويلاً فبعد أسبوعين بدأ الجميع بالرحيل فأخذت عهداً على نفسي إلاّ أعزم من هب ودب، فالشقة أصبحت كحراج ابن قاسم، وطال الإزعاج حتى الجيران الذين بدأوا بالتذمر من الأصوات العالية والجلبة التي نحدثها في تلك الفترة، لكن سرعان ما خلت الشقة إلاّ

Twitter: @ketab_n

من الثلاثة الذين خلف واوهم سعد وفهد وناصر، وكان قد مر على معرفتي بهم نحو ١٥ يوماً. لكنني اكتشفت للأسف بعد أن هدأت الأجواء وأصبحنا لوحدنا في الشقة، وحين عودتي من زيارة أخي يوماً من الأيام منظراً أزعجني جداً، فقد قام الشباب باستقبال بعض الغانيات المغربيات داخل الشقة وتفاجأت عندما رأيتهن وهن منهمكات بتقطيع البصل وفرم الثوم والبقدونس والطماطم وتقطيع اللحم استعداداً لعمل وجبة الكسكسي في المطبخ بكل أريحية. بل إن إحداهن كانت قد أحضرت معها ملابسها لكيّها في شقتي ريثما يجهز الطعام وهي تثرثر مع الشباب في لباس غير محتشم وضحكاتها الماجنة لا تبشر بخير، وأبو الشباب، سعد، كان غائباً عن الوعي تماماً بسبب النبيذ الذي يشربه وعجاج دخانه يملأ جنبات الشقة وخديجة تتمايل أمامه على أنغام أغنية طلال المداح «مر بي مر بي... مايس الأعطاف قده لولبي»، لم أستسغ ذلك المنظر المخزي فمهما كان فللبيت حرمته، ولو أن تلك الفتيات لسن بغانيات فلا بأس من وجودهن، بل على الرحب والسعة. لكنهن كن في الأساس مجموعة فتيات يصل عددهن نحو ٧ ويسكن في الطابق الخامس في العمارة نفسها، واعتدت رؤيتهن باستمرار أثناء خروجي ودخولي إلى العمارة ولم أعرهن يوماً أي اهتمام، بل إنني كنت أزدريهن بنظراتي. ففي النهار كنت أشاهدهن في حالة يرثى لها وهن يلطخن رؤوسهن بالحناء ويربطنها بمنديل رخيص منتف، ويصبغن حواجبهن بطريقة غريبة ويضعن حولها شريطاً لاصقاً لتثبيت الصبغة على ما يبدو، فيظهرن كغجر أوروبا خصوصاً عندما يحملن الغسيل أثناء النهار ويذهبن نحو مغسلة تقع خلف العمارة تعمل بتعبئة النقود. لكن عندما يأتي الليل يتبدلن مائة وثمانين درجة، فيرتدين أبهى الفساتين الفاضحة والعارية، ويتبرجن بماكياج صارخ، وكثيراً ما سببن لي الحساسية عندما أركب المصعد من قوة عطرهن النفاذ، وللأسف الشديد كانت أسماؤهن خديجة... فاطمة... طاهرة.

أعربت لسعد عن استيائي من وجود تلك النسوة، وأنه لم يستأذنني بإدخال النبيذ إلى الشقة، فنظر إلي بعيون حمراء مثقلة وهو في قمة الباي

Twitter: @ketab_n

باي، وقال: «كم حسابك يا نديم!!!» صدمني المنسم برده الماصل، وقلت له: «أنت ضيف عندي يا سعد ولم أطلب منك مقابلاً نظير إقامتك معي، لكنني لا أوافق أن تأتي بغانيات وتقلب الشقة إلى ماخور مهما يكن الأمر.» ودخلت غرفتي لتغيير ملابسي غاضباً آسفاً من هذه المصيبة السوداء. وعندما خرجت وجدت الشباب قد استعدوا للخروج بعد أن حزموا حقائبهم احتجاجاً على توبيخي لسعد، فودعتهم وطلبت منهم السماح عن أي تقصير، وطلبت من الغانيات أن يحملن الكسكسي معهن إلى شقتهن وأغريتهن بالاستعجال بتقديم علبة شطة مجانية لهن، كح كح كح... هذه كحة بسبب ما بقي من الدخان الذي كان يملأ الشقة. وعندما أخبرت لاحقاً صديقي المصري سامح محمد، الذي يعمل في فندق «بارك لودج»، بما حصل، وكيف أنني لمت نفسي على طريقة إنهاء العلاقة مع الشباب قال لي: «سيبك منهم يا نديم أنت عملت الصح، دول عيال صيع... طلعوا من الشقة عشان كان آخر يوم ليهم في لندن وكانوا حاجزين على القطار في نفس اليوم لبورتسمث.»

Twitter: @ketab_n

"الكوينـزواي" شارع الحب

سأحدثكم اليوم عن الشارع الذي عشت فيه أجمل الذكريات وقد ورد اسمه كثيراً في الحلقات السابقة، فاسم الشارع كما عرفتم شارع «الكوينـز واي»، وهو من أجمل الشوارع اللندنية ويقع في الجهة الغربية من وسط المدينة وجل سكانه من العرب والبرازيليين والأمريكان المهاجرين إلى لندن. ويشتهر بأشياء عديدة يشد لها الرحال من جميع أنحاء لندن مثل الحمام التركي الواقع في نهايته، تحت العمارة مباشرة، كما يوجد بها سوق «الوايتليز» المشهور للسياح العرب وقد كان مهجوراً ومغلقاً تلك الأيام وافتتح لاحقاً في بداية التسعينات الميلادية. وتوجد في الشارع محطتا «أندرجراوند» رئيسيتان هما «الكوينـزوايستيشن» وكذلك «بيزووتر ستيشن» ومقهى الفكر العربي، وصالة التزلج على الجليد، كما يوجد الكثير من المطاعم العربية والصينية والهندية والمقاهي الراقية والحانات وكنيسة «أور ليدي». وقد سمي الشارع بـ«كوينـز واي»، أي «طريق الملكة»، لأن الملكة فيكتوريا ولدت في طرفه الجنوبي في٢٤ مايو ١٨١٩، وتحديداً في قصر «كنجنستون بارك» المقابل للشارع والذي أخبرتكم سابقاً بأن الأميرة ديانا اتخذته بيتاً لها، فكان بيتاً أوهن من بيت العنكبوت، وألعن... كبوت هو أبو عين زايغة تشارلز زوجها عليه من الله ما يستحق، فقد فرّط بهذه الإنسانة الرقيقة، أيقونة الصفاء والحب، واستبدلها بعجوز شمطاء لا تسر الناظرين.

في هذا الشارع تعرفت على أصناف شتى من البشر في العديد من المناسبات، وكان لي في مقهى الفكر العربي مناكفات ومنافحات، لكن

Twitter: @ketab_n

يبقى الشجي منها هو ذكريات اللقاء السريع الذي غالباً ما يعقبه الفراق، وأقساها على الفؤاد الذي لا يكون بعده وصال. وقد مرت عليّ تجربة اللقاء السريع ثم الفراق السرمدي أكثر من مرة في هذا الشارع الونيس، لكن أكثر ما بقي راسخاً في داخلي، كلما زرت لندن ومررت في «الكوينز واي»، هو لقائي السريع ثم فراقي بملاك، الفتاة الجميلة النحيلة القادمة من الطائف. فقد أعتدت في الذهاب والإياب أن أعرج على محل ورود صغير لأحضر كل بضعة أيام باقة ورود أزيّن بها غرفة أخي في المشفى، وكنت أبتاع تلك الورود من محل صغير ملاصق تماماً لمدخل محطة «البيزووتر» واسمه ورود اللحظات الأخيرة، لصاحبه أندرو، إلى أن أتى يوم وكانت غايتي شراء باقة ورود كالعادة، قبل أن أتسمر حينها في مكاني عند مدخل المحل وأنا أشاهد لأول مرة بائعة الورود الجميلة بدلاً من أندرو الجلف وهي تنسق بعض الأزهار البيضاء في مزهرية أنيقة...نظرت إليها مشدوهاً من جمالها الذي يأسر الألباب، كأن برق السماء أضاء وجهها، فقد كان مياساً قدها... وشعرها أسود منسدلاً حتى جنبها... وعيناها بحر عميق من وقع فيه لا محالة غريق... فلما سلهمت بسكينة وأمان، خلت رمشيها جناحي يمامة تهم بالطيران... فسميت عليها في قلبي سبع مرات... ورجعت القهقري خجلاً ومتظاهراً بأني كنت أنوي دخول المحطة لا محل الورود، بيد أنها عاجلتني بتحية عربية وبلهجة حجازية ناعمة لا أكاد من نعومتها أسمعها «أهلين»... رددت: «أهلين وسهلين...» يا... يا... فأجابت بابتسامة رقيقة: «إسمي ملاك»...» أهلاً بك يا ملاك... أنا... أنا... إسمي... إسمي... نسيت اسمي والله... آه تذكرت اسمي نديم... أعطني هذا البوكيه من فضلك...» أخذته وسرعان ما انصرفت لا ألوي على شيء. هذا هو اللقاء الأول مع ملاك، ولكن لأن نديم الرومانسي دوماً كان قلبه مفتوحاً على مصراعيه في تلك الأيام وأن الحب داء قد أصابه، فقد أقترب كثيراً من ملاك وبسرعة تحسب له، ومن دون الخوض في تلك التفاصيل، ذهبت برفقتها بعد أن توطدت العلاقة بيننا برحلة نحو منطقة البحيرات بالقرب من اسكتلندا في شمال بريطانيا والتي تسمى Lake District. وهي

Twitter: @ketab_n

منطقة تتميز بجمالها الساحر وطبيعتها الخلابة وتصب فيها الأنهر من بين الجبال لتكون ثلاث بحيرات رائعة الجمال وتحيطها التلال والهضاب التي يكسوها بساط أخضر فاقع اللون يسر الناظرين، وتشبه كثيراً «خشم العان» في السعودية، والبعض الآخر يشبهها بـ«الخرخير» والله أعلم. من الذكريات الجميلة التي لا تغيب عن مخيلتي في تلك الرحلة، أننا استأجرنا قارباً صغيراً وبدأت أجذف فيه نحو شلال هادر يتوسط بحيرة «وندرمير». وكانت أثنائها ملاك تحتسي القهوة باسترخاء وهي جالسة أمامي والضباب الكثيف يلفها متسللاً من خلفها ومختلطاً بالرذاذ الذي يتطاير من الشلال ليداعب وجنتيها القانيتين كحبات الكرز، فلم أكد أتبينها جيداً من كثافة الضباب، فبدت لي فعلاً كملاك قادم من خلف الغيوم، خصوصاً وأنا أنظر نحو شعرها وهو منسدل خارج القارب وتلامس أطرافه الحريرية سطح الماء لتعزف خصلاته أعذب ألحان مائية تتهادى مع هدي القارب البطيء. وعندما مررنا ببعض الصيادين في منتصف البحيرة، سمعتهم يتناجون فيما بينهم ويقولون: «حاشا الله، إن هي إلاّ حورية وليست بشراً.» بيد أن سعادتي كانت يتيمة في هذه الرحلة الجميلة، ولم تكتمل فصول الفرحة فيها، فقد أخبرتني ملاك بعد أن عدنا إلى الشاطئ وأثناء تناولنا وجبة الغداء، أن ما بقي لها من إقامتها في لندن هو أسبوعان فقط، فمكوثها وعملها فيها، كان بسبب إجازتها القصيرة من دراستها للطب في أيرلندا. فحزنت أيما حزن مما قالته وأخبرتها أنه كان من الأفضل لو أنها أجلت هذا الخبر حتى نعود من الرحلة لكي لا تفسد جو السعادة الذي يغمرنا، وأشحت عنها بوجهي الحزين وترنمت من دون أن أشعر بأبيات المرحوم الأمير سعود بن بندر «تولعت بك والله كتب لي على فرقاك... حسبي على حظي الرديء كانه أشقاني.» فتبسمت بنشوة لما قالت وتساءلت: «أهذه الأبيات لك يا نديم؟» فأجبت: «لا، ولكن إن رجعنا إلى لندن فأعدك بأني سأكتب أبياتاً خاصة لك دون سواك.»

في اليوم التالي في لندن خطيت لها القصيدة والله بأقل من نصف ساعة، ولكنني لم أنهها حتى يومنا هذا وبقيت القصيدة مبتورة وليس لدي

Twitter: @ketab_n

نية لإكمالها أبداً، لأنني أحس أنها طالما بقيت معلقة فسأبقى دوماً معلقاً بتلك الذكرى الجميلة. والذي قطع حبل أفكاري وأنا أنسج أبياتها، هو أنه عندما كنت منسجماً في بحرها، دق باب الشقة فجأة ومن غير ميعاد وعندما فتحته، ظهرت لي ملاك من طرف الباب تقف على استحياء، وكانت تضع يومها إسكارف كريب أسود مليئاً بنقاط فضية حول شعرها، فبدا الإسكارف الأسود كسماء سوداء مظلمة والنقاط الفضية كنجوم متلألئة فوقه، بينما تجلى وجهها المشرب بحمرة وهو مضيء كالقمر في تمامه. فتبسمت لها وقلت: «مرحباً ملاك ما الذي جاء بك؟» ردت بوجل: «لا أعلم ماذا أقول لك يا نديم، أنا مسافرة غداً في الصباح الباكر، لن أنتظر لمدة أسبوعين كما أخبرتك سابقاً، يجب أن أعود لظروف خارجة عن إرادتي وجئت لأودعك وأشكرك على اللحظات الجميلة التي قضيناها معاً والتي لن أنساها ما حييت أبداً.» صدمت من هذه المفاجأة غير المنتظرة وأسقط بيدي، فماذا عساي أقول لها الآن وهي لا تعلم مدى ميلي نحوها، بيد أني تظاهرت برباطة الجأش وودعتها بحزن وألم شديدين يعتصران فؤادي، وبذلت جهداً كبيراً لكي لا أبدي لها ذلك، فقد كانا حزناً وألماً ممزوجين بامتنان لها لأنها عجلت بالرحيل، فقد خشيت والله أن أكون ضحية عشقها لو أنها أطالت البقاء في لندن. فأنا في أعماقي أتمنى أني لم أرها يوماً، لأنني كنت متأكداً بأن حبها سيكون داء لا ترياق له. وهذه هي أبيات القصيدة التي لم تكتمل إلى هذا اليوم.

Twitter: @ketab_n

أرجوك عجل بالرحيل

يـــا نـــاعم الـــصوت ويـــا كحـــيل العـــين

يـــا بـــو رمـــش فـــتان والقـــد النحـــيل

يـا نـسمة الطفـولة وذكـريات كلـها حـنين

يـــا ورد الطايـــف وخزامـــى وادي بعـــد ســـيل

لـيه ذكـرتني بأيـام مـضت مـن عمـري وسنين

وهيـــضت شـــجوني وعلقـــتني فـــيك بالحـــيل

يـــا عابـــر ســـبيل زايـــر لـــندن يـــومين

باكـــر تـــسافر وتتـــركني مكـــسور وعلـــيل

ألا يـا شـيب عـيني بعدك وآه ياقلبي المسكين

مكـتوب علـيه الفـرقا والـسهر لـيل ورا لـيل

يا أغلى من الغلا طالبك ترأف بالمتيم المسكين

إنك تعجل بالهجر اليوم ولاّ باكر وتعزم بالرحيل

Twitter: @ketab_n

غزوة زينون

مليكة المغربية فتاة ذات قوام رشيق وجذاب، تبدو أحياناً جميلة لدرجة الغواية وأحياناً أخرى بشعة وعيناها مريبتان وذلك بحسب تقلب مزاجها والوقت الذي تُرى فيه، وغالباً ما تكون بشعة بعد العودة من السهر. كانت تسكن في عمارة «كوينـز كورت»، التي تقع فوق مركز التزلج على الثلج قبل محطة «الكوينـز واي»، وهي العمارة نفسها التي يقطن فيها «محمد رضا»، الموظف المدعي في السفارة السعودية في لندن. مليكة لم أعرف طبيعة عملها قط، لأنها كانت تنام طوال النهار وتخرج من بعد الظهيرة حتى الفجر تتسكع في حوانيت لندن ومواخيرها، وكانت تستغل جمالها النسبي في غواية العرب العاربة الذين يتصادف مرورهم في الشارع. وأكثر ما تصطاد ضحاياها من محل ذهب في أسفل العمارة، بين بنك «باركليز» والمطعم العربي، تحول الآن إلى بنك «إتش إس بي سي». المحل ليس مثل محال الذهب التي نعرفها في السعودية ولكنه أقرب في التشبيه إليها، فكل ما يحتويه هو بعض الخواتم والفصوص والسلاسل الدقيقة والبناجر ذات الدقات الهندية. تعرفت على مليكة أول مرة وأنا أتناول طعام الغداء في المطعم الصيني «كياسو» المواجه للعمارة نفسها التي تقطن فيها والملاصق للكنيسة الوحيدة في «الكوينـز واي». وفي هذا المطعم تعرفت على المطبخ الصيني وأحببته كثيراً وداومت على ارتياد المطاعم الصينية في كل بلد أسافر إليه حتى هذه اللحظة، وبصراحة كان طلبي في مطعم «كياسو» الصيني تلك الأيام هو طلب واحد لم يتغير سوى مرة أو مرتين، وهو «صويا شكن آند داك ويذ رايس»، وكأني نقلت معي عدوى «الأرز البخاري مع صدر الدجاج»، وفي النهاية أطلب الشاي

Twitter: @ketab_n

الصيني الأصفر بعد كل وجبة غداء، حتى أصبح النادل يحضر الطلب لي من دون أن يسألني عما أريد.

وفي ذلك اليوم الذي عرفت فيه مليكة وكان وقت الظهيرة حينها والجو شاعرياً جداً في «الكوينـز واي»، دلفت إلى المطعم أنا وقاسم اليماني وحصلت على طلبي المعتاد وطلب قاسم شوربة بالحلبة الصينية، وبدأنا في الأكل والحديث وفجأة ألقت مليكة التحية علينا ولم نكن نعرف أنها عربية في البداية، فتبادلنا الحديث معها حتى عرفنا أنها تسكن في العمارة المقابلة وانتهى الغداء وانتهت معه المقابلة، ولم نعرها اهتماماً يذكر لأنها كانت تسأل أسئلة كثيرة ومعظمها شخصية فودعناها ونسيناها.

في يوم من الأيام وصل إلى لندن رجل سعودي متواضع الملبس، ويظهر أنه قليل التعليم لعلاج زوجته في هارلي ستريت كلنك، وسرعان ما تعرفنا عليه بحكم الغربة وبسبب الظروف المتشابهة التي كنا نمر بها جميعاً. فعرفت أن اسمه معاشي، وهو صاحب مزرعة كبيرة في السعودية وتاجر شعير لا تشق له سنبلة. معاشي كان يستخدم امرأة عربية مقيمة في لندن كمترجمة ومرافقة لزوجته بمئتي جنيه يومياً، نحو ١٢٠٠ ريال، مترجمة أقصى ما تقوله يس، نو وكذلك «ذا وومن إيز هنجري»، أو «الجو بارد في الغرفة». سكن معاشي في البداية في فندق «كامبرلاند» الموجود في بداية أكسفورد ستريت، ولكن بعد ذلك اقترح عليه الأستاذ عابد وأخي أن يسكن في إحدى الشقق في العمارة المواجهة لي بدل الفندق وتسريح المترجمة الفورية لعدم الحاجة لخدماتها وسعودة الوظيفة بأحد منا وبالمجان كذلك، وهذا ما حصل. استأجر لاحقاً معاشي، شقة أمام العمارة التي أقطن فيها فوق شقة «جاكو»، بدور وأشترى فيديو وتلفزيون ومايكروويف واستريو وكأنه فلبيني حصل على أول راتب له في السعودية. وأصبح يتنزه في شارع «الكوينـز واي»، ويرحب كل لحظة وأخرى بالإنجليز بحبور وسعادة باللغة العربية «يا هلا بالإنجليز الطيبين... هلووو... وشلون الـوالـد؟؟؟» ويكركر بعد أن يلقي التحية خصوصاً على البنات الجميلات. كان الإنجليز يبادلونه الابتسامة برغم عدم فهمهم ما

Twitter: @ketab_n

يقول، ولكن طريقته كانت كوميدية وتبعث على الضحك خصوصاً وأن له خشماً مضحكاً يقول هو عن نفسه «لو يعرف الإنجليز الفقع كان سرقوا خشمي... يحسبونه فقعه!!!»

وقد توطدت علاقتي مع معاشي ودقيت معاه الصحبة وكان هو المراهق وأنا الذي أحاول أن أكبح جماحه في كل شارع يحل فيه أو ملهى يكتسحه، فقد كان يتعامل مع جميع الطبقات في لندن كما يتعامل مع زبائنه من مستهلكي الشعير، والحمد لله إنه لم ينتبه لشقة «جاكو» في طلوعه ونزوله من شقته، وإلاّ راحت في خبر كان. ولكن للحقيقة وكما أذكر الآن فقد كون صداقة مع الكثير من الإنجليز وأصبح شخصية محبوبة واكتسب شعبية كبيرة يحسده عليها نواب البرلمان الإنجليزي وسياسيو «الوايتهول» و«دونينغ ستريت»، وما أجمل الإنجليز عندما يرحبون به بسعادة عندما يحل عليهم بملابسه المهلهلة «ويلكم مستر مااا آشي هاو آر يو تودي... إتز سو نايس تو سي يو.»

كما وصل لندن كذلك شاب من البطحاء في الرياض، اسمه غزاي، شاب على قد حاله يعمل «باش كاتب»، على بند الأجور فيما كان يسمى سابقاً «البرق»، وهو جزء من الهاتف السعودي الكحيان «البرق والبريد والهاتف». غزاي كان يسوق سيارته العراوي في أحد شوارع البطحاء في الرياض بسرعة عالية، وظهرت له فجأة أو فجعة، لا فرق، سيارة أمير مشهور لرئاسته أحد أندية الرياض يوماً ما، فصدمت سيارة غزاي صدمة خفيفة في مصد سيارة الأمير الأمامي فحلق ونيت غزاي نحو السماء واستدار كأنه صاروخ سكود مخلفاً وراءه دخاناً كثيفاً من عادم السيارة المخروم، ثم هوت السيارة نحو الأرض، مما استدعى تحرك الأسطول الأمريكي السادس في الخليج العربي وحاملة الطائرات الأمريكية «أيزنهاور»، لاشتباه البنتاغون بوجود تجارب على صناعة صاروخ سرّي عابر للقارات انطلق للتو من البطحاء، من أمام محال أبو عشرة. لكن الحقيقة أن غزاي وسيارته المسكينة تقلبا حتى تكسرت معظم عظام جسمه وتصدعت سيارته المنتفة في الأصل. الأمير كان طيباً جداً وأشفق عليه

Twitter: @ketab_n

فأرسله على حسابه الخاص للعلاج في لندن، خصوصاً عندما حاول إنقاذه فأقترب منه ووجده يبكي مثل الأطفال. عندما كان يقص علينا غزاي حكاية الحادث النكتة الذي وقع له، سألته هل كانت الآلام مبرحة لدرجة جعلتك تبكي مثل الأطفال كما ذكرت؟وهل فكرت في الموت والآخرة عندما طارت العراوي في السماء مثل صاروخ سكود وهل قلت في نفسك إنك في طريقك للنزول لأكثر من مستوى الأرض... أي للقبر لا سمح الله... عندما هوت السيارة مرة أخرى نحو الأرض. رد غزاي وقال: «أول ما رأيت السيارة تتجه للسماء قلت يا ساتر، والله شكل الصدمة هذي بتكلف كثير من المال». يعني ما فكر في الموت أبداً... سبحان الله!!! «طيب والبكاء يا غزاي ليه كنت تبكي؟» رد وقال: «عرفت إن إلي صدمته من نوع السيارة ومن رائحة العود والبخور وبشته الملكي عندما اقترب مني بأنه أمير لا محالة.» فقلت: «أكيد أن الخطأ بيحطه المرور عليّ مية في المية، عشان كذا قعدت أبكي والأمير يحسب إني أبكي من الألم.»... «لا والله سلامات يا غزاي... ورب صدمة خير من ألف ميعاد وإلاّ ما كان عمرك بتشوف لندن في حياتك البائسة.»

بعد أن تعافى غزاي بعض الشيء ذهبنا للعشاء والسهر في «زينون كلوب»، بالقرب من فندق «رتز»، أغلق الآن وأصبح مكانه مطعم إيطالي، وكانت معنا مليكة المغربية والتي توطدت علاقتها مع معاشي، المراهق الخمسيني. «زينون كلوب» أنا من اقترحت عليهم الذهاب إليه، لأني كنت عازماً الذهاب إليه منذ وصولي إلى لندن، ولم تحن الفرصة إلاّ تلك الليلة. وتعود حكاية «غزوة زينون»، لزمان قديم عندما كنت أدرس في الصف الأول متوسط، وقد سمعت مغامرة خالي الذي هبطت عليه الثروة فجأة بسبب عمله في العقار أيام السبعينات مما جعل الفلوس تجري بين يديه، فذهب في رحلة استجمام طويلة بدأها من إيران، أيام كانت إيران مقصد السياح والباحثين عن الجمال الإيراني الفتان، ثم عرج من هنالك إلى الهند ليرى عجائب الدنيا كلها فيها... فمصر... وعندما لم يجد معاملة جيدة في مصر بسبب توقيع السادات معاهدة كامب ديفيد وانشقاق العرب، ذهب

Twitter: @ketab_n

للإسكندرية وقفز وسط أول باخرة متجهة نحو اليونان، ثم قذفت به الباخرة السياحية فوق رصيف دوفر البريطاني. وركب القطار المتجه إلى عاصمة الضباب لندن، فدخلها أيده الله شاهراً شيكاته ومؤزراً بإذن المولى في غرة صفر من العام التاسع والتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية الموافق لشهر أغسطس ١٩٨٠ إفرنجي. وقد كنت أصغي لقصص رحلات خالي حول العالم وأنا أتخيل أني أسير معه أينما حل، في غابات الهند مع الأفيال والنمور ومعابد الهندوس، وأتوه عندما يصف جمال النساء الإيرانيات وكبرياءهن، فأصبحت أبحث عن صورة أي امرأة إيرانية في مجلات النهضة واليقظة أو في الحوادث ومجلة الوطن العربي حتى وقعت يوماً على صورة «فرح ديبا»، إمبراطورة إيران السابقة وزوجة الشاه الأسبق محمد رضا بهلوي، فقصصتها وبروزتها بورق مقوى ولزقة بيضاء وركبتها بجانب مرآة الدراجة الخاصة بي. والمفارقة أنني لم أنس ما ذكره لنا عندما كان يحدثنا خلال سهرة في قصر أبي الصيفي في الطائف عما حدث له من مقالب في لندن بالذات. فقد أخبرنا أنه ذهب مرة لذلك الكلوب الراقي «زينون»، ولم يكن يعرف أي شيء عن أكل الغرب إلاّ «الهمبرجر»، حتى «البيتزا» لم يسمع عنها بعد، فدخل مع مرافق له صعلوك وطلب اثنين «همبرجر» واثنين بيبسي. كان الكلوب راقياً ويقدم أكلات إيطالية وفرنسية، وما زال الإنجليز في تلك الأيام جاعصين على العالم وبقي لديهم بعض من نعرة الإمبراطورية الإنجليزية وازدراء الثقافات الأخرى بما فيها الأمريكية. لذلك صمت النادل برهة، بعد أن سمع طلب خالي الذي من الممكن أن يطلبه في أي كوشك أو «ماكدونالدز» وليس في مطعم ملكي راقٍ يرتاده وجهاء لندن، ثم قال بأعلى صوته للزبائن الآخرين: «انتباه أرجوكم... إن هذا الزبون الصعلوك الذي يقف بين يديكم اليوم، يريد اثنين «همبرجر» واثنين بيبسي»، فضج النادي بالضحك والقهقهة على محدث النعمة المسكين، وعرف خالي بأنه أرتكب خطأ ثقافياً لم يدرك ما هو بالضبط، فهرب ومرافقه من الكلوب وسط تندر اللوردات والبارونات الإنجليز. من بعض صور خالي القديمة التي رأيتها له في لندن استغربت أصلاً كيف

Twitter: @ketab_n

سُمح له بالدخول إلى ذلك الكلوب، فقد كان يلبس كرفتة برتقالية نحيلة من الأعلى وتصل إلى نصف صدره لتنفرج بعرض أكثر من ٣٠ سم ومليئة بالألوان الصفراء والبرتقالية والزهرية، وشعره يقطر دهناً من كريم قديم معروف باسم كريم ليدا «أبو ورده» (علبة بيضاء بلاصق أسود)، وفي يديه دخان أبو بس وله شنب عراقي مفتول. أما الجاكيت فقد كان ضيقاً جداً يحتاج خمسة رجال لزر الزرار، والبنطلون شارلستون ضيق من الأعلى وينفرج عند الساق كأنه مشقوق عند النظر إليه من الجنب. لكنني كنت قد صممت على اقتحام الكلوب اقتحام الفاتحين، قد يكون رد اعتبار لخالي، الله يفشله، والأخذ بثأر العائلة كلها من ذلك النادل النذل. فقد عرفت الكثير من الأكلات الغربية ويمكن أن أطلب بثقة ماهو صحيح من دون خوف من الوقوع في الخطأ، والله يخلي صالة الطعام في أرامكو «الداينغهول»، إلي علمتنا طريقة الأكل بالشوكة والسكينة. لكننا عندما اقتربنا من الكلوب نظر إلينا الحراس نظرة ازدراء من البداية، وكأن المعركة بسبب الكوكتيل الغريب الذي يرونه شاخصاً أمامهم، حسبونا في البداية غجر أوروبا نريد أن نقوم بالرقص والغناء أمام الكلوب لجمع قوت يومنا. فهذا بدوي منتف في ملابس مهلهلة ولا يكف عن الضحك والتهريج بالعربية مع الإنجليز. وغزاي بعكازاته وفنيلة الهلال تحمل رقم ٩ وأنا يعني أمشّي الحال ومليكة لا بأس بها، ولكن شوشتها المنفوشة. في البداية رفض الحراس إدخالنا وتعذروا بعدم لبس غزاي ومعاشي للكرافتة واللبس اللائق، لكن مليكة النصابة ضحكت على الإنجليز وادعت أن معاشي وغزاي فنانان ورسامان سوريالیان لا يشق لهما غبار قادمان من بلاد الشرق، فأفسح الحراس لنا الطريق وفتحوا جميع الأبواب الموصدة وحيونا ورافقونا للداخل حتى أنهم أجلسونا إلى طاولات مميزة. وهذه من الأشياء التي تعجبني بشدة في هذا البلد العريق، فهنالك نظام وهنالك لبس معين لارتياد بعض الأماكن، وبرتوكول لا يمكن التنازل عنه لكائن من كان، ولكن دائماً يُستثنى الفنانون والموهوبون مثل الرسامين والنحاتين والموسيقيين والذين يفكرون دوماً خارج المألوف من تلك الأشياء لأنهم

Twitter: @ketab_n

يعتبرون أن عقولهم هي ثروتهم ولا ينظرون إلى أشكالهم أبداً. ونحن في الشرق نحكم دوماً على الشخص من ثيابه، فكم من مرة رأيت رجلاً يلبس الثياب الجميلة والبشت الملكي وما إن يتحدث حتى تلعن اليوم الذي جمعك معه وجعلك تضيع وقتك في الإصغاء إلى جهله المركّب. أذكر لما دخلنا «زينون كلوب» أن أبدى لي غزاي الذي كان يسمي «كلوب زينون» «كوب زيتون» حرفنة عالية بالتزامه بإتيكيت مائدة الطعام، من أين يبدأ وماذا يطلب وأي كوب على الطاولة هو الخاص به دون غيره، فقد طلبت لي Sirloin Steak، وطلبت له طبق فوتوشيني الإيطالي لعله يرتقي بذوقه في الطعام. وعندما أتى طلبي قبله وهو الإستيك سحب الصحن ناحيته وحاول تقطيعه بالشوكة والسكين، وعندما يئس من ذلك، قام وأنا أتابعه بدهشة بأكله بكلتا يديه، ومن دون أن ينتظر طلبه طبق الفوتوشيني. وعندما أتى طلبه لاحقاً أخبرني أنه كان يعتقد بأن الإستيك كان مجرد مقبلات. فقلت له: «والله الشرهة مهي عليك، الشرهة على الأمير إلي صدمك وجابك هنا، المفروض قضى عليك أو عالجك في مستشفى الشميسي.»

Twitter: @ketab_n

الساحرة ومسيو معاشي

مع مرور الأيام لاحظت أن مسيو معاشي بدأ يتمادى في اللهو واللعب، وكأنها ردة فعل من الحرمان الطويل الذي عاناه خلال «سنوات الشعير»، وزبائنه من تجار الغنم الأجلاف الحفاة، وكيف لا، وقد ودع أحواش الخرفان ورعيانها والزرائب المنتنة على غفلة من الزمن، وهاهو يتمخطر في جنبات حديقة جيمس بارك بجوار قصر الملكة إليزابيث ملكة انجلترا وحول بحيرتها التي تسبح فيها جميع أنواع الطيور من الإوز والبجع والسناجب الوديعة تقفز أمام ناظريه بدلاً من الجرابيع والضبان، ويسمع بإذنيه خرير الجداول الرقراقة والخضرة الدائمة والأشجار المتهادية والحمام يرفرف فوق خشمه الذي كانت تعافه الذباب. والطامة الكبرى التي لم يحلم بها يوماً هي أن يرى بنات الإنجليز الشقراوات تحطن به من كل صوب، بعد أن يئس من جلبة قطعان الأغنام والإبل. بل إن الحال وصل به إلى أن أصبح يزدري وينتقد الشعير وينتقص منه، وهو مصدر رزقه الوحيد والذي جعله يلعب بالأموال كأنها ورق في يديه في أسواق وحانات لندن. وأخذ يقارن بين خرفان الإنجليز التي تأكل من الأعشاب الطبيعية وتشرب من مياه الأنهار، وقال بكل صراحة: «إن ما تأكله الأنعام لدينا ما هو إلاّ خشاش الأرض ونفاياتها، وإن لحم الجرابيع هو أنقى من لحوم الأغنام لدينا!!!» «الآن تقول هذا الكلام يا معاشي؟» لكن لأن المراهقة في الكبر أخطر منها في الصغر فقد وقع معاشي، في شر أعمال مليكة المغربية، ففي يوم من أيام لندن الجميلة كنت سائراً نحو المطعم الصيني للغداء مع قاسم اليماني، ورأيت معاشي في محل الذهب متأبطاً مليكة يبتاع لها بعض الحلى الذهبية

Twitter: @ketab_n

فاغراً فاهه كالأبله ويوزع الابتسامات لأصحاب المحل والزبائن، وكذلك الناس الذين يمرون في الشوارع. حييته وقلت لقاسم أجزم أنه وقع ضحية لها ولن ترحمه مليكة ولن تتركه حتى تسلب منه ما قيمته محصول عام من الشعير. دخلنا المطعم ونحن نرقبهما في الجهة المقابلة ورأيناه يتجه لشقتها في العمارة نفسها وهو يحمل بعضاً من الهدايا وأكياساً مليئة بالمشروبات لزوم السهرة. بعد الغداء قررنا أنا وقاسم أن نذهب إلى شقة مليكة وكأننا لا نعرف أن عندها أحد في الشقة. فتحت لنا مليكة الباب ونظرت إلينا نظرة ازدراء وكأننا شحاتان على الباب وقالت: «فوووتو يا حـــوالـــة.» لم أكن أعرف معنى حـــوالـــة باللهجة المغربية آنذاك واكتشفت بعد عشر سنوات بأن معناها «خـــرفان»، حسبي الله عليك يا مليكة أثر عليك معاشي أبو الشعير فأصبح ضيوفك خرفان، ما علينا، دلفنا إلى الصالة وإذا بمسيو معاشي يرمقنا بنظرة أكثر ازدراء وغيظاً وكأننا أيتام اقتربنا من طاولة لئام. بيد أن فضاوتنا ولقافتنا وحب المغامرة كانت هي الدافع لأن نكون ضيوفاً عليهم ولو بالقوة... وبنخرب بنخرب... وإلي يحصل يحصل.

عملت لنا مليكة شاياً مغربياً لم يشرب منه قاسم شيئاً، وقال: «يا قنيجني»، أنت تثق في هذه المخبولة تحط لك منوِّم ولاّ سم؟» ضحكت عليه وشربت الشاي بعد أن سميت بالله الرحمن الرحيم. لما ذهبت مليكة إلى التواليت ذهبت للمطبخ المقابل للبحث عن سكر، حيث كان الشاي سكّره ناقصاً، وعندما فتحت الدرج تفاجأت بزجاجات معبأ فيها ضفادع وثعابين في مادة مثل الزيت خضراء اللون، وأخرى أشبه بعروق الأشجار الصغيرة والأعشاب الغريبة. اشمأززت من المنظر وأقفلت الدولاب في الوقت نفسه الذي دخلت فيه مليكة المطبخ، وسألتني عما أبحث فأخبرتها عن السكر وأحضرته لي على مضض.

طلبت من قاسم الخروج وودعناهما وأخبرت قاسم ونحن في المصعد عما رأيت في الدولاب، فقال: «ما قلت لك يا قني» هذي الحرمة مشبوهة والله إنها سحرتكم اليوم؟؟؟ الله يعينك يا نديم.» نزلت كلمات قاسم عليّ كالصاعقة وتعكر مزاجي بسرعة وفارقته لأذهب إلى الشقة

Twitter: @ketab_n

لأرتاح بعض الشيء بعد أن شعرت أنني لست على ما يرام بعد أن شربت من شاي مليكة. وفي الطريق نحو الشقة بدأت أقرأ بعض آيات القرآن الكريم الخاصة بالسحر التي أحفظها عن ظهر قلب، وفعلاً، أو قد يكون ذلك كله نفسياً كما أعتقد الآن، أو أنها وضعت في الشاي بعض المخدرات والله أعلم!!!، أحسست وكأني يئست فجأة من الحياة وكل شيء حولي أصبح مخيفاً، ولم أشعر قط بعدم الأمان مثل ذلك اليوم من عمري. حتى نظرات الناس لي أصبحت أشعر أنها تؤنبني وتقول لي أنت مذنب يا نديم، أنت أسأت إليّ كثيراً يا نديم، بالرغم من أنهم أناس أراهم لأول مرة في حياتي. شعور غريب بالذنب والدونية أصابني من دون سبب واضح، حتى أني شعرت بأن عواميد الإنارة تنتظر اقترابي لتهوى على رأسي فتقتلني، فأتحاشى المرور من جنبها وأهرب للرصيف المقابل. حاولت أن أقاوم وأضحك بأعلى صوتي وأقول إنني سعيد، فخرجت مني ضحكة متقطعة لا معنى لها وتحولت نهايتها إلى حشرجة فبكاء وأنين حزين. ذهبت نحو الفراش ونمت وأنا وجل وخائف حتى من سماع صوت العصافير الذي يأتي من خلال نافذة غرفة النوم، وبرغم أني لست متعوداً على النوم في أوقات العصريات، إلاّ أن النوم تمكن مني بسبب ما أحس به من تعب وإرهاق. وبدأت الكوابيس تتلقفني فأرى نفسي وأنا أتوضأ في مكان نجس وكلما حاولت أن أنهي الوضوء وأصل لقدميّ، أبدأ من جديد في المضمضة فأنسى ترتيب الوضوء، وحول قدميّ ثعابين وكلاب في المكان النحس نفسه. ومن عادتي منذ كنت صغيراً عندما يمر عليّ كابوس أثناء المنام، وغالباً ما يكون كابوساً بسيطاً، ليس كمثل كابوس ذلك اليوم، أن أبدأ وأنا نائم بقراءة آية الكرسي فأشعر بالطمأنينة وينجلي عني أي حلم مزعج مهما كان. لكن هذه المرة لم ينجلِ أبداً، فصحوت فزعاً من النوم وأنا أحس كأن جبلاً على جسمي، وشقي الأيمن من الأعلى حتى أخمص قدميَّ متنمل وشبه مشلول، واستعذت بالله وانتظرت حتى أفقت تماماً ونظرت إلى الساعة فعرفت أن صلاة العصر قد فاتت منذ زمن بعيد. فاتجهت متثاقلاً إلى الحمام لأتوضأ وكأني قد نمت مع أصحاب الكهف،

Twitter: @ketab_n

ففتحت صنبور المياه فتدفقت المياه الباردة وتمضمضت وغسلت وجهي وعندما هممت بغسل يديَّ حتى المرفقين، نظرت إلى صورتي في المرآة فلم أجدها أمامي، ووجدت صورتي بعيدة وأنا أجلس في أقصى الحمام، فحاولت أن أستدرك ما أرى فنظرت مرة أخرى لأرى صورة طفلة صغيرة بدلاً مني تنظر إلي بنظرة غريبة. كدت أجنّ من شدة الرعب وهربت من الحمام وأنا أكاد أحس أن شعر رأسي سيطير مني بسبب الخوف والرهبة واتجهت إلى خارج الشقة وعدوت نزولاً نحو الأسفل وقابلني البواب السكير «آلتون»، وسألني ما الخطب؟ هل هو حرامي أم حريق في الشقة؟لم أجبه وخفت منه هو الآخر، وعندما وصلت إلى الشارع استدركت أن الناس ستحسبني مجنوناً إن واصلت العدو من دون هدى، ففكرت بالعدو نحو أقرب صديق لي في «الكوينز واي»، واتجهت لمطعم رمضان الذي يعمل فيه زميلي حمدي المصري. وسرعان ما وصلت إلى المطعم ودخلت حافي القدمين نحو المطبخ الداخلي، وكان وقتها مشغولاً في تقطيع الخضروات، فهاله منظري وتساءل قبل أن أتحدث: «أخوك جرى له حاجة يا نديم؟» قلت: «لا يا حمدي أنا إلي جرى ليه حاجات أنا تعبان يا حمدي، العفاريت تلاحقني، أكاد أن أفقد عقلي.» أجلسني حمدي وأحضر لي كوباً من الماء وسمع الحكاية كلها فلم يستسغها، وقال بكل رجولة وشهامة أعادت لي توازني: «قم معاي.» قلت له: «وين يا حمدي؟» قال: «نروح الشقة.» قلت: «معقولة نروح الشقة؟» رد علي وقال: «إلي تخاف منه ابدأ فيه.» وفعلاً أحسست بقوة داخلية ومقاومة بدأت تدب في أعماقي مهما كانت صغيرة، فقد كنت أحتاج ذرة منها في ذلك الوقت. وأحضر حمدي معه سكيناً، فضحكت رغم الفزع وقلت: «بتقتل عفريت بسكين يا حمدي؟» رد: «لا يا نديم، احتياط بس.» وصلنا إلى الشقة وكان البواب يقف عند بابها يحرسها بعد أن تأكد من عدم وجود سوء فيها، وتجولنا في الشقة وشغلت سورة البقرة بصوت الشيخ علي جابر ولبست ملابسي واتجهت لأخي بعد أن شكرت حمدي واطمأنت نفسي بعض الشيء. وصلت إليه وقرأ كالعادة ما في عينيّ وسألني ما الخطب،

Twitter: @ketab_n

فقصصت عليه القصة بحذافيرها، وكان أخي يوماً من يؤم الناس في أحد المساجد في مدينة العمال برغم صغر سنه ويقرأ على من به ضرر من وقت لآخر، فقرأ عليّ بعض الآيات وبكيت والله بكاء مثل الأطفال وأحسست بألم في جانبي الأيسر من البطن وكلماته التي ما زالت أذكرها «اصبر وابشر بالخير يا نديم... اصبر قليلاً» ثم يعاود القراءة، حتى أنهكتني القراءة ونمت على الكنبة التي بجانبه نوماً عميقاً من دون شيء يُذكر هذه المرة. وعندما استيقظت أحسست براحة كبيرة ولكن النوم ما زال يغالبني، فأشار عليّ بأن أذهب لإحدى غرف المستشفى المجاورة والتي لا يوجد فيها أحد وأغلق على نفسي الغرفة وأقرأ سورة البقرة ثلاث مرات لمدة ثلاث ساعات متواصلة... وبفضل من الله... خرجت من الغرفة وكأني قد شحنت بطاقة إيمانية وثقة بالنفس وسعادة تكفي عشرة رجال، وضحكت من تصرفي الجبان الذي قمت به وأقسمت أني سأنام لوحدي في الشقة برغم اعتراض أخي الشديد، والذي طلب مني أن أنام معه في المستشفى هذه الليلة على أقل تقدير. بعد أن زالت الغمة تذكرت أن معاشي ما زال في ورطة وكان من واجبي أن أمد له يد المساعدة ما استطعت، فقد لحظته في يوم لاحق من شباك شقتي وهو يقوم بإنزال جميع الأجهزة المنزلية التي اشتراها من شقته فنزلت مسرعاً نحوه وألقيت عليه التحية وتفحصت وجهه فعرفت أنه في خبر كان وسألته أين سيذهب بهذه الأجهزة. وأتذكر كلمته إلى الآن ولها نحو ٢٤ سنة «هذي الأجهزة بوديها لحبة القلب مليكة الكيكة»، فعرفت أن مليكة قد تمكنت منه وأنه بدأ يعمل استربتيز لشقته ونقل كل محتوياتها في جنح الليل وأطراف النهار لها، فقررت الذهاب مع حامد المصري وقاسم اليماني لشقة مليكة في وقت لاحق عندما يختلي بها معاشي لنرى ما وصلت إليه الأمور بأعيننا. وصلنا بعد أن تأكدنا من نافذة المطعم الصيني أنه دلف نحو عمارة «كوينـز كورت»، فطرقنا مرة أخرى الباب بعد أن قرأنا كل الآيات والسور التي نحفظها مراراً وتكراراً، ففتحت الشريرة مليكة الباب لنا وعندما رأتنا كشرت عن وجهها وحاولت طردنا ولكننا دخلنا بقوة فهالنا ما رأينا، ويا خسارة ويا حيف على الرجال، فقد كان معاشي، فارس

Twitter: @ketab_n

الشعير المتخلف يربط وسطه ويرقص ويتمايل على أغنية «اتمخطري يا حلوة يا زينة، يا وردة من جوه جنينة»، وهو غائب عن الوعي تماماً، وعندما رآنا لم يستح على وجهه بل دعانا بكل بجاحة لمشاركته الأفراح وهو يقول: «عيشوا ليومكم يا شباب لا تضيعوا عمركم مثلي وأنا ألهث خلف الشعير والبعرة والبعير!!!!» نصحناه وأخبرناه أن مليكة ما هي إلاّ ساحرة شريرة تقوده للتهلكة، لكنه غضب منا وفك الحزام عن وسطه الأغبر، وقال: «أننا مراهقون صيع وأطفال نتدخل فيما لا يعنينا، وأنه غلطان إلي أعطانا وجه من البداية.» فتأكدنا أنه لا فائدة من الحديث معه، فتوجهنا إلى مليكة وأغلظنا الحديث معها «صايرين هيئة على غفلة»، وهددناه بأننا سنعاقبها بأيدينا قبل أن نشتكيها، فردت، «لمن ستشتكوني للبوليس، قولوا للبوليس أني ساحرة، هل تعتقدون أنه سيصدق قصص الشرق الخيالية، ولعلمكم توقف حرق الساحرات في أوروبا منذ القرن السادس عشر... برا... برا!!!» وصرخت علينا بأعلى صوتها بأنها ستسحقنا وتحطمنا تماماً إن لم نخرج، فتحديناها وقلنا لها: «لو كنت رجلاً لأوسعناك ضرباً وكسرنا عظامك، لكن ستعلمين من يضحك أخيراً أيتها الساحرة الشريرة القبيحة.» أخبرت لاحقاً الأستاذ عابد وأخي عن مصيبة «الراقصة الجديدة على الساحة، معاشي»، وما آل إليه حاله من التردي وأنه يحتاج للمساعدة منا بأسرع وقت ممكن خصوصاً أن زوجته المسكينة تعاني من المرض وتحتاج رجلاً حريصاً يرعاها كل الوقت، وآخر ما تحتاجه رجلاً مسحوراً يهز وسطه عند النساء، وكان الرأي الأول أن نخبر السفارة السعودية في لندن، أو أي أحد من أقربائه يمكن أن نصل إليه عن طريق زوجته، ولكن لم ينتظر الأستاذ عابد العتيبي أحداً وسحب معاشي بكل قوة من عند زوجته وأحضره إلى أخي وقال، «اقرأ عليه»، وعندما اعترض معاشي أمسك به الأستاذ عابد بكل قوة وطلب مني أن أساعده، وبدأ أخي يقرأ عليه وكانت حالته يرثى لها لا توصف من سوئها. واستمر أخي في القراءة عليه مدة تزيد عن أسبوعين، هدأ بعدها معاشي وبدأ يستعيد توازنه ويذهب إلى المركز الإسلامي للصلاة في معظم الأوقات. وحلف وأقسم

Twitter: @ketab_n

بعدها بأنه لن يسير في الطريق الموحل الذي وقع فيه مرة أخرى، وعاد عوداً حميداً. وتأكدت من ذلك عندما اشترى ثلاجة ومايكروويف وتلفزيون وفيديو من جديد، وبدأ يثني على الشعير السعودي المجفف ويجزم بأنه أفضل من العشب الإنجليزي الطبيعي، لأنه يضيف نكهة سرية للحم الخرفان النعيمي والنجدية وطز في خرفان الإنجليز.

Twitter: @ketab_n

رجل الحسبة الأول في لندن

«ماركة مسجلة»®

وبعد أن نجحت خطتي مع الشريرة مليكة وتمكنت من إنقاذ تاجر الشعير المتهور معاشي من براثن الساحرة الشمطاء، دخلت مزاجي شغلة «الهيئة» وعرفت أنها مسلية وبسيطة لا تحتاج إلى TechHigh أو أي مؤهلات... فأصبحت «والله وتالله وبالله»... لا... لا... صدق والله ما أكذب عليكم... أصبحت، بل إني أمسيت كذلك آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر في لندن. وركزت في البداية عمليات المداهمة في الفترة الصباحية في شارع «الكوينـز واي»، وخصوصاً عند بار «برنس ألفرد»، المقابل لسوق «الوايت ليز»، الذي كان مغلقاً تلك الأيام وحيث يكثر عنده الاختلاط والخلوة المشبوهة، عافانا الله وإياكم.

أما فترة المساء فركزت أكثر على شارع «الادجورورود»، في طريق عودتي من زيارة أخي اليومية ولوجود الكثير من العرب يتجولون بثيابهم البالية وهم صيد ثمين للغواني. والذي شجعني على ذلك عوامل عدة، دينية في أساسها، plus لقافة وشباب وحب التسلط. وقد كنت محظوظاً «كرجل حسبة تحت التمرين»، عندما تزامنت مبادرتي مع ظهور مرض خطير وفتاك في تلك الحقبة من الزمان الغابر، ألا وهو اكتشاف مرض «الإيدز»، لأول مرة وانتشاره كوباء مع بداية العام ١٩٨٥، حيث أصبح المرض شغل الصحافة البريطانية والعربية الشاغل وحديث الساعة لكل اثنين اجتمعا صدفة أو على ميعاد في لندن.

Twitter: @ketab_n

وللحقيقة والتاريخ فقد كنت محتسباً واقعياً في فرض تلك الشعيرة المهمة فطبقتها على العرب والمسلمين فقط، ولم أكره عليها اليهود ومن هاودهم والنصارى ومن ناصرهم والشيوعيين ومن شايعهم والوثنيين ومن ثنى عليهم والماسونيين ومن مسى عليهم بالخير!!! فقد كنت في جولاتي الميدانية أسير راجلاً بدون «الجمس» في «ادجورورود»، لأني رجل حسبة صديق للبيئة، وعندما أرى غانية تتحدث مع خليجي أبله، أختلي بالخليجي فأنصحه بأن هذه الفتاة مريضة بالإيدز ومن الأفضل له أن يبتعد عنها ليحفظ نفسه من الهلاك وغضب الله عليه كذلك، فيكفهر وجه الأبله ويشكرني من أعماق قلبه ويتوارى سريعاً من المكان. أما الفتاة فإن تلكأت وحاولت الاستفسار عن سبب لقافتي، وتطفيش الزبون فأخبرها بكل ثقة بأني قد خدمتها من حيث لا تدري، فالشخص الذي كان في معيتها قبل قليل، ما هو إلاّ رجل يعاني من انفصام الشخصية وسفاح هارب من حكم صادر غيابياً ضده في بلاده وقد يتحول من شخص وديع إلى وحش كاسر في أي لحظة معها، وقد أخبرته بأنك أنت من الشرطة السرّية البريطانية لكي يدعك وشأنك، وهذا يفسر فراره السريع منك. وكما أذكر الآن، فقد نجحت هذه الفكرة لدرجة لا بأس بها في بدايتها وحميت الفضيلة ما استطعت لذلك سبيلاً في «Zone One»، من لندن. ولكن بعد أقل من أسبوعين فقط وللأسف الشديد انكشف أمري وتأكد الجميع أنني لست عضواً رسمياً في الهيئة ولكنني متعاون غير شرعي معها، ولا أتبع لأي من المراكز الرسمية، ولا حتى هيئة حفر الباطن أو هيئة طبرجل. فطفقت الغانيات تحذرنني من التدخل في شؤونهن وتطفيش الزبائن وإلاّ فإن عقابي سيكون قاسياً جداً. وفي الحقيقة أذكر أنني في محاولة يائسة للمضي قدماً في المشروع النبيل، جربت تغيير الخطة وتحسين نوعية الخدمات التي أقدمها بالمجان لتكون الجودة أشمل، فأدخلت بعض التحسينات عليها، فأضفت إلى نشاطي الحسبوي مهمة أخرى وهي مكافحة التسول. والله ما أكذب عليكم، فكنت أصد جميع من يحاول من الشحاتين العرب أن ينصب على الخليجيين ويطلب منهم أموالاً كمساعدة بحجة ضيق ذات اليد

Twitter: @ketab_n

واتساع الرجل. وكنت ألاحق جل الشحاتين بلا هوادة، وأصبحت حقنة لهم بمعنى الكلمة وأطلع لهم من تحت الأرض قبل أن يخرج الخليجي يده من جيبه فيمد لهم الدراهم، لأنهم شحاتون دجالون ونصابون من الدرجة الأولى، ينصبون على الخليجي الغشيم الذي يسير عادة كالفقمة في شوارع لندن، خليجي الثمانينات التعيس الأبله، الذي هبطت عليه الثروة فجأة فوجد نفسه بين ليلة وضحاها في فندق الدروشستر الوثير يتنعم بالحياة الباذخة. فقد كنت أرى هؤلاء الشحاتين لاحقاً وبعد ساعات دوامهم الرسمية من خلال حياتي اليومية وهم يتسوقون من المحال نفسها التي أتسوق منها ويأكلون من المطاعم الجميلة نفسها التي آكل فيها، لكن الفرق أنهم يأخذون الطلب «سفري»، مستعجلين حسبي الله عليهم حتى لا يطيروا الزبائن. لذلك كنت متأكداً أنهم نصابون فكنت أحذِّر الخليجيين منهم في كل شارع، وعند كل مطعم أو مقهى. ولكن عندما طفح الكيل بغانيات لندن وشحاتيها من العرب المستعربة، اتحدوا جميعاً وكونوا «حلف الفجار» ضدي، فأحاطوا بي ذات يوم بجوار «ملهى الرمال» في «ادجورورود»، والذي كانت ملكيته تعود للفنانة الكويتية المعتزلة «ليلى عبد العزيز»، ومن أشهر أغانيها القديمة الجميلة «وش علامك يالاسمرانيه»، وأغنية «أستحلفك بالله ما تسيبني بحالي» وكانت تعلق صورتها أمام الملهى طول مدة بقائي في لندن وهي ترتدي «الهامة»، وهو الذهب الخليجي الذي يُوضع فوق الرأس ويتدلى مثل خصلات الشعر، الفنانة ليلى اعتزلت الغناء الآن وهي تعيش في جدة مع ابنتها، والكازينو اندثر الآن وتحول إلى كازينو «رنوش»، بجوار مطعم «رنوش» كذلك، الملاصق «للكوافير» النسائي اللبناني حالياً، المهم يا أحبتي تحلق حولي الشحاتون من كل صنف والغانيات من كل لون، فإذا نظرت نحو اليمين، نحو الشحاتين فأشمئز من الوجوه الكالحة القذرة والشعور المنكوشة والملابس الممزقة كأنهم خارجون من تحت أنقاض عمارة هوت على رؤوسهم. لكن إن نظرت ناحية الشمال فأرى أبهى الخصوم بعيون كحيلة وجمال مغربي آسر وفتان وفساتين سهرة براقة وروائح عطرية جذابة، فأسقط بيدي كيف يمكن أن

Twitter: @ketab_n

أتعامل مع نقيضين في وقت واحد، وأي لغة يمكن أن تحاجج وتلاجج هذا الجمع المتنافر. وأدركت أنني في معضلة وورطة لا يمكن حلها وعذرت والله رجال الحسبة عندما يقعون في مواقف لا يحسدون عليها، كما رأيت لاحقاً في الملاهي والمنتزهات عندما يتعارك رجال الحسبة وتدخل النساء والولدان في المناوشات الدائرة ويحمى وطيس الصولة الجهادية. بيد أن إحدى الغانيات انبرت فقالت لي بكل وقاحة: «يا أخي قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق بتتركنا نشوف رزقنا وإلاّ بنتصرف معاك تصرف ثاني.» صمت لبرهة ثم أطلقت ضحكة بلهاء وصفراء لا معنى لها وأكدت لهم بأنني كنت أتسلى فقط بالتخريب عليهم، وتماديت بفعلتي عندما أعجبتني التجربة خصوصاً وأن الجميع كان ينصاع لأوامري بطريقة غريبة، بس خلاص، توبة... والله توبة ما عاد أعودها مرة ثانية. وقررت الانسحاب وتوديع المهنة إلى غير رجعة، واعتذرت من الغانيات بأدب جم والدعاء لهن بالستر وأن يتوب الله عليهن، ثم أدرت بصري نحو الشحاتين وبصقت في وجوهه ملأن الغانيات أشرف منهم ألف مرة. وسرعان ما قدمت استقالتي من فوري إلى نفسي وقبلتها من دون تردد وبناءً على طلبي كما جرت العادة، وتركت اللقافة التي لم أجنِ منها سوى التسلية ومضيعة الوقت. ولكن بقي شيء واحد مهم للغاية، وذلك لحفظ الحقوق الأدبية الخاصة بي، وهو أنه إذا ما قدر الله عز وجل ودخلت جحافل القوات السلفية المؤزرة إلى لندن وافتتحتها وضمتها كولاية تابعة لأمة الإسلام، بمساندة من الطابور الإسلامي الخامس الذي تغلغل وعشش في بريطانيا منذ زمن، ولا أستبعد أن يكون عام الحسم بحدود العام ٢٠٤٠ على أبعد تقدير، أن يُنسب إلي وبكل تواضع أنا محدثكم «نديم الهوى»، بأني أنا أول من أقام شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عقر دار الإمبريالية الغربية لندن. على أن يُسجل اسمي كرائد الحسبة في سجلات «المملكة المتحدة الإسلامية»، وحبذا لو كُرمت بتمثال بسيط لن يُكلف كثيراً خزينة «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فرع نايتس بريدج» الذي سيتغير حتماً إلى فرع «جسر إخوان من طاع الله»، ونظراً لوجود الأساس مبنياً وجاهزاً في ميدان الطرف

Twitter: @ketab_n

الأغر «Trafalgar Square» فيمكن فقط تحطيم تمثال الأدميرال اللورد نيلسون الذي يقع في أعلى السارية في ساحة الحمام أو سحبه بسلسة تربط في طرف صدام «جمس الهيئة الخلفي»، لكي يهوى نحو الأرض ويُستبدل بتمثال لي شخصياً وأنا أتمنطق بالبشت الملكي وأحمل بيدي خيزرانة الميدان المطورة المضادة للبلوتوث بدلاً من سيف نيلسون، وإن كانت الميزانية تسمح، حبذا لو تم تحوير النوافير التي تعمل تحت نعلي الزبيرية إلى نواعير ترش دهن العود والورد الطائفي لإخوتنا السياح عافاهم الله مما هم فيه من غفلة.

Twitter: @ketab_n

ولد خال زوج أم زوجة صدام بالرضاعة

في أحد الأيام كنت أعود أخي بعد أن أعددت له وجبة برياني أصفهاني تعلمتها من حمدي المصري، كان الإنجليز يشمون رائحتها الشهية وأنا في طريقي إليه في قطار «الأندرجراوند»، سالكاً خط «السنترال لاين» ذي اللون الأحمر من محطة «كوينز واي»، إلى محطة «لانكستر جيت»، ثم محطة «ماربل آرش» وأخيراً محطة «أكسفورد ستريت» التي تقع عند مفترق «ريجنت ستريت» و«أكسفورد ستريت»، ومنها أكملت طريقي مشياً نحو «هارلي ستريت كلينك» وهي رحلة جميلة أحببتها لأنها أقرب إلى النزهة وفيها أشاهد يومياً أطيافاً غريبة وجميلة من البشر كل منهم ماضٍ لغايته ويبحر بهدوء في عالمه الخاص. وكان ركاب «الأندرجراوند» الإنجليز البيض في تلك الأيام يشكلون أكثر من ٩٠% من عامة الركاب مع وجود القليل من الإنجليز السود من أصول أفريقية. ولكن الآن عندما أركب «الأندرجراوند» أجد أن نسبة الإنجليز لا تصل حتى إلى خمسين في المائة خصوصاً في منطقة «السنتر»، فقد زاد الآسيويون بشدة والأفريقيون والعرب الصينيون وكل الملل. وعندما دخلت على أخي وجدت عنده شخصاً، غريب الشكل واللباس فقد كان بديناً بالمرة وجاحظ العينين وشنباته مفتولة وفيه حمرة وترهقه سمرة ويرتدي ثياباً عربية لم أعتد رؤيتها من قبل، عرفت لاحقاً أنها عراقية فثوبه رصاصي ذو لمعة ومطرز عند الأكمام وعند الأزرار، وعقاله سميك وشماغه أسود وأبيض ويلبس بشت يسمى «خاجية»، فحييته وتعرفت عليه وعرفني باسمه طلفاح، وأخبرني أخي بأنه قريب لصدام حسين حاكم العراق في ذلك الوقت وأنه في زيارة

Twitter: @ketab_n

لأحد أفراد عائلته الذين يتلقون العلاج في لندن. كان الرجل ثرثاراً مهذاراً ويلهث طوال الوقت من دون أن يحمل أحداً على عاتقه، ويكثر الحديث في السياسة طوال الوقت الذي جالسته فيه. ذكر لنا قصصاً وحكايات طويلة عريضة وأسماء لم أكن أعرفها في حينها، مثل نوري السعيد وعبد الكريم قاسم وشكري القوتلي، ولكن أغرب شيء سمعته منه، لا فض فوه، بأن الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله أصله يهودي من جهة أمه. لذا لم أعره اهتماماً يُذكر خصوصاً أنه أزعجني بصوته الجهوري ووقاحته وهذرته وكأننا في محاضرة سياسية، والي سد نفسي أكثر وجود غمص في كلتا عينيه زاده دمامة على دمامته، وأظنه مرضاً وليس غمصاً عادياً يمكن أن يزول بغسل الوجه. وكان قد وصل لندن في الفترة نفسها التي وصل فيها طلفاح، كهل كويتي للعلاج يرافقه كهل آخر أكهل منه، المريض الكهل اسمه فهيد، والمرافق سعدون، انضما إلينا عند أخي وكانا سعيدين جداً بحديث السعدان طلفاح، وهو يسرد عليهم بطولاته وتحليلاته السياسية لتاريخ كفاح العرب الحديث. فهيد، المريض الكويتي، أخبرنا طبيبه المعالج بأنه يحتاج فترة علاج لمدة ١٥ يوماً فقط ثم يعود إلى الكويت بسلامة الله. سعدون، المرافق كان متقاعداً من الجيش الكويتي وكان يقول لنا كما أذكر: «والله يا جماعة الخير إني دخلت العسكرية في الكويت وخدمت فيها ثلاثين سنة... وتقاعدت ولا أدري وش السالفة ولا عرفت شيء عن العسكرية.»، والله ما ظلمته هذا كلامه بنفسه «الشاويش سعدون». أما طلفاح فقد واصل حديثه حتى بدأ بالحديث عن اليهود، فأخذ يشتمهم، ويؤكد لنا بأن اليهود جبناء رعاديد وأنهم يخشون مواجهة العرب كخشيتهم مواجهة الأسود، فتدخلت بعد أن طفح بي الكيل من جهله المركب وبينت له أن الانتقاص من الآخرين والنفخة الكذابة هي أهم أسباب هزائمنا المنكرة المتكررة، وأننا شعوب فالحة بالكلام وحسب، وقد صدق من قال بأن «العرب ظاهرة صوتية»، واسترسلت مستهزئا: «والله واضح أن كلامك صحيح يا شيخ طلفاح والدليل حرب ٤٨ إلي شردت نصف الفلسطينيين وبعثرتهم بين دول العالم كلاجئين إلى يوم الدين ولا تنسَ يا حبي النكسة

Twitter: @ketab_n

وحرب الأيام الستة وأننا ونحن ٢٢ دولة ما عندنا غير الزعيق والنعيق الفاضي ولم نستطع يوماً تركيع إسرائيل.»فاحمرت عينا طلفاح وكادت تنفتق أزراره القيطان التي تكتم أنفاسه وتشد معدته المنتفخة، وقال بلهجة تحذيرية وبطريقة استعلائية وهو يشير بسبابته نحوي مهدداً ومتوعداً: «ولك غاتي انتبه على روحك ها الساع.» (غاتي كلمة عراقية أصلها تركي ومعناه يا باشا أو يا أمير)، يعني بالعربي «سكر فمك يا نديم أنت ما أنت قدي»، وهذي الجملة هي الشيء الوحيد إلي استفدته من «طلفاح» في ذلك اليوم التعيس، وما زلت أرددها حتى اليوم عند المزاح مع أصدقائي. لذا أشحت وجهي عن طلفاح واستأذنت من أخي لأخرج من الجو الكئيب واتجهت نحو غرفة الممرضات واتصلت بـ«جاكو» وواعدتها في منطقة الليستر سكوير لتناول طعام العشاء، ومن ثم ذهبنا لمشاهدة فيلم كانت دعايته في كل شارع وكل «أندرجراوند» وباص في تلك الأيام واسمه The Woman in Red، أثناء العشاء وقبل مشاهدة الفيلم تحدثت مع «جاكو» عن طلفاح وعن نزقه وعنجهيته فلم تلقِ بالاً لما أقول ولم تشاركني الحماسة في الحش فيه. وبعد أن شاهدنا الفيلم الجميل خرجنا من السينما وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً فبحثنا عن تاكسي لإيصال كل منا إلى شقته، فلم نجد تاكسياً واحداً متوفراً، فكلها مشغولة بالزبائن السهارى، فسرنا من شارع «الهاي ماركت» باتجاه «البيكاديلي سيركس» ومن ثم إلى «بيكاديلي ستريت» ونحن ما زلنا نتمنى أن نجد تاكسياً خاوياً من تكاسي لندن السوداء العتيقة التي حافظت على شكلها لمدة ٧٥ سنة قبل أن تبدأ بالتنازل عن لونها الأسود أولاً، ومن ثم شكلها الخارجي، وأخيراً بتصديرها لمدن عالمية أخرى. وعادة إذا كان النور الذي يوجد فوق التاكسي مضاءً فذلك يعني بأن التاكسي متوفر للخدمة، وإن كان غير مضاء فذلك يعني أن التاكسي محجوز أو خارج الخدمة، وهو ما حصل للأسف طوال الطريق معنا فلم نجد واحداً مضاء نوره تلك الليلة. ومن كثرة ما سرنا على أقدامنا باتجاه السكن في «الكوينـز واي»، مررنا أمام فندق «ريتز» الفخم، وكانت «جاكو» تلبس رداء أبيض اللون كاملاً كقطعة واحدة وبنطلوناً بقميص يظهر

Twitter: @ketab_n

جمالها الفتان، وتجذب أنظار كل المارة حتى شباب الإنجليز، وتذكرني رشاقتها الآن برشاقة الفنانة مريام فارس، غير أن شعرها كان جميلاً وناعماً مسترسلاً يغطي معظم جسدها وكأنها حورية بشعرها الطويل الذي لا يلبث أن يتطاير مع كل نسمة هواء لندنية باردة تداعبه. وعندما اقتربنا من الفندق وصلت سيارتان فخمتان عند الباب الرئيسي ونزل من إحداهما للمفاجأة طلفاح وكان لديه على ما يبدو حراسة. فأخبرت «جاكو» بأن هذا هو طلفاح الذي حدثتها عنه أثناء العشاء، فردت بصوت خافت: «بي دخيلك نديمو... شو مزوق هي "التفاح" رفيقك، شو عامل بحاله!!.» تجاهلت ما قالت خشية أن يسمعنا، وعند اقترابنا منه حييته بابتسامة عريضة ومتفائلة ولكنه بحلق في «جاكو» وسالت سعابيله ولو تعلمون كيف رد لي التحية هذا السخيف طلافيحو، رد والله بأعلى صوته، «حي الله ها الطوايف»، ودخل الفندق بعد أن ستر بطنه ببشته الأشلح. تباً لك يا طلفاح، أهكذا ترد التحية، ثم تابعت سيري وأنا قافلة معي من المشي والتاكسي الذي نبحث عنه من دون جدوى، وزاد الطين بلة الإهانة الموجهة من طلفاح فكدت أعود إليه فأبصق في وجهه المغمص يمكن ينظف شوي. ولكن «جاكو» منعتني وقالت: «ألا ترى "البادي جاردز" الذين حوله، عراقيون والله ليبسطونك في الأرض قبل أن تقدر أن تمس شعرة من رأسه، زعلت بالمرة وأيقنت أن طلفاحاً قد رد لي الصاع صاعين لأني لم أوافقه على أحاديثه السخيفة ظهر ذلك اليوم عند أخي في المستشفى، طز فيك يا طلفاح وفي الليلة المهببة إلي شفتك فيها.» وواصلنا سيرنا بعد ذلك لمدة ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا عند الفجر «للكوينز واي»، وودعت «جاكو» ثم دخلت شقتي فصليت الفجر وسرعان ما غططت في نوم عميق حتى ظهر اليوم التالي.

وصلت لأخي في اليوم التالي وكان يوجد عنده الأستاذ عابد الذي يتعالج هو الآخر من سرطان الدم، لكنني أحسست أنهما ليسا على ما يرام، فاستفسرت من عابد ما الخطب؟ فقال لي: «فهيد يطلبك السماح.»

Twitter: @ketab_n

لم أفهم معنى قوله ولماذا فهيد الكويتي يطلب مني السماح، فلا شيء بيني وبينه سوى الاحترام المتبادل. ولكنني استدركت وقلت: «تقصد طلفاح يطلب مني السماح؟ أكيد خبركم عما حدث البارح وكيف جرحني برده الماصل خلاص سماح بس خليه يحل عني الله يرحم والديه. لكن أخي قال لي: «فهيد هو إلي يطلبك السماح مهو طلفاح... أنت وش فيك!! يعني فهيد توفي إلى رحمة الله ويطلبك السماح، أي أنه في أمس الحاجة الآن من أي إنسان أن يسامحه.» صدمت من هذا الخبر المفجع على بداية اليوم المهبب، فالرجل كان يجلس معنا بالأمس وهو في صحة جيدة، وكان سعيداً وهو يحدثنا عن رحلات القنص التي قام بها في السودان وباكستان، وقد حدد الدكتور فترة علاجه لمدة ١٥ يوماً ثم يعود بعدها إلى الكويت. سبحان الله، الله يرحمك يا فهيد ويغفر لك... ولما سألت أين هو الآن، قال لي: «عابد في غرفته مغطى بالشرشف لأنه مات قبل أقل من ساعة حتى مرافقه "الشاويش سعدون"، لم يأتِ بعد ولا نعلم رقم هاتفه.» فذهبت لغرفته المقابلة لنا ودخلتها وكانت خاوية إلاّ من سريره وجسده مسجى ومغطى بالكامل بالشرشف، واقتربت منه وجلاً، فهذه أول مرة في حياتي أدخل على إنسان ميت وجثة مغطاة لا حياة فيها وأزلت الغطاء بكل فضول وظهر وجهه النحيل وعيناه تحلقان في سقف الغرفة وهو صامت صمتاً سرمدياً، فطفقت أدعو له بالرحمة، وكنت أتمنى من أعماق قلبي أن يفيق وأن الأطباء قد أخطأوا في أنه قد مات. لكن لا شيء يقطع هدوءه التام وبرودة جسمه المتناهية. وفجأة قطع سكون الغرفة صرير الباب الذي فُتح بقوة، فزادت معه دقات قلبي وظهرت حينها الممرضة «مسز جراثالتي ضايقها وجودي مع الجثة وأخبرتني أنه يتوجب علي أن أغادر الغرفة في الحال قبل أن يأتي المختصون لنقله إلى ثلاجة المستشفى. عدت إلى أخي فوجدت طلفاحاً قد وصل؛ فقلت والله كملت القصة الحزينة، أصلاً من يوم شفته وكل شيء متردي. لكن طلفاح أظهر لي شهامة ومواقف رجولية غيّرت من نظرتي إليه إلى الأبد، فقد قام هو ومرافقوه «البادي جاردز بإنهاء جميع الإجراءات المطلوبة من المستشفى، الخاصة بالمرحوم فهيد، وقام

Twitter: @ketab_n

بدفع المصاريف المترتبة لنقل جثته إلى الثلاجة، ودفع فاتورة المستشفى قبل وصول «الشاويش سعدون»، الذي كان يغط في نوم عميق في شقته لإي «إيرلز كورت». ولما وصل «الشاويش سعدون»، صدم صدمة قوية هزته وأثرت على توازنه، كما ظهر لنا، وحزن حزناً شديداً على فهيد لأنه لم يكن يتوقع أن يتوفى مرافقه بهذه السرعة ومن دون أي مقدمات. وبالرغم من أنه لا يعرف أي كلمة إنجليزية وبسبب الصدمة بدأ يتكلم معهم بالعربية ويلعلع بأعلى صوته لمدة طويلة احتجاجاً وحزناً، ويأساً، وقد فهم الإنجليز كل ما قاله بسبب تعابيره الحزينة، وليس بسبب ما قاله بالعربية الفصحى.

عند المساء، وبعد أن هدأت الأمور ودعت طلفاحاً وشكرته على حسن صنيعه وشهامته، بيد أني توقفت قليلاً وسألته عن ليلة البارحة وقلت له: «لقد عدت يا طلفاح باشا متأخراً البارحة فأين قضيت ليلتك؟» فأخبرني أنه قضاها في كازينو «فيكتوريا» وهو محل قمار شهير يلعب فيه العرب بالورق، لعب بالخمسين ألف باوند وبعضهم بأكثر من ذلك. ثم سألني مستفسراً كيف عرفت بأنه كان ساهراً ليلة البارحة، فأخبرته أني رأيته وهو ينزل نحو فندق «ريتز»، وتابعت: «يا شيخ طلفاح أنا سلمت عليك البارحة ورددت عليّ برد غريب زعلت منه بصراحة عندما قلت «حي الله ها الطوايف.» عندها ضحك طلفاح بصوت جهوري وكح عشرين كحة وهو يلف سيجارته العراقية عند باب المستشفى، وقال: «والله ما انتبهت لك يا نديم، خطية أنا كنت أباوع «أطالع الغزال الأسمراني إلي كان ويّاك، حقّك علي...» وعندها عذرت طلفاحاً وأدركت أنني ظلمته واستعجلت بالحكم عليه لأنه لم يكن يقصد إهانتي فقد حسب أنني شخص غريب فتذكرت نكتة «جاكو» عندما رأته البارحة وقلت له: «هل تعلم ماذا سمتك «جاكو»، السيدة التي كانت تسير معي البارحة؟» قال: «ماذا سمتني؟» وفتح فمه مستعداً لخبر حلو، فقلت: «تحسب أن اسمك «تفاح» وليس «طلفاحاً.» فغضب طلفاح وأشار بسبابته نحوي مهدداً ومتوعداً: «ولك غاتي أنتبه على روحك ها الساع.»

Twitter: @ketab_n

وما الحب إلا للحبيب اللندني

مع الأيام اعتدت على شوارع لندن وألفتها فأصبحت شغوفاً بالعودة راجلاً للشقة لكي أمارس الهواية التي أحبها كثيراً، وأمنيتي التي تدور في رأسي منذ مدة أن أسير على قدميَّ من مدينة الخبر حتى أصل راجلاً إلى لندن يوماً. في أحد الأيام وأنا عائد إلى الشقة من الشوارع الخلفية كالعادة مررت بشارع «وقمور ستريت» ثم انحرفت نحو «بورتمان سكوير» وتجاوزت فندق تشرشل حتى وصلت إلى «ادجورورود»، ولم يتواجد الكثير من العرب في لندن خصوصاً أثناء فصل الخريف، وحتى المهاجرون لم يكونوا سوى أقلية قليلة لم تتوالد وتكثر الحرث والنسل بعد، فكان وجود أي عربي يلفت النظر، وإن كانت امرأة عربية فهذه حكاية أخرى يطول شرحها!!! وكنت مزوداً كأي سعودي فاضي ومشفوح برادار متقدم يكشف عن وجود أي فتاة خليجية تحلق في مجاله الجوي ويفرزها عن غيرها حتى لو كانت تسير وسط مبنى الأمم المتحدة. فعندما دخلت شارع «ادجورورود» وقلت يا هادي، لاحظت في الجهة المقابلة على بعد خمسمائة متر تقريباً فتاة كعود الخيزرانة تمشي الهوينا بعباءتها المطرزة نحو محل خضار هندي، فاشتغلت جميع أجهزة الاستشعار عن بعد لدي وتوجهت نحو المحل فتظاهراً أنني أنوي شراء كيلو كوسى. اقتربت منها بحذر وكانت مشغولة بشراء بعض حبات الفراولة، فلاحظتني وعرفت أنني خليجي، فمشت أمامي بدلال وغنج واضحين، مما دعاني لقذف أصابع الكوسى فوق الباذنجان. ثم سلمت عليها وأنا ألهث... فردت تحيتي بخجل وبصوت كامل الأنوثة... بلعت ريقي وقلت: «منورة والله لندن كيفك يا بنت عمي؟

Twitter: @ketab_n

أنا «نديم الهوى» من السعودية، ممكن نتعرف عليك؟» صمتت لبرهة ثم قالت بهدوء: «اسمي شفاء وأنا من دار الحي.» رددت عليها: «تشرفنا... بس غريبة يا بنت عمي جاية في فصل غير الصيف...» ردت: «حنا نجي نتسوق مرة في الخريف ومرة في الربيع وأخيراً نقضي وقتاً أطول في الإجازة الصيفية.» وأخبرتني بأن لديهم شقة في العمارة التي تقع في أعلى محل الخضار واسمها «ووتر جاردن». تمنيت لها السلامة وأعطيتها رقمي وأخبرتها أني مرافق أخي للعلاج، وإذا احتجت أي شيء هذا رقم الشقة، في أي وقت (ترقيم الثمانينات). باي شفاء... باي نديم...

في عصر اليوم التالي كنت سائراً في المكان نفسه في «ادجوررود»، وفجأة سمعت من ينادي «نديم... نديم!!!» نظرت للأعلى ورأيت فتاتين في الدور الثالث، فسألتني إحداهن على استحياء: «أنت نديم إلي البارح؟..» قلت: «نعم أنا نديم. وأنت شفاء، صح؟» قالت: «إيه، تعال اطلع عندنا من خلف العمارة شقة رقم ؟؟؟» صعدت إلى الشقة وعرفتني على أمها «أم خماس»، وأختها «شمة»، ولم يكن معهن رجل (جميع الأسماء مستعارة هنا). كانت عائلة شفاء عائلة طيبة وثرية، بدوية الطابع، ويبدو أن الحضارة فاجأتها على حين غرة فبدت كالغراب الذي قلد الحمامة فضيعت مشيتها ومشية الحمامة، لهجتهم وسحنتهم بدوية، لكن لباسهم خليط بين البدويو الإفرنجي، فعباءة فوق الجينز الضيق أو التنورة القصيرة، والأم تلبس بطولة «برقع»، يسرحون ويمرحون في لندن وفي كل سوق يهيمون.

في اليوم الأول من معرفتهم، ولما علمت أمهم، أم خماس، بأنني مرافق لأخي المريض في «هارلي ستريت كلينك»، عملت أكلة شعبية اسمها «الخبيص»؛ وقالت: «بنسير عند أخوك ونغديه»؛ قلت: «وين يا عمي عند أخوي، تبين تودوني في داهية، أخوي مطوع بنروح له بيتضايق، خليني آخذ الخبيص وأنا أوصله دليفري له، بس تسلم يديك والله.» رحت لخوي واستأنس عليه وقصيت عليه، قلت: «جيرانا طلعوا من دار الحي وطبخوا لنا من غداهم وهذي ذواقتك.»

Twitter: @ketab_n

في يوم لاحق، قلت لشفاء، سوف نذهب إلى الـ«أمباير كلوب»، الذي يقع في ساحة «الليستر سكوير» وكانت «أم خماس»، ترتدي عباءة وبطولة وتنوي مرافقتنا للكلوب، فأخبرتها أن ذلك غير مناسب لها أبداً إذا كانت ترتدي العباءة، فردت: «والله ما أعقها، أنا لي عشرين سنة وأنا أجي لندن وما عمري عقيتها»، عشرين سنة يا أم خماس... سبحان الله... يعني لو نقصناها من عام ٨٤ بنوصل للعام ٦٤، يا الله حسن الخاتمة وبس، وش أسوي معاها هذي، المهم رحنا وجات بالبطولة والعناية كما أرادت. كان كل من كلوب «إمباير» و«سترنغ فلو» و«الهيبدروم»، من الكلوبات الراقية جداً ولا يدخلها كل من هب ودب، فزبائنها تلك الأيام عادة الطبقة العليا، أما الطبقة المتوسطة وما دون فنادراً ما يُسمح لها بارتياد تلك الأماكن كما هو الحاصل الآن. في المدخل كانت النادلات الجميلات يستقبلن الزبائن بملابس «أرنبية»، ونسلم لهن البلوفرات والجاكيتات، ثم ننزل للأسفل نحو الصالة، فاقتربت إحداهن من «أم خماس»، وتوقعت أنها سوف تعطيها هذا اللباس الغريب فكادت أن تحدث معركة بينهن لأن البنت الإنجليزية رأسها وألف سيف ما تنزل «أم خماس» بالعباية والبطولة لأنها اعتبرتها مثل البلوفر ويسري عليها القانون كغيرها. حلينا المشكلة بعد جهد خرافي قبل أن يقفل الملهى بساعتين فقط، ويا فرحة ما تمت، بعد حوالي نصف ساعة أتت أم خماس تصيح وسط أصوات الموسيقى العالية من رجل انجليزي أعجب ببناجرها وخافت أن يسرقها منها ودعتنا للخروج، خرجنا وأركبناها تاكسياً أسود مثل حظنا المهبب وشحناها لشقتها وأكملنا السهرة في كلوب آخر في الطابق العشرين في فندق الهيلتون في البارك لين.

قبل أن أميل ميلة واحدة نحو شفاء، أذكر عندما كنت صغيراً وأنا في الرابع ابتدائي في مدينة الطائف، وكان يأتي في الصيف أيام الملك خالد يرحمه الله، وقبله الملك فيصل الكثير من المصطافين الذين كنا نطلق عليه اسم «الشروق»، لأنهم يأتون من ناحية الشرق. وسكن في البيت الملاصق لنا أحد هؤلاء الشروق، وبالرغم من أن عمري كان نحو عشر سنوات فقط، إلاّ أن قلبي دق على خفيف لبنت رائعة الجمال من بنات الشروق

Twitter: @ketab_n

والتي بدورها أعطتني وجهاً فنادتني في صباح يوم باكر وأنا أنظر إليها من فوق السطوح، فأتيت عند بابهم وأعطتني «فش فاش، وعلك وقارورة ميرندا، وقالت: «لا تنسَ ترجع القارورة»، كانت هديتها عبارة عن عربون حب وصداقة. رجعت إلى بيتنا وأهلي نايمين وفكرت وش أعطيها هدية، فكيت الثلاجة ما فيه إلاّ لحم وبامية وأدوية كحة وتحاميل، طلعت للدور الثاني لقيت أخوي إلي كان يدرس في أمريكا في السبعينات الميلادية جايب عطر حلاقة أولدسبايس Old Spice، قلت يا ولد ما فيه إلاّ هذي الهدية إلي بتخليها تموت في حبي، وفعلاً أعطيتها الهدية بعدما وضعتها في كيس مكتوب عليه: «محال بادغيش للملابس النسائية، فرع الطائف.» وشكرتني وقالت: «ما فيه داعي تكلف نفسك.» وأعطتني فش فاش ثاني لأنها تأكدت بأني مخلص بالحب، ورجعت لها قارورة الميرندا.

بيد أن شفاء كانت حكاية أخرى، ليست كحكايات الطفولة البريئة، فقد كانت شابة غضة نضرة جميلة جمال إيراني رباني، عندما رأيتها أول مرة أحسست بألفة شديدة نحوها، فجمالها من النوع المريح والجذاب بالنسبة إلي، فهي أقصر مني بعض الشيء، وشعرها أسود داكن جميل، وتشبه كثيراً الممثلة اللبنانية الأمريكية «سلمى حايك»، لا تضع أي نوع من أنواع «الميك آب»، سوى كحل بدوي طفيف على عينيها البراقتين وهي لا تحتاج لأكثر من ذلك لكي تبدو جذابة. ابتسامتها رقيقة جداً، تبتسم بهدوء لتظهر أسنان جميلة ناصعة البياض، وتفكر لبرهة قبل أن تجيب على أي سؤال، فيزيد ذلك من سحرها ورقتها. فيها الكثير من الحلم والتؤدة، أما مشيتها فقد غصتبها كل الأنوثة وكنت أغار عليها عندما أرى الإنجليز ينظرون نحوها برقة وهم يرونها تتكسر في مشيتها. في البداية كنت أتحدث معها بكل ثقة وأنظر لعينيها عند الحديث، لكن الغريب في الأمر أنني كلما عرفتها أكثر ازداد خجلي منها. في كل يوم وقبل أن أراها، يكون لدي الكثير من الكلام لأقوله لها، لكنني أنسى نصفه عندما تتجلى أمامي. هي الحب الأول في حياتي، والتي سرعان ما أصبحت لا أفترق عنها وأقضي معها ساعات كثيرة نتسوق أثناء النهار، ونسير أطراف الليل تحت ضوء

Twitter: @ketab_n

القمر، أو نتناول الطعام تحت أضواء الشموع. سرنا بنشوة لوحدنا كثيراً تحت المطر وبين أغصان الأشجار في حديقة «جيمس بارك»، التي تفضلها تماماً مثل الملكة إليزابيث.

ومن دون أن أشعر صرت بغتة أسيراً لأصفاد حبها وطيفها يلاحقني ليل نهار، حتى عندما أذهب للنوم ترافقني في أحلامي، وأصحو على صوتها كالمنبه. بدورها بادلتني شفاء حمى الحب وحكايات الغرام، فاستطاعت أن تمدد إجازتهم عنوة عن أمها من ثلاثة أسابيع لخمسة وخمسين يوماً. وعندما سافرت لدار الحي، وتركتني وحيداً خلفها اكتأبت لأول مرة في حياتي وأحسست بلوعة الفراق، وأصبحت في حلقي غصة حقيقية، وأنكوى من حبها قلبي الرهيف، وتغيرت معالم وجهي فأصبحت أكثر شحوباً وأهيم على وجهي من دون هدى. شعرت من دونها بأن لندن مدينة قد أغلقت أبوابها في وجهي، وأنني أسير، والله، وحيداً برغم زحمة الناس من حولي، أذهب للـ«هايدبارك»، ثم لـ«جيمس بارك» لأبحث عن آثار خطواتها فوق الأرض الطينية التي مشت عليها، وأنظر للأشجار الباسقة التي مرت من دونها أو النهر الذي جلست على ضفته، فأشعر أن النهر من دونها قد تحول إلى نهر رتيب ممل، والأشجار المتهادية الجميلة الخضراء اليانعة أصبحت أعجاز نخل خاوية. لم أعد أحب شيئاً من الدنيا على الإطلاق، عزفت حتى عن تناول الطعام، وعندما يشتد بي الجوع ولكي أبقى على قيد الحياة أشتري شاورما من مطعم «رنوش»، وأحاول تناولها، فتعاف نفسي الطعام حينما أشتم رائحته. وأصبحت أهيم في شوارع لندن وأنا أترنم وحيداً بأغنية عبد الكريم عبد القادر، «غريب... غريب... غريب... أمشي وبقلبي حزن، أمشي وبقلبي ألم»، وكذلك بالأغنية التي كان يغنيها راشد الماجد عندما كنا نتجمع صغاراً في منزل الشعيبي في مدينة العمال، «راح وخلاني وحيد، راح وخلاني حزين، يا حبيبي أهواك وعمري فداك... ودي أسأل والله أسأل على حبيبي إلي راح.» ولما عدت وحيداً ومكسوراً إلى الشقة أمسكت القلم وخططت لها

Twitter: @ketab_n

قصيدة تقطر حزناً وألماً، كعادتي عندما تسيطر علي فكرة وتتمكن مني، وقدمتها لرئيس تحرير صحيفة عربية تصدر من لندن تسمى «العرب»، واسمه الحاج أحمد الهويني، وكان يجلس في العصريات في مقهى الفكر العربي، فأعجب بالقصيدة بقوة، وقال: «سأنشرها ولكن سوف أزيل أي كلمة تشير «لدار الحي »، لأسباب شرحها لي فوافقته رأيه. وفعلاً نشرها في عدد اليوم التالي بعد أن زينها بصورة شمس تغيب عن «جيمس بارك»، تمثل شفاء الغائبة عني، فظهرت القصيدة معبرة جداً فأخذت أكثر من نسخة من الجريدة وأرسلت واحدة بالبريد المستعجل إلى «شفاء»، على عنوانها في «دار الحي»، فلما قرأتها أرسلت لي الجواب رسالة فارغة فيها قبلة حمراء فقط.

كانت هذه أول مرة يدق فيها قلبي ويفتح على مصراعيه لحب حقيقي، وقد يكون حبها أكبر من مساحة قلبي الصغير الذي أنكوى بنار حبها، وأجزم أني لو فتحت قلبي الآن لرأيت أثر كية حبها ما زالت مطبوعة على حناياه بالرغم من مرور سنوات طويلة على فراقها أول مرة.

قابلت شفاء بعدها أكثر من مرة في لندن، مرات عدة أثناء فترة علاج أخي، ومرات أكثر في زيارات مختلفة تواعدنا فيها، حتى أتت إحدى السنوات عندما رأيتها وفي معيتها ابنتها البكر، فابتعدت عنها ونسيتها أو تناسيتها. ثم دارت بنا الأيام وتعاقبت السنون، وبعد أكثر من عشرين سنة كنت أتناول الطعام مع صديق في مطعم الحمراء في «الماي فير»، بجوار السفارة السعودية، وكانت أمامي صبية جميلة تشبه شفاء أيام صباها وفي معيتها أمها ترتدي عباءة وبطولة، فقلت في نفسي سبحان الله كأنهما شفاء وأمها «أم خماس»، أيام الثمانينات، وعندما بدأت الأم بتناول الطعام أزاحت البطولة عن وجهها، فنظرت نحوها ويا للمفاجأة، فقد كانت الأم هي فعلاً شفاء والبنت الصغيرة هي ابنتها إذن!!! فقد كبرت البنت الصغيرة وأصبحت تشبهها في شبابها، لكن الأم شفاء كبرت أسرع من اللازم، وقد زاد وزنها وأصبحت «أم خماس»، نسخة معدلة واكتفت بالابتسام لي وأنا

Twitter: @ketab_n

كذلك وكأننا لم نلتق يوماً. بيد أني عندما رأيتها في ذلك اليوم بعد نحو عشرين سنة من فراقنا الأول لم أستطع تناول الطعام مرة أخرى وعاودتني المشاعر الحزينة نفسها، فقد تذكرت بأسى كيف سافرت أول مرة وتركتني وحيداً خلفها في لندن فكنت أمد يدي للطعام حينها فتمنعني لوعة الفراق وحنيني لها من ذلك.

Twitter: @ketab_n

معركة في سوهو

عندما حلّ صيف العام ١٩٨٥، وقد مرّ على وجودي الآن نحو سنة في لندن، كانت الأجواء منعشة ودافئة ومشجعة على الخروج والاستمتاع برؤية السياح يسيرون كالأمواج في الشوارع قادمين من كل حدب وصوب، أو يتناولون الطعام ويكرعون الجعة خارج الحانات حول طاولات صيفية رصّت بعناية خارج المحال. سرت في غرة أغسطس وبرفقتي «جاكو» من منطقة «الكوينـز واي»، حتى «ماربل آرتش»، ثم استقللنا الأتوبيس الأحمر ذي الطابقين إلى منطقة الـ«ليستر سكوير» والتي يوجد فيها سينما أوديون وكانت غايتنا هي مشاهدة فيلم جيمس بوند واسمه A View to a Kill، أو «نظرة للقتل»، الذي بدأ عرضه للتو. في ذلك اليوم ذهبنا مبكراً عند الظهر أو العصر، لا أعرف تحديداً أي وقت، لأن الظهر يؤذن نحو الساعة الثالثة والعصر عند الساعة السادسة والنصف، وكانت الساعة نحو الرابعة. شاهدنا الفيلم الذي صُورت أكثر مشاهده في باريس وشاركته البطولة الفنانة والمغنية وعارضة الأزياء المتوحشة Grace Jones، استمتعنا بالفيلم ونحن نتناول الفشار والكولا بالثلج ثم خرجنا ومازلنا في وقت الظهيرة، فاقترحت جاكو أن نعرج للتنزه في منطقة «سوهو»، التي تقع في الجهة الشمالية من «الليستر سكوير»، وهي منطقة تعج بالحانات والمقاهي والملاهي والمواخير المتلاصقة، كما توجد فيها المدينة الصينية القذرة كالعادة. لكن الذي يميزها أكثر من غيرها هو سمعة محالها السيّئة الصيت وعصابات المافيا والمخدرات، فكثير من هذه المحال هي أوكار نصب واحتيال وسرقة وبلطجة. سرنا بين المحال الفاجرة وكان «الدلالون»، يشجعوننا

Twitter: @ketab_n

على الدخول إلى محالهم وهم يخبروننا بأن المشاهدة لا تكلف أكثر من ٥٠ بنساً. لم أكن أعلم ماذا في الداخل، ولكن لأن «الولد الشقي نديم»، كان دوماً محباً للمغامرة وذا فضول لا حدود له، سألت «جاكو» إذا كان بالإمكان أن نجرب ونرى بأنفسنا ماذا يمكن أن نجد خلف تلك الكواليس. وافقت بعد تردد وقالت لي: «بس دير بالك مني»، أجبتها بابتسامة مطمئنة: «ولو جاكو... مادمت معي فأنت دوماً في حمايتي.» ودخلنا بسرعة ووضعنا الخمسين بنساً في فتحة مثل فتحة التلفون فتمكن كل منا أن يرى صندوق الدنيا لأول مرة وآخر مرة في حياته، ولمدة دقيقة واحدة. بعد أن انتهى العرض، لم ينظر بعضنا إلى بعضنا وخرجنا إلى الشارع وارتدت «جاكو» نظاراتها الأنيقة «شانيل»، ثم ما لبثت أن خلعتها وهي غاضبة وقذفتها نحو السماء ثم ركلتها بقدمها محتجة على ما وصلت إليه الأمور وتعبيراً عن غضبها مني، بالرغم من أني كنت أجهل مثلها تماماً ماذا في الداخل. اتجهت نحو نظارتها وأردت أن أعيدها لها وأعتذر منها، بيد أنها سبقتني وأوقفت تاكسياً واستقلته وغادرت مبتعدة عني، في الوقت نفسه الذي حملت فيه نظارتها من الأرض واستطعت في آخر لحظة أن أقذف بها داخل التاكسي. تسمرّت في مكاني وأنا ألوم نفسي على الحماقة التي ارتكبتها، ووددت لو أعطتني الفرصة لأشرح لها أنني لم أقصد شيئاً يجرحها. وبينما أنا كذلك، إذ بشخص بدا لي مهذباً جداً يدعوني للدخول إلى داخل المحل وتناول القهوة والكعك الإيطالي الذي لا مثيل له في لندن بعد أن رأى خصامي مع «جاكو». هززت رأسي بالموافقة فأكثر ما أحتاج إليه الآن هو كوب من القهوة يعيد لعقلي التوازن والهدوء. دخلت بسرعة من دون تفكير ولم أقرأ حتى اسم المحل، فبدا المحل من الداخل مطلياً بالكامل بالسواد ولا يضيئه سوى النور القادم من الباب المفتوح، وجلست إلى منضدة مواجهة للباب وطلبت القهوة من النادلة التي بادلتني بابتسامة رقيقة. لكن سرعان ما أغلق الباب وحلّ الظلام، فردت حينها علي بصلف، «لا يوجد لدينا قهوة»، يجب أن تطلب شراباً مسكراً، وحددت لي الأنواع التي يمكنني الاختيار من بينها. عندها أحسست بأني دخلت في مأزق ويجب أن

Twitter: @ketab_n

أتحلى بالحكمة للخروج منه، فنظرت نحو الباب وإذا بالشخص الذي كان يتظاهر بالأدب يقف كأنه حارس على الباب ويبتسم بسخرية. وقفت من مقعدي، وقلت يجب أن أضرب هذا الصعلوك على حين غرة، وعندما أطرحه سأفتح الباب لأخرج للحرية وأنفد بحياتي. كنت واثقاً من أني سوف أتغلب عليه، فبرغم ضعفي الجسدي، إلاّ أنني كنت قبل قدومي إلى لندن، أمارس رياضة التايكواندو في نادي الاتفاق وقد حصلت على الحزام الأسود قبل أن أتوقف عن ممارستها بسبب حصول كسر لي أثناء مباراتنا مع نادي القادسية ومن كسر يدي اسمه «عادل الحواج». أذكر مرة أننا قمنا باستعراض بين مباراة الاتفاق والأهلي التي حضرها نحو ٢٥ ألف متفرج، وكان دوري بين الشوطين أن أقوم بالعدو والقفز من وسط دائرة مشتعلة ناراً ومن خلفها نحو خمسة من لاعبي التايكواندو يحملون عدد خمس من الطوب الرصاصي الذي يرصف به الشارع... فعندما أقفز من وسط النار، أضرب تلك الطوبات الخمس فأحطمها وسط تشجيع وحماسة الجمهور للقوة الخارقة التي أملكها، هيء هيء هيء، بس لحظة من فضلكم، لا تحسبوني أكذب عليكم، فهنالك سر أكشفه لكم لتعرفوا سر الصنعة، فالطوب الذي قمت بتكسيره إلى شظايا، ما هو إلاّ طوب منقوع يا ولدي، في الماء لمدة أربع وعشرين ساعة متواصلة، بل إن المشكلة التي كنا نواجهها هي حمل الطابوق بعناية فائقة حتى لا ينكسر بسبب لمسه باليد المجردة، هذه هي الحكاية وهذا هو السر، فلو أن أذني وليس قدمي هي التي لمست الطابوق لتناثر في وجوه اللاعبين الآخرين. أذكر كذلك أيام ممارسة رياضة التايكواندو أن كان معنا شاب اسمه «تبارك»، مطوع متهور وعقله ملحوس، شجاع ومهووس وحاد الطباع، ومدربنا ياباني يكسر الحديد والطابوق غير المنقوع والأخشاب الغليظة، لكن عندما أختلف المدرب الخارق يوماً مع تبارك المهووس، حسب أن تبارك سيكون لقمة سائغة بين يديه... فصرخ في وجهه بقوة وعندما استدار تبارك عائداً إلينا، أعطاه المدرب «شلوت» محترم، الأمر الذي جعل وجه تبارك يسودّ ويحمرّ ويكفهر ثم يرتد فيحمل المدرب ويقذف به على الأرض ويمرغ أنفه

Twitter: @ketab_n

بالتراب ويضع قدمه على رقبته حتى كاد أن يدق عنقه. وقد أثر هذا المنظر على ثقتنا في المدرب ولم نعد نحترمه بعدها البتة، ولم ينقذه من «تبارك» إلاّ نحن عندما رجوناه وقلنا له: «امسحها بلحيتنا يا تبارك... طالبينك تفك الياباني ترى عنده عيال صغنونين ينتظرونه في البيت.» تبارك واصل نشاطه وهوسه في حياته لاحقاً، وآخر قصة سمعتها عن أنه عندما ذهب لإكمال الدراسة الجامعية في الرياض وبالرغم من أن شكله يوحي بأنه مطوع تقليدي، فقد خطط لسرقة أسئلة الامتحانات من الجامعة التي كان يدرس فيها، وكانت خطته الجهنمية تقضي بالدخول إلى الغرفة التي كان يعتقد أن فيها الأسئلة عن طريق فتحات التكييف المركزي. وفعلاً حشر نفسه وسار في متاهات فتحات التبريد، يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً حتى تاه من كثرة ما دخل من تحويلات إجبارية، فضل الطريق في آخر الأمر ولم يعرف حتى خط العودة، ومما زاد الطين بلة أنه أصيب بالإعياء بسبب البرودة الزائدة فوصل فوق غرفة الفراشين وسقط من الفتحة بالقرب من فناجين القهوة وأباريق الشاي مستغيثاً بهم من البرد وقال لهم: «دثروني سأموت من البرد.» وبعد التحقيق معه طرد من الجامعة شر طرده: وفي الفترة الأخيرة، كنت مع زميل في رحلة وأخبرني بأن تبارك بدأ بتعلم الملاكمة بعد أن بلغ من العمر عتياً.

معليش شطحت بكم بعيداً، المهم نرجع لمدعي الطيبة الذي كان يقف عند الباب، قمت بعمل حركة سريعة وكأني فريد شوقي وقلبت الطاولة وقفزت في الهواء نحوه وأنا أحسبه والله حسيبة بأنه طابوقة منقوعة في الماء وضربته ضربة موجعة في بطنه فترنح للخلف وأكملت خطتي لفتح الباب والهروب، ولكن الباب كان مقفولاً ولا يمكن فتحه، تباً لكم أيها المجرمون. وفي هذه الأثناء سمعت البنت الشريرة تنادي بأعلى صوتها «غوريلا»... «غوريلا»، لدينا زبون يريد أن يقابلك، وفعلاً ظهر لي من خلف أشرطة سوداء معلقة على كوة رجل أسود أفطس جرم عكنف أجزم أنه لو تزوج بغوريلا لطلبت منه الطلاق في الصبحية غير المباركة، تقدم مني الغوريلا وبعد أن شتمني بحرف الإف ثم هوى بيده على رأسي بضربة

Twitter: @ketab_n

رأيت معها شرراً وبرقاً يومضان أمام عينيَّ، فسقطت على الأرض وجسمي كله يهتز من قوة الضربة. وعندما استويت على الأرض رأيت من خلف الأشرطة السوداء المعلقة لوحة «مخرج الطوارئ» وهي ما تُلزم به جميع المحال في لندن ولكنها مخبأة بشكل جيّد خلف الأشرطة ولولا أن سقطت لما رأيتها أبداً، فقررت عمل أي شيء للهروب من باب الطوارئ، فأظهرت لهم بأنني سأنفذ كل ما يريدون لكن يجب أن يتوقف مسلسل الإهانات والضرب، وعندما ادعيت بأني سوف أقف فررت بسرعة البرق من تحت الأشرطة المدلاة وقفزت على باب الطوارئ الذي فُتح بسرعة مقروناً بصوت جهاز الإنذار ومن سرعتي في الهروب اصطدمت بعمود إنارة خلف باب الطوارئ في المكان نفسه الذي ضربني فيه الغوريلا، يعني جات الطوبة في المعطوبة. تحسست نفسي وأنا أبتعد والناس ينظرون إلي بفضول فلم أجد أثراً لدماء فتوقعت أنه أمر بسيط وسيزول خلال أيام برغم الألم والصداع الشديدين اللذين أحسست بهما.

سرت نحو «لستر سكوير»، وفي منتصف الطريق ناداني شخص مصري سائق تاكسي خاص عرفته سابقاً واسمه عبد المنعم، وهو مصري قح تعرف أنه مصري لو رأيته في الأسكيمو، كنا نسميه «شفاط النمل» لأن له بوزاً طويلاً ضارباً أملطاً مثل محمود ياسين، لكن بدلاً من النمل كان دوماً يأكل الفص فص، وبالرغم من أنه متزوج من إنجليزية وعايش في لندن إلاّ أن كل ملابسه من مصنع «غزل المحلة» في مصر كما أخبرنا هو بذلك بفخر شديد أنها من ماركة «صنع في مصر». لكنها كانت صناعة رديئة تلك الأيام وتظهر صاحبها وكأنه متأخر قرناً من الزمان عمّا يلبس الناس من حوله. بادرني عبد المنعم، مالك يا نديم أنت مش على بعضك... تخانقت؟ فرددت بالإيجاب وقصصت له القصة، فأخذني بدون مقابل وأوصلني للشقة وأعطاني نصيحة بأن أضع ثلجاً مكان الإصابة وآخذ مسكناً للألم وغداً حكون زي الحصان. صعدت إلى الشقة واستلقيت على السرير وأحسست بالنصب والآلام الشديدة وثقل شديد في رأسي وعدم القدرة على التركيز وأحسست بالضعف الشديد والوهن، وكأني طفل صغير لا

Twitter: @ketab_n

حول لي ولا قوة، وبالرغم من وجود الهاتف بجانبي وبإمكاني الاتصال بهاتف الطوارئ المتطور في بريطانيا والذي يحضر في معدل خمس دقائق لإسعاف المريض، أو الاتصال بالملحق العسكري أو السفارة التي كانت أرقامها متوفرة لدي إلاّ أنني أحسست بالحاجة في تلك الفترة الحرجة إلى أمي فهي الوحيدة التي كنت أعتقد أنها ستحس بآلامي التي تكاد تقضي علي وينفجر رأسي بسببها، فاختلطت آلامي بحاجتي لحنان أمي، فأمسكت الهاتف وضغطت على الأزرار ٠٠٩٦٦٣٨٢٦، وكانت أمي هي من ردت عليّ في الطرف الآخر من الكون، وعندما سمعت صوتها أجهشت بالبكاء، وقلت لها فقط أنني أحبها، ولم أستطع أن أكمل فقد بدأت أدخل مرحلة بين الغيبوبة والصحوة، وطاف في مخيلتي ولا أعلم لماذا لحد الآن وأنا أتحدث معها «زحليقة قديرة»، وهي صخرة ملساء كبيرة جداً بحجم منزل من ثلاثة أدوار موجودة في الطائف في منطقة كانت برية يوماً ما من ضواحي الطائف واسمها قديرة، كنا نذهب للتنزه عندها عندما كنا أطفالاً مبهدلين حفاة، شبه عراة وكانت تأتي إليها في الصيف الأميرات الصغيرات في السن ومعهن الحبشيات ونحن نبتعد عنهن حتى ينهين لهوهن، بيد أننا كنا مشدوهين من الحمرة التي يضعنها لأنه في تلك الأيام لم تكن حتى النساء الكبار في حارتنا يضعن الحمرة. وبعد أن ذكرت لأمي «عن شوقي للزحليقة» لم أعد أعي شيئاً وأذكر فقط بكاء أمي على الهاتف بعد أن أسقط في يدها ولم تفهم ماذا وراء هذا الاتصال الغريب، ثم قامت للتو بالاتصال بأخي لتطمئن عليه بعد أن التبست عليها الأمور وأخذتها الظنون، فأكد لها أخي أنه بخير، ولكنه لم يرني طوال اليوم على غير العادة، ثم اتصل أخي بدوره بي فوجد الخط مشغولاً، فأخذ بيده مفتاح الشقة الاحتياطي وطلب من الممرضة فصل أجهزة التغذية والأدوية الموصلة به وأخبرها أنه سيذهب لزيارة مريض في غرفة أخرى حتى لا تمنعه من القدوم إلي نظراً لخطورة وضعه. وصل أخي للشقة وعندما نظر إليّ تفاجأ بأني مسجى بلا حراك فوق السرير، ورأسي كان ضعف حجمه الطبيعي بسبب الورم الذي ألم بي نتيجة معركتي الخاسرة مع الغوريلا.

Twitter: @ketab_n

وبخبرة أخي الطبية البسيطة عرف أنه نزيف في الرأس فأتصل من فوره بالإسعاف الذي وصل بسرعة ونقلني نحو مستشفى «كروميل» والمملوك للشيخ المحبوب زايد رحمه الله ويقع في جنوب «الهايدبارك» بشارع «كروميل روود». وصلت للطوارئ وشُخصت حالتي بأنها نزيف بسيط في الرأس من شدة الضربة، وتم إجراء عملية بسيطة في مقدمة رأسي وسُحب الدم المتجمد وتم تنويمي وأنا غائب عن الوعي لمدة ثمانية أيام، كانت كلها أحلاماً بأيام الطفولة والصبا، ولم تخرج عن مدينة الطائف أبداً وعلقت الأحلام كثيراً بـ«زحليقة قديرة» ولا أعلم هل ذلك بسبب أنه آخر شيء قلته قبل أن يُغمى عليّ، كذلك حلمت بقصة طريفة عندما كنت ألهو في الشارع الرملي في حارتنا العتيقة في الطائف وقدمت سيارة مرسيدس من النوع القديم يركبها «خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله» ولم يكن قد أصبح حتى ولياً للعهد آنذاك، نظرت لذلك الشخص المهيب المنكس عقاله على الآخر وبجانبه سائق أسود البشرة وسيارته تتجه ببطء نحوي، فالشارع ضيق ورملي، وعرفت أنه أمير ولكن لم أعرف من هو وصرخت نحوه يا أمـمـير، نظر إلي بابتسامة رائعة، لكن جارنا الشاويش «محمد الأحمري» الذي كان يراقب المنظر ويعمل عسكرياً في الصيانة في الطائف قدم إلي وصفعني كفاً على قفاي، وقال: «تدري لو رجع لك كان قص لسانك على لقافتك.» صدقته والله، فقد كان لدى كبار السن في تلك الأيام خوف وهلع غير مبرر من الأمراء، هذه والله قصة حقيقية تذكرتها كثيراً في غيبوبتي وأنا مسؤول عن صحتها حتى لو استدعيت من قبل الديوان للتحقيق فيها.

بعد ثمانية أيام أفقت من غيبوبتي وأنا أسمع صوت مريض آخر جار لي في الغرفة وهو يخبرني بأن خالي كان هنا قليل لزيارتي وقد غادر قبل قليل، لم أستوعب ما قاله جيداً فأنا لم أزل بين الغيبوبة والحياة، لكن بعد مرور بعض الوقت بدأت أدرك أنني في مستشفى، وأحسست بالألم في رأسي وبدأت باستدراك الكثير من الأمور وتحسست أعضاء جسمي كلها خوفاً من أن يكون قد بُتر أحدها، شعور غريب لأني لم أكن أعرف ما الذي

Twitter: @ketab_n

يجري، هل أصبت بحادث أم انفجار قنبلة أم ماذا؟؟؟ ومن الذي أتى بخالي إلى لندن وفي المستشفى ومتى حدث كل هذا. ولكن المريض الذي عرفت أن اسمه «باري» قد انبرى بالحديث معي عن إصابته وأخبرني بأنه ذهب برحلة استجمام هو وثلاثة من أخوته إلى مدينة برايتون الساحلية وكانوا يلهون في البحر وركبوا ثلاثتهم حماراً لئيماً في ذلك اليوم. فصعدوا تلة مرتفعة وعندما قرروا العودة نحو الشاطئ انتقم الحمار اللئيم منهم ومن حملهم الثقيل بطريقته الخاصة، فجرى بهم بسرعة نحو أسفل التل وما إن بلغت سرعته أقصاها حتى توقف فجأة فسقطوا جميعاً من فوقه ما عدا «باري» الذي تعلق بذيل الحمار، لكن الحمار كان أشطر من باري، فقام برفسه فوق رأسه فسقط مغمى عليه. عندما ذكر باري ذلك تذكرت كل شيء، وقلت له: «حمار؟؟؟ حمار يا باري، أنت خصمك حمار، أنا خصمي «غوريلا» ولا فخر.»

الآن تذكرت كل شيء، وأخذت الهاتف واتصلت بأخي في مستشفى هارلي ستريت كلينك وتفاجأت بأن والدتي هي من ردت علي وبكت من شدة الفرحة، وكان فعلاً معها خالي وأبي وأخي الذي كُشفت خطة هروبه من المستشفى فأصبحت الحراسة مشددة عليه هذه المرة. عندما خرجت من المستشفى لم أخبر أحداً عن سبب إصابتي وادعيت أنني كنت ألعب بالزلاجات في «الهايدبارك» وسقطت على الأرض وهذه هي الحكاية. وقد أكدت على باري بعدم إفشاء السر لأني أضمرت لغوريلا شراً.

Twitter: @ketab_n

جريمة في البيكاديلي

بعد خروجي من المشفى كنت جالساً في مقهى الفكر العربي، وكان من بين الجالسين معي شخص يدعى برقوق أبو شوشة، وهو شاب شيوعي من جبهة البوليساريو، الحركة المسلحة التي كانت تسعى إلى انفصال الصحراء الغربية عن المغرب العربي. كان الحديث عن جمال عبد الناصر رحمه الله، فأدلوت بدلوي القاصر بأنه حاكم ظالم وقتل وعذب الكثير من الإخوان المسلمين، طبقاً لما سمعته من أخي وليس من قراءاتي أو من معلوماتي الخاصة. فانبرى أبو شوشة المهوي منافحاً عن جمال مقدماً كل الحجج والبراهين وكأنه مكينة للكلام، فقلت له: «خلاص صدعتني بكلامك المتواصل، ترى كوني مسوي عملية في رأسي وما أستحمل كثر الكلام.» ضحك مني برقوق أبو شوشة، واستفسر عن سبب العملية وآلام رأسي، فأخبرته بقصة الإصابة التي لحقت بي بسبب الغوريلا الذي يعمل في أحد محال «سوهو»، وأستغرب مني أنني لم أنتقم منه وآخذ حقي لحد الآن، فأخبرته أنني لم أنسه للحظة ولكنني أنتظر أن أصل يوماً لطريقة تمكنني من النيل منه، فرد بابتسامة واثقة بأنه يستطيع مساعدتي في ذلك إن أردت. صمت لبرهة وقلت في نفسي بأن هذا الثوري المجنون أبو شوشة وسن مفروقة هو أنسب شخص يمكنه مساعدتي بخبرته في المقاومة في الصحراء المغاربية وحرب العصابات، فاتفقنا على اللقاء غداً في حانة «الأسد الأحمر "The Red Lion"»، بالقرب من «الوايتهول» عند العاشرة صباحاً.

خلدت إلى النوم في تلك الليلة وأنا أفكر ما الذي سيحبل به الغد من

Twitter: @ketab_n

مفاجآت، وماذا سيقدم لي برقوق أبو شوشة من أفكار للانتقام من عدوّي اللدود غوريلا، وسرعان ما نهضت في الصباح الباكر، وتناولت فطوراً سريعاً في «برجر كينج» وتوجهت إلى حانة الأسد الأحمر في «الوايتهول»، الشارع الذي يوجد به مبنى رئيسة الوزراء البريطانية آنذاك مارغريت تاتشر ١٠ «داونينج ستريت». وعند العاشرة تماماً حضر برقوق أبو شوشة، وبمعيته رجل قروي يرتدي ملابس مهلهلة كأنه درويش إنجليزي لا حياة في وجهه، بل إن أقرب وصف له هو أن ينعت بـ«المتوفى». قدمه لي بأن اسمه «جيري»، وهو من منظمة الجيش الجمهوري الأيرلندي وهي منظمة شبه عسكرية تسعى هي الأخرى لتحرير أيرلندا الشمالية من الحكم البريطاني وإعادة توحيدها مع الجمهورية الأيرلندية. وبعد أن عرف «جيري»، خلفيات المشكلة أخبرني بأن الطريقة المتبعة في أساليب المنظمة هي عمليات التفجير المحدودة، ولكنهم يعطون تحذيراً للعامة ولرجال البوليس لمدة ساعة قبل وقوع الانفجار في كل عملية يقومون بها، ولذلك فمن المستبعد أن يصاب الغوريلا بأدنى ضرر، فأعربت له عن عدم فائدة ذلك، لكنني تساءلت عن أي حلول أخرى وإن كان بالإمكان مثلاً إحراق المحل من جميع الجهات، وبذلك لا يصاب سوى الغوريلا ومن معه في المحل، فرد أن ذلك ممكن جداً وسوف يزودني بالمادة الحارقة في غضون أسبوع. وبعد أن اتفقنا على تفاصيل العملية، غادرت الحانة وبدأت باتباع تعليمات «جيري»، فكنت خلال الأسبوع اللاحق أزور المكان يومياً وأجلس في مطعم يقع في Trocadero ويطل من الأعلى على المحل، فلاحظت بأن غوريلا، يأتي إلى المكان في تمام الساعة الرابعة عصراً ويتناول النبيذ في الخارج لمدة ساعة وهو يتجاذب أطراف الحديث مع الفتيات الساقطات اللائي يعملن معه في الماخور، ثم يدخل فلا يخرج إلاّ إذا ظهرت مشكلة ما مع ضحية جديدة، وكل الزبائن يدخلون من نفس الباب الذي دخلت منه، ثم يغلق الباب مرة أخرى، ولم أرَ أحداً يخرج أو يهرب مثلي من باب الطوارئ.

وقبل اليوم الموعود زارني «جيري» وبرقوق أبو شوشة، في الشقة

Twitter: @ketab_n

وأحضرا معهما حافظة بها نحو أربعة لترات من مادة سريعة الاشتعال، بالإضافة إلى مادة آمونية مسحوقة، وأخذ «جيري»، يشرح لي بالتفاصيل طريقة عملها وما هي الاحتياطات اللازم اتخاذها لإنجاح العملية .وتفادي الوقوع في أدنى خطأ.

وفي الليلة الموعودة للانتقام من غوريلا، التي خططت لأن تكون إحدى ليالي السبت الصاخبة، قمت باتباع خطوات الجريمة جيداً، فارتديت بالطو طويلاً وقبعة ويلزية تخفي معالم وجهي أكثر مما تبديه، وحملت معي المادة التي سأسكبها على المحل والأخرى التي سأرشها فوقها، لكي تتفاعل معها وتشعل النار فيها بعد نحو خمسة عشر دقيقة من رشها. سرت سيراً على الأقدام نحو شارع «هولاند بارك»، وهو شارع معاكس لطريق السير نحو «البيكاديلي»، مسرح الجريمة، واستقللت سيارة تاكسي من تلك المنطقة. وكان ذلك من ضمن الخطة حتى أبعد الشبهة عني لو حصل تحقيق لاحق لا سمح الله، أو عندما يسأل أي سائق التاكسي عما إذا كان قد قام بنقل شخص بمواصفاتي من أمام شقتي واتجه به نحو «البيكاديلي». وصلت عند محطة «لستر سكوير» في حدود العاشرة والنصف مساءً، وتوجهت إلى المحل الذي أنوي إحراقه وأخذت دورة كاملة على البلك الذي يوجد فيه، وعندما تأكدت بأن الأمور على ما يرام ولا يوجد أحد في الخارج يمكن أن يلحظني، صببت المادة السائلة على الباب الرئيسي وعلى الشبابيك وعلى باب الطوارئ كذلك. ابتعدت بعد ذلك عن المكان وتخلصت من القبعة والبالطو وأعطيتهما لأحد المشردين الذي كان يتدفأ بنار مشتعلة في ميدان «سوهو»، ثم عدت إلى المكان نفسه بشكل مغاير عن المرة الأولى ونثرت المادة المسحوقة بسرعة ودقات قلبي تكاد تطغى على جلبة الموسيقى الصادرة من داخل المحل، فهذه أول مرة أقوم بعمل سيؤدي لقتل إنسان وينهي حياته، وبسرعة وببعض رباطة الجأش التي بقيت لدي، اتجهت إلى المطعم الذي يقع في أعلى «تروكاديرو» وقررت أن أنتظر فيه للتمتع بمشاهدة غوريلا يشوى كالدجاجة عكس ما طلب مني «جيري»، العقل المدبر للجريمة. فقد طلب مني حين

Twitter: @ketab_n

الانتهاء من رش المادة التي ستشعل النار بأن أتجه إلى «ملهى الهيبدورم» ولا أخرج منه حتى الصباح، نظراً لوجود كاميرات مراقبة تسجل رواده، وهو دليل بأني بعيد عن مسرح الجريمة. أخذت مكاني بجانب النافذة وطلبت وجبة خفيفة وأنا أنظر للساعة وقد بقيت أربع دقائق وتبدأ الجريمة التي خططت لها مدة طويلة، وفي أثناء انتظاري بلهفة وشوق سقطت فجأة على يدي نقاط حمراء لزجة حارة مصدرها فمي، فقمت بسرعة نحو المرآة في الحمام ولاحظت وجود دم يخرج كينبوع من بين أسناني وقد غطى أطراف فمي وشفاهي، فسرت وفي نفسي نشوة لذيذة وشعور بالسادية لم أعهدهما من قبل، وأدركت حينها كيف يتلذذ السفاحون بقتل ضحاياهم، وكيف تزداد تلك السعادة كلما تألمت الضحية وتعذبت. إذاً، ها هو سرّ السعادة الغامرة في القتل التي أعيش لحظاتها الآن والتي أتمنى أن تستمر معي دوماً. جففت أسناني وفمي بسرعة من آثار الدماء واحتفظت بالمنديل في جيبي واتجهت مسرعاً نحو المنضدة فقد بقي أقل من دقيقة وتشتعل النار الحارقة لتبرد على قلبي الذي امتلأ بالحقد والضغينة على غوريلا. وفعلاً فما هي سوى لحظات، انتشرت بعدها النيران بشكل سريع أكثر مما توقعت وغطت المحل بكامله من جميع النواحي وبخاصة باب الطوارئ وبدأت حينها بتناول الطعام بشهية مفتوحة «ولم أحتج لكاتشب، وأنا أتخيل الجميع وهم يستغيثون والنار تحرق أجسادهم وعظامهم. وسرعان ما تجمهر الناس حول المكان في لحظات ورأيت النادلة الفضولية تتصل بالمطافئ، ولولا خوفي من أن أجلب الشبهة لنفسي لقطعت أسلاك الهاتف عنها أو وجهت لها ضربة على رأسها ليغمى عليها فيتأخر وصول رجال الإطفاء.

لكن فجأة حصل ما لم يكن في الحسبان أبداً وهالني ما رأيت، فمن وسط اللهب المتطاير، بدأ بعض من في داخل المحل بالقفز من نوافذ الدور الثاني والتعلق بعمود الكهرباء الواقع خارج باب الطوارئ والذي سبق أن اصطدمت به، وهم ينزلون الواحد تلو الآخر بمساعدة من تجمهر من الناس، الذين طفقوا بسحبهم بعيداً عن مصدر النيران. ثم ظهر فجأة

Twitter: @ketab_n

خصمي اللدود غوريلا وأنا أرقبه يقفز من الشباك ليحاول أن يمسك بالعمود وينزل بسلام نحو الأرض لينجو بنفسه كالآخرين، ولكنه بسبب ضخامة وزنه وبعض النار التي لحقت به، سقط على الأرض قبل أن يتمكن من التمسك بالعمود، وبدأ يتلوى من شدة الألم وهو مسجى على الإسفلت الصلب. تملكني الغضب الشديد من فشل الخطة التي عكفنا على رسمها بدقة لمدة طويلة، وأصابني كذلك خوف وهلع شديدين من أن يقبض عليّ رجال البوليس أو يتعرف عليَّ أحد. وبدأت تتقاذفني الوساوس ويقتلني الخوف من أن أتفاجأ برجال البوليس يقبضون عليَّ بتهمة القتل المتعمد من الدرجة الأولى. وصرت ألوم نفسي بقسوة، يا الله ماذا فعلت، لماذا تسرعت... وماذا جنيت من محاولة إزهاق أرواح بريئة، وهل مات أحد؟ وكم عدد من ماتوا؟ ولم أعد أحتمل كمية الإحساس بالخوف وعدم الأمان في هذا المكان الذي يكاد أن يصيبني بالاختناق، فقررت الهروب بعيداً نحو الشقة، ومن شدة هلعي ووجلي، طلبت الفاتورة من النادلة وأنا لا أجرؤ على النظر نحوها خشية أن تقرأ القلق والخوف في عيني، فوضعت عشرة جنيهات بجانب الفاتورة وسقط بجانبها المنديل المليء بالدماء من دون أن أنتبه لذلك، وغادرت البيكاديلي على عجل.

Twitter: @ketab_n

مس من الجان

نزلت مسرعاً نحو الدور الأرضي من «التروكاديرو» واتجهت ناحية الشمال وسرت حتى حاذيت شارع «بولند ستريت» من الجهة الشمالية الشرقية لمنطقة «البيكاديلي»، ثم انحرفت نحو الغرب لأدخل إلى «أكسفورد ستريت» الذي يتقاطع مع «ريجنت ستريت» و«بور لاند»، وهو طريق متعرج للغاية وهدفي هو عدم العودة بطريق مباشر إلى الشقة. كنت أسير وقد غشتني رعشة شديدة طوال الطريق برغم اعتدال الجو تلك الليلة، لدرجة أن أسناني أصبحت تصطك بعضها ببعض من شدة رجف جسدي الذي أنهكته الأفكار والشعور بالرهبة مما اقترفته يداي. وعندما وصلت إلى شارع «أكسفورد ستريت»، وقد تجاوزت الساعة منتصف الليل بكثير، بدا الشارع خاوياً ومقفراً كأنه لم يكن مطروقاً البتة في النهار السابق. لم أرَ في الشارع سوى متشرد نائم عند مدخل محال «توب شوب» المقابلة لمحال «دبمنهامز»، في تلك الأيام، فتجاوزته مسرعاً دون أن أعيره أدنى اهتمام، فقد اعتدت رؤية المشردين ينامون عادة في مثل تلك الأماكن. ولكنني سرعان ما أبطأت من خطواتي بعد أن غالبني الشعور الغريب مرة أخرى وعادت لي شهوة القتل من جديد، فشعرت بالدماء تسيل بين أسناني مرة أخرى وتكاد تملأ فمي إن لم أقم بعمل يوقف غريزة القتل القهرية التي تملكتني تلك الليلة. فتساءلت ما عساي مقدم عليه في هذه اللحظات العصيبة التي لم أكد أفلت منها بعد، فرجعت فجأة إلى الخلف واتجهت مباشرة إلى المتشرد الذي كان يغط في نوم عميق محتضناً بين يديه المتشحتين بالسواد والقذارة قارورة خمر من النوع الرديء والرخيص،

Twitter: @ketab_n

فحدثت نفسي لبرهة، بأن هذا المتشرد ما هو إلاّ وغد نتن لا يستحق الحياة التي وهبت له، وهو يعبث بها كيفما شاء في طريق التهلكة. لكنني سوف أريحه منها في ثوان معدودة من دون أن يكلفه الأمر شيئاً، فاقتربت منه بعد أن تأكدت من خلو الشارع تماماً من المارة، وبحركة سريعة ثبت جسمه بقدمي اليمنى ومن دون أن أسمي عليه قمت بتدوير رقبته بعنف شديد ٣٦٠ درجة كاملة وأرجعت رأسه كما كان للأمام مع ثبات جسمه تحت قدمي لأتلذذ بسماع فرقعة عظام رقبته كصوت كرات بلياردو تصطدم ببعضها عند ضربة البداية. ابتعدت مسرعاً بعد أن تأكدت أنه قد نام نومته الأخيرة التي لن يفيق منها أبداً، وبعد أن تجاوزته بأمتار قليلة أحسست أني لم أشفِ غليلي منه بعد، فلم أشعر أنه عانى من أي آلام، ولم أسمع له صرخة أبداً، ولم يحاول حتى مقاومتي، فعدت له مرة أخرى وقمت بركله في بطنه ورأسه ونواحي متفرقة من جسده حتى كليت من ذلك. ثم فررت عنه عندما رأيت ضوء مصابيح الحافلة الليلية رقم ٨٣ القادمة وسط الظلام من ناحية «البيكاديلي» والتي تمر على شارع «البيزووتر» القريب من سكني، فسبقتها ووقفت عند محطتها القادمة التي تبعد نحو عشرين متراً من جثة المتشرد التي تركتها خلفي.

صعدت إلى الحافلة وجلست أمام امرأة تحتضن رضيعها بدفء بين يديها بينما يغالبها النعاس بين هنيهة وأخرى وهي تحاول جاهدة مقاومته، فنظرت إلى يدي وملابسي لأتأكد من عدم وجود آثار للجريمة. ولحسن الحظ، لم يبدُ علي أي أثر غير طبيعي سوى بقعة دم صغيرة من أظافر يدي اليسرى، جففتها بسرعة على كرسي الحافلة ثم وجهت نظرتي نحو الطفل الرضيع الذي يجلس في سكون وسط حضن أمه، ففكرت فيما لو أنني قتلته كما قتلت المتشرد قبل دقائق معدودة، هل ستشعر أمه النائمة بشيء، وهل يمكنني أن أقوم بذلك من دون أن يكتشفني أحد. إنه لأمر جميل ومشوق أن تصحو لندن غداً على ثلاث جرائم غريبة ومتسلسلة من صنع يداي، والمثير أن لا تجد دليلاً واحداً قد يوصل إليّ. ولكنني ترددت لوهلة، فما ذنب هذا الملاك الصغير الذي لم يهنأ بعد بحياته، فغيرت رأيي

Twitter: @ketab_n

وأنا أنظر إلى عينه الزرقاوين الوادعتين وابتسامته التي تظهر أسنان لبنية دقيقة هي غاية في الرقة، لكن شيطاني الذي تملكني بالوسواس أخذ بزمام عقلي وهمس داخل أذني وقال: «اسمع... لما تدع هذا الكافر الصغير يعيش حياة لا طائل منها، هل تدعه ليكبر فيكفر، لما لا تريحه الآن من عذاب الدنيا، وقد تنقذه من عذاب الآخرة... ما رأيك، سوف تحصل على متعة وعمل طيب مبارك، عليك به الآن يا نديم.» أسرتني الفكرة الشيطانية المقنعة، فلم أكن أحتاج لأكثر من ذلك لأقوم بدق عنقه في ثوان، فمددت يدي نحو رقبته بهدوء تام، وعندما أحسست بطراوتها على أناملي وهممت بكسر رقبته الرقيقة، استيقظت أمه فجأة كالمفجوعة ونظرت إليّ بوجل بداية الأمر كأنها استفاقت من كابوس مرعب، فأبديت لها أني ألاطف طفلها الجميل، فابتسمت لي ابتسامة صافية وهي ترى رضيعها سعيداً ليدي التي تدغدغ خديه المخمليين.

نزلت عند محطة بعيدة بسبب هذه المغامرة الفاشلة، فقد وصلت نحو «نوتينج هيل جيت» بعد أن تجاوزت شقتي بمسافة كبيرة، فقفزت خارج الحافلة وقفلت عائداً حتى وصلت إلى الشقة قبيل الفجر بساعات قليلة واتجهت مباشرة نحو السرير وأحكمت إقفال غرفة النوم وتوقعت أنني سأنام نوماً عميقاً بعد ما بذلته من جهد نفسي وبدني أنهكا عقلي وجسدي معاً. لكن النوم جافاني وأنا أتقلب طوال ما بقي من الليل فريسة الأفكار والهواجس التي تمكنت مني وتكاد تخنقني وتطبق على أنفاسي، فيمر أمامي طيف غوريلا، وهو يقفز من فوق المبنى والنار تشتعل في جسده، وكذلك المتشرد الذي قضيت عليه وهو نائم من دون أن أعرف حتى من يكون.

وبينما كنت أتقلب في انتظار النوم الذي يبدو أنه لن يأتي أبداً، سمعت طرقاً خفيفاً وصوت مواء قطط، فظننت الطرق على باب الشقة، لكن من ذا الذي أتى ومعه قطط في منتصف الليل، فقمت وجلاً نحو الباب ونظرت من الفتحة السحرية فلم أجد أحداً. ثم فتحت الباب ونظرت في الخارج من الجهتين وتقدمت نحو المصعد المقابل للشقة، فلم أجد ما يدل

Twitter: @ketab_n

على وجود أثر لإنسان، فتراجعت للخلف وقفلت الباب بخوف وأنفاس متسارعة ووضعت ظهري على الباب واستدرت ونظرت نحو غرفة نومي، وهالني ما رأيت، فقد كانت بطانيتي ومخدتي وبياضات السرير قد قذف بها في الصالة أمام باب الغرفة، فازدادت ضربات قلبي ومعها توتري وأصابني التشويش فلا طاقة لي أبداً بما يحدث لي من أهوال، فهل أصابني مس أم تمكن مني الجان وأصبحت في يوم وليلة سفاحاً ورهينة لشرهم؟.. فتوجهت إلى المطبخ بعد أن شعرت بعطش وجفاف عظيمين في حلقي فسكبت بعض الماء من الصنبور وشربته ولما نظرت إلى ما بقي من الكأس وجدته دماً وليس ماء. أصبت بالرعب التام وأدركت أني هالك لا محالة هذه الليلة، فاتجهت نحو الصالة وأضاءت الأنوار وفتحت الستائر والنوافذ على مصراعيها وبدأت أنتظر طلوع الشمس، فلن أنام في العتمة بعد الآن أبداً، ولن أقوم بأي عمل حتى يظهر نور الصباح.

طال ليلي وأنا أنظر نحو نافذة «جاكو» المظلمة، ونحو القمر الذي يظهر ثم يختفي على استحياء خلف الغيوم، ففكرت في البداية أن أتصل بـ«جاكو» لعلها تسري عني وتؤنس وحشتي، ولكنني ترددت لخوفي أن تعرف شيئاً عما حدث الليلة، أو أنهار وأخبرها بكل شيء، ففضلت أن أصارع الكوابيس وحدي حتى لو قُضي علي، على أن تعرف الوجه الآخر البشع الذي أصاب نديم، فالموت أرحم لي من أن تغير شعورها أو احترامها لي. وبينما أنا مشغول في خضم تلك الأفكار السوداوية، ظهر لي ما كنت أخشاه، عندما لمحت عربة الشرطة قادمة نحو عمارة «رالف كورت»، مقر سكني، وعرفت أن النهاية حتماً قادمة. أسرعت وارتديت ما قدرت عليه من ملابس وأخذت بعض الباوندات الموجودة على منضدة غرفة النوم وفررت من الشقة عبر الدرج، في الوقت نفسه الذي كانت الشرطة تدخل فيه الشقة عن طريق مصعد العمارة، واستطعت الهرب واتجهت بغير هدى إلى محطة «البيزووتر» والتي بدأت تعمل لحسن الحظ مع انبثاق الفجر، فركبت قطار «السيركل لاين»، ذي اللون الأصفر والذي يدور حول وسط لندن. استمررت في الدوران لأكثر من ثلاث مرات، لا

Twitter: @ketab_n

أعرف إلى أين أتجه، وفي النهاية قررت السفر بعيداً عن لندن وتحديداً إلى الشمال الغربي من الجزيرة البريطانية، نحو مدينة مانشستر لأني أحسست بأن ذلك سيعطيني بعض الأمان بعيداً عن مسرح الجريمة، فاتجهت أولاً إلى محطة «كينغزكروس»، وغيرت القطار إلى محطة «يوستن»، التي تنطلق منها القطارات إلى شمال البلاد، واخترت القطار الذي يتجه كل ساعة نحو مانشستر. ارتاحت نفسي قليلاً وأنا أودع لندن، فقد أحسست أن كل متر أقطعه بعيداً عنها يزيد في مساحة الأمان لدي، حتى عندما وصلت إلى مانشستر وكان الوقت عند الضحى نزلت في محطة تسمى «بيكاديلي» كذلك، وهي غير «بكياديلي» لندن وتقع وسط المدينة أيضاً.

ذهبت من فوري إلى فندق «بريتانيا»، المجاور لها وحاولت الحصول على غرفة لأستريح وأنام بعض الشيء، ولكن للأسف لم أستطع ذلك لأنني من العجلة لم أحمل أي بطاقة إثبات. فخرجت وتناولت طعامي في شارع «رشم» «RUSHOLME»، المليء بالمطاعم الشرقية، ومن ثم تسكعت في الشوارع وبين المحال طوال اليوم وأنا أشاهد كل فترة قطاً أسود يلاحقني في كل مكان أكون فيه حتى وافاني الليل وأنا منهك تماماً وقد وصلت إلى حديقة منيفة وعتيقة الأسوار، فدخلتها وتجولت وسطها لأكتشف بأنها مقبرة لمنطقة تسمى «شولتن» «Chorlton Cemetery»، عرفت ذلك عندما رأيت شواهد القبور والصلبان منتشرة في وسطها، ولكن لأنني لم أعد قادراً على السير تماماً ولو لخطوة واحدة إلى الأمام، قررت النوم في أي مكان قصي في المقبرة، فاقتربت من قبر مكتوب على شاهده اسم صاحبه John Rylands، فتوسدت عتبته كمخدة ومددت جسمي العليل على مسطبته وعيناي المرهقة شاخصتان نحو القبور المحيطة بي وسط ظلام وهدوء قاتلين، لا يقطعهما سوى حفيف الأشجار الذي يهب هواه فجأة ثم يعود للسكون. استسلم بدني المنهك لنوم عميق حرمت منه طويلاً وتوقعت أني سأنام ليوم كامل، لكن فجأة ونحو منتصف الليل استيقظت على صوت غريب لم أعهده من قبل، فلا هو صوت إنسان ولا حيوان، يقترب للحظة ثم ما يلبث أن يبتعد، فتحت عيناي وأنصت لأتحقق

Twitter: @ketab_n

من الأمر فلم أرَ شيئاً، لكن الصوت عاودني مرة أخرى بوضوح، فكان خليطاً من خبب الحصان ومشي الإنسان، ثلاث ضربات لوحدها ثم تتابع الخطوات، وفجأة نظرت خلفي نحو شاهد القبر فرأيت فوق رأسي تماماً، أرجل بغل مشعرة تقف ثابتة بجانبي، فرفعت بصري للأعلى وتسمرت فوق القبر من هول ما رأيت، فقد كان أعلى جسم البغل يتكون من رأس شبيه بالإنسان البدائي، مشعر وذي آذان مرسلة كالخفاش وأيدي طويلة وأصابع من وزغ، يقف صامتاً وعيناه يتطاير منهما الشر والوعيد. لم أعد أقوى عندها حتى على الصراخ وأحسست بشلل تام من أصابع رجلي مروراً بجسدي كله، وحتى لساني لم أعد أحس أنه عضو مني. ثم صلصل المسخ بضحكة شيطانية، وقال: «نديم بن عفراء المقاتل» (اسمي قرنه بأمي وليس بأبي)، أنت متهم بقتل شخصين ومطلوب حضورك لمحكمة الجان المستعجلة عند الطبقة السادسة تحت الأرض.

Twitter: @ketab_n

نديم في محكمة الشياطين

أنشلت أطرافي كاملة وأنا أنظر نحو هذا المسخ الهجين التركيب من البشر والحيوان، وبقي لي من الإغماءة التامة قيد أنملة من هول الرعب الذي حلّ بي، واستدركت أن ما أصابني هو بسبب نومي فوق القبر وسيري بقدمي لمكان مسكون. لكن العفريت لم يترك المجال لخيالي أن يأخذني بعيداً، فقال بحزم: «قم يا نديم فأنت مطلوب في الحال، فالمحكمة قد نصبت لك بحضور ملك الجان «نمرود ، وفر خوفك ووجلك لما ينتظرك الليلة من أهوال.» وبعد أن استجمعت شروى قطمير من قواي سألته برهبة، بالله عليك من أنت، وهل أنت صديق أم عدو، أنس أم جان. رد بضحكة أظهرت أنياباً حادة بل صديق غير كل أصدقائك الذين عرفتهم من قبل، وسأكون لك بدءاً من هذه الليلة قرينك الذي لن يتركك لحظة واحدة، واسمي «سنشع». قم الآن معي ولا تخشى شيئاً ما دمت قرينك، هيا فالقوم مؤتمرون في المحكمة، ولم ينتظر «سنشع» ردي، فجذبني بأصابعه البشعة وقذف بي على صهوته وحلق نحو السماء بقفزة عالية ثم نزل بعدها نحو الأرض وطفق يعدو وهو يصهل بنشوة محارب وصليل حوافره يقصف عيدان شجر الغابة الكثيفة التي تتوسط المقبرة المظلمة، وعندما وصل إلى الجزء المخصص لموتى اليهود، عرج نحو قبور غريبة الشواهد ماثلة إلى الأمام تحيطها أشجار ناصعة البياض، ثم ظهر فجأة شق مظلم وسط أحد الأشجار البيضاء فدلفنا من خلاله وبدأت وسط العتمة أشعر بعملية الهبوط السريع بطريقة الدوران نحو باطن الأرض فأحسست بدوامة ورهبة كالتي تصيب راكبي قطار الموت، فأغمضت عيناي واستسلمت للأمر إلى أن وصلنا غايتنا، باطن الأرض السادسة.

Twitter: @ketab_n

لم أكن لأجرؤ على فتح عيناي عندما وصلنا إلى المحكمة بينما «سنشع»، يسير بي وسط حشود من المخلوقات التي أسمع أصوات همهمتها ولغطها وضحكاتها المكتومة ووقع حوافر مختلفة، يختلط بعواء ذئاب ونباح كلاب وفحيح أفاعي، أعقبته زئير أسد هادر ساد بعده صمت تام.

أنزلني «سنشع»، فوق مقعد حجري وأحسست حالاً بشيء لزج كبل يداي وقدميّ، ففتحت جزءاً يسيراً من عينيّ ووجدت أنها ثعابين تُستخدم كأصفاد، وقال لي: «أفتح عينيك يا نديم، فلن تُحاكم وأنت مغمض العينين وسأكون معك، هيا تشجع يا نديم.» ترددت كثيراً، ولكن مع إصراره وطمأنته لي فتحت عيني دفعة واحدة لأتلقى الصدمة بسرعة بدلاً من الخوف دون معرفة ما يحيق بي من أهوال.

لما فتحت عينيّ بدت لي فعلاً أنها شيء يشبه المحكمة التي يعمل بها الأنس، فقد كانت محكمة منصوبة في طرف ساحة قلعة خربة، تتحرك في نهايتها القلعة كأنها تتنفس كل لحظة وأخرى، وسماؤها وأرضها وأشجارها والقلعة العتيقة وكل ما يحيط بي ملون باللونين الأسود والرمادي فقط. وفي كبد السماء الحالكة السواد، يوجد أثر لنور طفيف، يبدو أنه الطريق الوحيد لسطح الأرض الذي سلكه «سنشع» عندما أتى بي إلى هنا.

أما جمهور المحكمة فقد كان أغرب وأبشع ما رأيت في حياتي كلها، فقد اصطف أمامي ١٢ مسخاً غريبي الخلقة من «الغيلان»، وعرفت أنهم يشكلون هيئة المحلفين، وهم يشبهون الجاموس الأمريكي الضخم المسمى «بفلو»، بيد أنهم يجلسون كما يجلس الإنسان ويبدو عليهم الوقار والحكمة، وعن شمالهم وقف الادعاء العام، وهو كلب بثلاثة رؤوس وفي كل رأس عين واحدة، أما القاضي ومساعديه فكانوا عبارة عن جذور شجر ثابت في الأرض وتمتد فروعه في السماء فتخترقها لتصل إلى المقبرة في الأعلى وتظهر على سطح الأرض كأنها شجرة عادية تماماً، وعرفت لاحقاً بأن شجرة القاضي هي الشجرة التي نمت تحت أغصانها الوارفة في المقبرة. ويبدو أني قد أرغمت على السير حتى وصلت إليها، فقد كنت مسيراً لا

Twitter: @ketab_n

مخيراً. أما جمهور المحكمة فالواحد منهم تجتمع فيه صفات جسمانية من الإنس والحيوان، وآخرون من حشرات وزواحف وكثير منهم يشبه فصائل القردة بأنواعها، ومن أغرب ما رأيت وأقشعر له بدني هي رؤوس أغنام فقط، محروقة ولكن فيها حياة فأسمع منها همهمة وأزيزاً وهي تتحرك في الهواء من مكان إلى آخر.

افتتحت المحكمة بعد أن طلب القاضي من المدعي العام، الكلب ثلاثي الرأس، سرد التهمة التي أعرفها جيداً، وبدأ حديثه بأنه قد رصدني عندما قدمت إلى لندن ودخلت أول مرة في حياتي إلى الديسكو المسمى Sombrero، فقد كان هو الشيطان المكلف بذلك الملهى الليلي. وبعد ذلك حاول أن يجذبني نحو المعاصي بكل أنواعها والتي كان يضعها في طريقي أينما ذهبت ويسهلها لي، في المطعم وفي الطريق وأنا أستقل القطار أو في المدرسة، لكنه فقد الأمل لأني كنت دوماً مهما فعلت أحافظ على الصلاة وعلى الأذكار صباح مساء، فقد كنت أحوم حول الحمى ولا أقع فيها. إلى أن أتى ذلك اليوم الذي كان ينتظره بفارغ الصبر لنحو سنة كاملة، عندما لم أذكر الله وقد ملأ الحقد قلبي، فقمت بحرق ماخور «البيكاديلي» في محاولتي لقتل غوريلا، فتمكن حينها من السيطرة عليَّ تماماً وعزز ذلك بدفعي لقتل الرجل المتشرد في «أكسفورد ستريت».

وطلب المدعي العام في مجمل عريضة الدعوى، بعد أن أصبحت رهينة لهم كما فهمت من سير المرافعة، أنا أتعاون معهم لارتكاب كل أنواع الجرائم التي يمكن أن تخطر أو لا تخطر على بال أحد، قتل... سرقة... حريق... فتن... من دون حدود لتلك المهمات. وطلب في النهاية أن تلخص مهمتي في أن أكلف بقتل ألف نفس قرباناً للأسياد والشياطين، ومن ثم يمكنني أن أكون حراً أو أستمر معهم إذا ما استهوتني الجريمة، لكن لا تنازل عن قتل ألف نفس.

أعترض «سنشع»، المحامي الخاص بي وقال: «إن موكلي «نديم، ليس والياً حتى يتمكن من قتل هذا العدد الكبير، وسوف يُلقى القبض عليه من قبل البشر قبل أن يتمكن حتى من تنفيذ ربع الجرائم المطلوبة، لذا

Twitter: @ketab_n

يطلب من هيئة المحكمة أن تخفض العدد إلى ٩٩ فقط، كما جرت العادة في تكليف عامة البشر من دون ذوي المناصب أو الحكام.» وضرب أمثلة لمحاكمات سابقة تمت، بل إن «سنشع» تمادى في طلب الرخصة لي، وأصر على إعطائي خصم ٥% من العدد ٩٩، لأنه من المفترض أني قمت بقتل غوريلا، والمتشرد من قبل، وطلب أن يكون الخصم بمثابة «مكرمة شيطانية» وهي ليست بمستغربة على مجتمع الجن وتحت ظل هذه القيادة الرشيدة أدام الله عزها.

وافق القاضي الكهل بحبور على اقتراح «سنشع»، وأيده بشدة تشجيعاً لي وتأليفاً لقلبي، وسأل إن كان لدى الادعاء أو المحامي أي إضافة قبل أن تُرفع الجلسة. لكنني بعد أن عرفت سرّ وجودي هنا وأن المحكمة مؤيدة لي، بل أنها تطلب مني أن أقوم بقتل المزيد من البشر بدل أن تحاكمني لذلك، وقفت بكل كبرياء وسكينة وطلبت الإذن من القاضي للحديث. وقلت: «يا سيادة القاضي، يا حضرات العفاريت، أنا أعترض بشدة على حكاية الخمسة في المية!!! أرجوكم... أرجوكم اعفوني منها، فلدي حساسية كبيرة من هذا الرقم، ألا يكفي يا جماعة العفاريت الكرام أنها ورانا ورانا فوق الأرض!!!، والآن تريدون أن تذلونا بها تحت الأرض، إنني أحتج بشدة، فقد أصبحت الشعوب تعيّرنا بأننا أبو خمسة، فهل يرضيك ذلك يا حضرة القاضي؟ أفصح يا مولانا...» عندها ضجت القاعة بالضحك الهستيري، وانبرى شيوخ هيئة المحلفين الذين كانوا في السابق صامتين صمتاً سرمدياً. الظاهر أنهم يستلمون مخصصات من القاضي وهذا سر صمتهم الغريب طوال إجراءات المحاكمة، قائلين: «هو صادز... هو صادز (هو صادق... هو صادق) ما بوه غير الخمسة، وراه ما تكون خمسين بالمية، أربعين، ثلاثين، نعن أبوكم استحوا شوي فشلتونا حتى عند الإنس.» عندها ابتسم القاضي خجلاً «حتى ابتلت لحيته» (عادي الجني لما يبتسم تبتل لحيته)، وقال: «طيب يا نديم بنخليها هالسنة خمسة والسنة الجاية خمسة وإلي بعدها خمسة، يعني المجموع خمسطعش بالمية مثبتة في الرقم الأساسي وعلى وزير الغلة تنفيذ ذلك، من قدك يا عم.»

Twitter: @ketab_n

وبعد أن وافق القاضي على اقتراحي، ضجت القاعة بالتصفيق ثم تكرم وقلدني سلسلة لأعلقها على نحري مصنوعة من بقايا عظام طفل قُدم قرباناً للقاضي قبل خمسمائة سنة، وقال إن ارتدائي للعقد هذا سوف يمكنني من الضحية التي أنوي أن أغدر بها، فعندما أنظر للضحية لمدة ثلاث ثواني على أن تلتقي عينيّ بعينيه، سأتمكن من السيطرة عليها وسوف تتبعني إلى أي مكان من دون شعور منها. كما زودني كبير هيئة المحلفين بخنجر مسموم، وأخبرني أن نصله قاتل ولن يمسه إنس أو جن إلا وصرعه في الحال.

رفعت الجلسة بعد أن أوصت المحكمة بعودتي لاستكمال نومي فوق القبر، على أن أقوم في اليوم التالي عند شروق الشمس بالالتحاق بملك الكهنة في لندن واسمه «أفيستان» والذي يسكن في Berkeley Square 50، وذلك لمدة أسبوع حتى يصقل مهارتي كي أكون سفاحاً ماهراً لا يكتشفني أحد، حتى أقرب الناس إلي.

عدت مع «سنشع»، والذي أصبح أول صديق لي من الجن وشكرته على حسن صنيعه ودفاعه عني حتى جعل العدد المتبقي لي نحو ٩٥ نفساً بدلاً من الألف، فرد: «لا داعي للشكر ويجب أن تخلد للنوم الآن فلدينا من الغد عمل طويل.» سألته: «كيف يمكن لي أن أنام بعد تلك الأحداث الجسام التي كابدتها طوال الليل ومسلسل الرعب الذي لم يكد لينجلي، وهل بقي شيء من الليل لأستغله في النوم؟» رد عليّ بابتسامة شيطانية، وقال: «يا نديم، كل الساعات التي قضيتها لا تحسبها بطريقة الوقت التي يُعمل بها فوق الأرض، ففي حساب أهل الأرض تبدو أنها ٨ ساعات كاملة، أما في حسابنا نحن، فهي أربع ثواني فقط... أي أنه مساوٍ للوقت الذي تستغرقه في التقلب فوق القبر، أما بالنسبة للنوم، فأنا المسؤول عنه وسوف تنام قرير العين ولا تنس أن تضع القلادة حول عنقك ويكون الخنجر المسموم دوماً في متناول يدك، ليلة سعيدة يا نديم، لقد كنت أشجع مما توقعت.» فأجبته: «ليلة سعيدة يا «سنشع» بيه.»

نمت بسكينة كطفل في المهد من دون أحلام مزعجة أو كوابيس كما

Twitter: @ketab_n

كنت أخشى، وعند الصباح أحسست بيد طرية توقظني بهدوء، ففتحت عيناي وأنا أتحاشى أشعة الشمس التي تسلل من خلف رأسي، فلمحت شخصاً يبتسم لي قائلاً: «صباح الخير يا بني، لماذا تنام هنا في هذا المكان، هل تشكو من شيء، وهل يمكنني أن أساعدك؟» أمعنت النظر إليه فعرفت من لباسه ورقته بأنه قسيس تابع للكنيسة الملحقة في ركن المقبرة، فأخبرته أني جائع للغاية وأشعر بالبرد الشديد لنومي في العراء طوال الليل، فدعاني للدخول إلى بيته الملحق في الكنيسة وأجلسني بالقرب من المدفأة وأضاف لها بعض الحطب لكي تشيع الدفء في المكان، وهو ما كنت في أمسّ الحاجة إليه. بعد وقت قصير أحضر لي فطوراً شهياً مكوناً من بيض مخفوق وتوست محمص ونقانق وغادر الغرفة بعد تركي لتناول الطعام لوحدي، وأخبرني أنه سيذهب ليؤدي الصلوات في الكنيسة كعادته كل صباح. تناولت إفطاري بسرعة وأنا أسترجع ما حصل لي البارحة كأنه حلم، ولولا وجود القلادة حول عنقي والخنجر داخل طيات ملابسي لما صدقت حتى نفسي. لكن ما هذه المهمة الثقيلة المطلوبة مني، وكيف سأنفذ ما طُلب مني بقتل نحو ٩٥ نفساً، فأنا في بعض الأوقات كهذه اللحظة لا أستسيغ فعل ذلك، وأستغرب أصلاً كيف اقترفت يداي قتل إنسان بريء. أووووه يا إلهي، ما لي وهذه الحياة البائسة وطريق الشر، أنا لم أخلق قط لهذا العبث وحياة البؤس والشقاء. وبينما كانت تتلاطم في رأسي الأفكار وأنا أهم بتناول آخر لقمة من الإفطار، نظرت نحو صحيفة يومية اسمها «مترو»، على طاولة القسيس، فوجدت في الصفحة الأولى تغطية كاملة للحريق الذي أضرمته في ملهى «غوريلا»، وكذلك قصة الرجل المتشرد الذي قتلته في شارع «أكسفورد ستريت». كانت التحليلات تربط بين الجريمتين وأن الفاعل قد يكون سفاحاً جديداً سيستمر ليتسلى بقتل ضحاياه، وقد يتمكن من قتل الكثير من الناس قبل أن يلقى القبض عليه. كما أن صورة غوريلا كانت تغطي نصف الصفحة الأولى، وظهر بأرجل مكسورة، وتعليق صغير تحت الصورة يخبر عن إصابته بشلل رباعي وأنه يتلقى العلاج في مستشفى «هامر سميث». وبينما أنا منهمك في القراءة،

Twitter: @ketab_n

أحسست بالدماء مرة أخرى تسيل من بين أسناني وعادت لي الرغبة الجامحة في القتل فألقيت بالصحيفة بعيداً وكذلك طاولة الطعام واتجهت مباشرة نحو الكنيسة أبحث عن القسيس نفسه. دخلت بحذر، وعندما خطوت نحو المذبح الخاص بالكنيسة وجدته وحيداً مديراً ظهره لي وتلاعب يداه آلة البيانو بينما يترنم بأدعيته المقدسة، فاقتربت منه بهدوء وتحسست جيبي ووجدت الخنجر المسموم فاستللته وغرسته في ظهره حتى لم يبق خارج جسمه سوى قبضة الخنجر، فسقط مضرجاً بدمائه قبل أن يتشهد بالتثليث. وبعد أن تأكدت بأنه قد هلك لا محالة، سحبت جثته وربطتها على صليب الكنيسة وجردته من كل الأموال التي معه لأستخدمها في طريق العودة إلى لندن.

غادرت مانشستر مسرعاً واتجهت إلى لندن وتحديداً لمحطة القطار في Bond Street، لأتدرب على الشعوذة وطرق القتل والخديعة لمدة أسبوع لدى ملك الكهنة في انجلترا العجوز «أفيستان» Avestan، والذي يسكن في 50 Berkeley Square. وصلت إلى وكره عند الضحى وطرقت الباب بحذر، فانفتح من تلقاء نفسه وسمعت صوتاً يناديني كالهمس «تفضل بالدخول يا نديم»، ادخل برجلك الشمال وأنزل نحو القبو. تحسست الطريق المظلم ونزلت نحو القبو ووجدت «أفيستان»، منكباً على أحد الكتب العتيقة، وبدأ لي موحش الهيئة، فوجهه يشبه البوم وعيناه شاخصتان، ضخم البنية ومحني الظهر كأحدب نوتردام. رحب بي وأخبرني أنه علم بقرار محكمة الجن وسمع عني الكثير من «سنشع»، وهو مسرور جداً لما أنجزته قبل يومين، ويجب أن أشمر عن ساعدي وأكون متيقظاً للغاية فلدي الكثير من الدروس لأستوعبها، قبل أن أستحق أن أكون سفاحاً محترفاً أقدم الضحايا قرابين للأسياد. وسرعان ما بدأنا العمل معاً فأخذ يخبرني عن مبادئ السحر والفرق بين السحر الأسود والأبيض، العلوي منه والسفلي، كما تعلمت منه أن أبدو طيباً للغاية أمام الناس وأن أبدو تحديداً «أهبل»، حتى أبعد الشبهات عني لأقصى الحدود.

وفي منتصف الأسبوع حدثني عن كثير من عمليات القتل التي قام

Twitter: @ketab_n

بها وأغربها أنه قتل طفلة اختطفها من الشارع ليطعمها لتمساح يربيه في الحديقة الخلفية، والسبب أنه لم يكن يرغب في الذهاب لشراء طعام له من مكان مخصص لطعام التماسيح، وقام في اليوم التالي بمساندة العائلة في البحث عن الطفلة وطلب صورة لها ليعممها على أعمدة الشوارع كطفلة تائهة يبحث عنها ذويها.

وبعد خمس ليال وقد كنت مستغرقاً في النوم، استيقظت على صوت همس ناعم محبب إلى قلبي، بيد أنه كان ممزوجاً ببحة حزينة، يناديني بتؤدة، نديم! نديم! فصحوت وجلاً لأرى طيف «شفاء» يقف شفافاً أمامي بالرغم من أن ملابسها ترتديها كانت كحلية اللون، سألتها بلهفة، «هل أنت شفاء، حقاً أم العفاريت تتلبسك؟» ردت: «بل أنا شفاء، وجئت أقول لك بأني كنت أحبك وأهيم في هواك ودقات قلبي تعزف دوماً أنغام اسمك، أما اليوم فأسمح لي أن أودعك وداعاً لا يكون بعده لقاء، فقد اخترت طريق الخطيئة والشر، وأكثر ما أحببت فيك هو طيبتك وحبك للخير وحبك لكل أصناف البشر، أما الآن فوداعاً أيها الشرير نديم، فإني عنك راحلة ولن أبحث بعدك عن حب جديد، وسأكره كل عاشق كاذب مثلك». صدمت من توبيخها لي وكان هذا أسوأ شيء قد يصيبني في حياتي، فلم يكن ليهمني لو أدرك العالم كله ما اقترفته يداي، ولكن أن تعرف بذلك شفاء، فالموت أرحم لي. لم أستطع أن أقول لها شيئاً، ووضعت رأسي بين يدي بأسى وقلت لها: «أعدك أن أعود كما عرفتني نديم المحب دوماً ومن الغد مهما كلفني ذلك، أرجوك أعطني فرصة واحدة وأخيرة، أرجوك يا شفاء أعطني فرصة أخيرة.»لكن شفاء لم ترد علي ولم تعطني فرصة لأتكلم أكثر، وبدأت بالتلاشي بسرعة حتى اختفت تماماً.

عند الصباح أخبرني «أفيستان»، بأن «سنشع»، يريدني على انفراد بعد الإفطار في القبو، فأنهيت إفطاري بسرعة ونزلت نحو القبو لأرى ما استجد اليوم بالرغم من أني بدأت أفكر في التراجع عما ورطت نفسي به. وعندما وصلت للقبو رأيت «سنشع»، متجهماً على غير العادة، وبادرني

Twitter: @ketab_n

بصرامة قائلاً: «نديم، العمل معنا لا يختلط بالعواطف أو يعيقه الحب، لقد أخبرني «أفيستان ، أنه سمعك تناجي شفاء، البارحة وقدمت لها اعتذارك ووعدتها بأنك ستتوب وتعود للجادة. هذا الكلام غير مقبول نهائياً ويجب أن تعتذر لي أنا وليس لشفاء، واعتذاري سيكون بأن أسري بك الآن نحو «دار الحي ، وتقوم بنفسك بقتل شفاء.» يا إلهي، صدمت من طلبه الغريب والذي يستحيل أن أقوم به ولو قتلت ثم أحييت مئة مرة لن أقوم به أبداً، فاعترضت عليه بشدة وأخبرته أنه يمكنه أن يطلب مني أن أقتل ألفاً من البشر من دون أن أمس شعرة من شعرها المقدس. لكن «سنشع»، أصر بشدة وبدأ يتضايق مني ويزمجر ويقول إما أن تقتلها أو أحضرها لك الآن وأعذبها أمامك. فعرفت أني لا محالة مقبل على أقسى اختبار يمر عليَّ في حياتي ويجب علي ألا أستسلم لأخف الشرين فكلاهما لا يمكن أن أقبلهما أبداً. فقررت بسرعة أن أعالج الموضوع بطريقتي الخاصة الآن بعد أن فاض بي الكيل، فأدخلت يدي داخل جيبي وأخرجت الخنجر المسموم وغرزته في نحر «سنشع»، صارخاً فيه «خذها مني وأنا أخو نورة»، فترنح وهو يتحشرج، وصاح بي «ثنها... ثنها»، أي كرر الطعنة، فقلت له: «أمي لم تعلمني «الثواني، وهذه «التثنية، عرفتها عندما كنت صغيراً وحكت لي جدتي أن الذي يقتل العفريت يجب عليه إلاّ يثني الطعنة لأن الطعنة الأولى تقتله، بينما الثانية تحييه.»

صعدت إلى الدور الثاني ورأيت «أفيستان»، الذي فتن بي عند «سنشع»، يجلس بالقرب من المدفأة المشتعلة يتحرى عما فعلت معه، ظاناً بأني قد خنعت لسنشع، فاقتربت بهدوء من المدفأة وزدتها حطباً حتى أصبحت لظى من ألسنة اللهب. فقال لي: «هل تشعر بالبرد لهذه الدرجة؟» فلم أرد عليه وإنما حملته من وسطه وقذفت به وسط النيران المتلظية وهو يصيح ماذا تفعل يا مجنون كيف تجرؤ على ذلك إنك ستدفع الثمن غالياً، وعندما بدأ يصطلي بالنار تحول إلى عشرات من الخفافيش التي تطير ثم تهوي وسط النار لتحترق هي بدورها.

خرجت من المنزل المرعب وفي بالي شيء واحد هو القضاء على

Twitter: @ketab_n

غوريلا، فقط حتى لا يشي بي ومن ثم أعود لحياتي القديمة الهادئة، فقد أرهقت تماماً خلال الأيام العشرة الأخيرة، ولو عشتها شهراً آخر فقد أشيخ وأموت من شدة الأهوال. لذا ركبت الحافلة الحمراء رقم ٧٢ المتجهة إلى مستشفى «هامر سميث» والتي ينام بها غوريلا، لأتمكن من أن أقضي عليه وأرتاح نهائياً. في الطريق خطرت لي فكرة سهلة للقضاء عليه من دون أن أسبب أدنى لفت نظر إليَّ. كانت الفكرة أن أحصل على كمية صغيرة من مادة الأسيد وأحقنها في المغذي الذي ظهر أنه موصل إلى وريده في الصورة المنشورة في الصحيفة، وسيموت حتماً عندما يتغلغل الأسيد الحارق نحو قلبه، فتوقفت عند محل بناء صغير في «شبوردز بوش» وأخذت أصغر كمية استطعت أن أبتاعها، ثم عرجت على صيدلية وطلبت إبرة واحدة فأحضر الصيدلاني لي كمية من الإبر في كيس واحد، أخذت منها واحدة وقذفت البقية في برميل النفايات. عندما وصلت بالقرب من المستشفى، قمت بملء الإبرة بالمادة الحارقة وخبأتها في جيبي، وصعدت بكل هدوء وثقة نحو الدور الرابع الذي يتلقى غوريلا العلاج فيه. عندما تأكدت بأنه لا يوجد أحد حول الغرفة أو بداخلها، تسللت داخلها واقتربت منه وأزحت الستار عنه، فرأيته كما بدا في الصورة مغمى عليه وآثار الكسور والحروق تملأ جسده المسجى على السرير الأبيض، فقلت في نفسي، لقد أتت اللحظة التي أريحك فيها من آلامك نهائياً وأريح نفسي مما لحقها من أذى وآلام وهواجس خلال الأيام المنصرمة. وأخرجت الإبرة من جيبي وقلت: «سامحني يا غوريلا، فأنت أول إنسان حاولت أن أقتله، ولكن يبدو ويا للمفارقة ستكون آخر إنسان أقتله.»

وغرزت الإبرة في المغذي الموصل بوريده في المكان نفسه الذي أعتدت أن أرى الممرضات يغرزن الإبر فيه لدى أخي الذي ينام الآن في مستشفى «هارلي ستريت كلينك»، وعندما تأكدت بأن الإبرة قد استقرت بالداخل ضغطت عليها بشدة لأفرغ الأسيد الحار الذي سيغلي في قلب غوريلا وصدره وعروقه خلال ثوان معدودة. لكن المفاجأة الكبيرة التي باغتتني وجعلتني أشهق من شدتها أن قام غوريلا، بعد أن تأكد بأني أنا

Twitter: @ketab_n

غريمه وأني أنوي به شراً وأطبق على عنقي بيدين حديديتين كأنهما كماشة... وبدأت أحس بالاختناق وانقطاع النفس مني وتأكدت أني سأموت لا محالة قبل أن يصل مفعول الأسيد إلى جوفه، وزادت قوة يداه الهائلة من الضغط على فقرات عنقي حتى أحسست أنها ستنكسر من شدة الضغط، فبدأت أستغيث بصوت عالٍ وأحاول الهرب يمنة ويسرى من دون جدوى فمددت يدي لكي أخنقه بدوري وسحبته نحوي حتى سمعت دوياً هائلاً بعد أن سقطنا معاً تحت سريره، ثم فتحت عينيَّ لأجد المفاجأة التي أنهت كل شيء. فقد كان ذلك الصوت الهائل هو صوت سقوطي من فوق السرير في غرفة نومي في الشقة واصطدامي بالمدفئة القريبة من النافذة!!! ما هذا يا إلهي، لقد كنت أحلم طوال تلك المدة... حلم طويل... غريب... شيطاني من أوله لآخره. قمت من على الأرض وأضأت الأنوار ونظرت إلى الساعة وإذا بها تشير إلى نحو الثالثة صباحاً فتوجهت إلى المغسلة وتوضأت وصليت السحر وقرأت وردي مرات ومرات وحمدت الله على أن ما جرى لي من أهوال لم يكن حقيقة وأني لم أمسّ دماً يوماً ما، وإنما هي أضغاث أحلام، والحقيقة منها أنني قابلت فقط الليبي برقوق أبو شوشة، وهو الذي أوحى إلي أنه سوف يساعدني بأن أنتقم من غوريلا، فلما ذهبت إلى البيت ولم يكن في رأسي سوى الانتقام منه، تلاعبت بي تلك السلسلة البشعة من الأحلام والكوابيس لتكون درساً لي يحذرني ما حييت أبداً من أن أفكر يوماً ما أن أنتقم من أحد. فاليوم وكل حياتي ستكون خراباً كما حلمت إن لم يكن أساسها الحب والتسامح. في اليوم التالي قررت أن أذهب إلى غوريلا لأراه حياً يتمتع بالحياة التي وهبها الله له وحاولت أن أنزعها منه في الحلم، وفي الطريق وجدت برقوق أبو شوشة، يخرج من محل أصباغ يقع في بداية «الكوينز واي»، وكان يلبس بالطو مثل بالطو هتلر الذي اقتحمت به لندن قبل سنة ثم أحرقته بعدما عرفت أنه يشوه المنظر العام للندن وسألني: «ألا تريد الانتقام من «النيجرو ، الذي هشم رأسك أم أنك ما زلت جباناً يا نديم؟» قلت له: «لا أريد منك نصائح بعد اليوم يا وجه الشؤم، ولكن أتمنى أن تستفيد من الصبغ الأسود الذي تحمله وتصبغ به وجهك، فأنا لم أعد أطيقك أبداً.»

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى المطعم الذي يقع في أعلى تروكاديرو، وهو المطعم الذي كنت قد حلمت بأن أراقب منه عملية حرق الملهى... وطلبت أكثر من خمسة أكواب قهوة وأنا أنتظر حتى دقت الساعة الرابعة، موعد عمل غوريلا، وعندما رأيته قادماً قفزت مسروراً وكأني أرى عزيزاً قد غاب عني لسنوات طويلة، فنزلت الدرج مسرعاً وطرقت باب الملهى وطلبت أن يحادثني غوريلا في الخارج. فظهر لي وعرفني وهو ينظر نحوي بشكّ وتحدٍ، يحسب أني قادم لأطلق عليه الرصاص أو أدخل في معركة غير متكافئة. لكنني بادرته بأن مددت يدي إليه مصافحاً وقلت له: «إسمي نديم واعتبرني صديقك من الآن، ولكنني لن أتحدث معك هنا، أريدك أن تذهب معي نحو حانة «الأسد الأحمر ، بالقرب من «الوايتهول وسأشرح لك كل شيء بالتفصيل.» حانة الأسد الأحمر هي الحانة التي حلمت أني قابلت فيها برقوق أبو شوشة والأيرلندي «جيري»، وهنالك وعلى منضدة الغداء مع غوريلا شرحت له ما حصل لي من كوابيس وأحلام مزعجة، وكيف أني بسبب رغبتي في الانتقام منه أمسيت سفاحاً وعبداً للشياطين، وكان غوريلا، ينصت بشدة مشدوهاً بحماسي في سرد الوقائع وبإحساسي بتأنيب الضمير، وأنني دعوته هنا لأعتذر منه بالرغم من أنه حلم وأنه هو الذي اعتدى علي في الحقيقة. وعندما انتهينا من تناول الغداء استأذنته بعد أن أحسست براحة ضمير وانشراح صدر لا مثيل لهما وركب غوريلا الحافلة رقم ٧٣ عائداً إلى ملهاه وهو يشير نحوي مودعاً بكلتا يديه من خلف زجاج الحافلة، أما أنا فقررت أن أتوجه إلى أخي في المستشفى لأحكي له هذه القصة المثيرة التي ستعجبه لا محالة. لكن بعد نحو دقيقتين وأنا أنتظر الحافلة الخاصة بي رأيت غوريلا، عائداً نحوي وهو يبتسم ابتسامة عريضة وبادرني: «نسيت أن أسألك يا نديم، ما هي ديانتك؟» فرددت: «هل نزلت من الحافلة وعدت لتسألني هذا السؤال؟» رد بالإيجاب، فأخبرته بكل فخر: «ديني هو الإسلام.»

وبعد نحو أسبوعين حضرت صلاة الجمعة في المركز الإسلامي في «ريجنت بارك»، وبعد الصلاة أعلن إمام المسجد في تلك الأيام «الشيخ

Twitter: @ketab_n

زكريا»، المورد الخدين من دون «ميك آب»، بشرى دخول أخ جديد لنا في الإسلام وتقدم شخص من بين الصفوف فعرفت أنه يا للغبطة غوريلا، بالرغم من أنه كان يرتدي لباساً أفريقياً، وبدأ ينطق بالشهادة «أشهد أن لا إله إلاّ الله... وأشهد أن... محمداً... رسول الله»، فبدأت جموع المصلين من العرب والمسلمين بالتهليل والتكبير فرحة بأخ مسلم جديد، فاقتربت منه أبارك له وأحييه... فأخذني بالأحضان... وقلت له: «الحمد لله الذي هداك للإسلام يا أخ غوريلا.»

ردّ لي بابتسامة أظهرت أنياباً تشبه أنياب «سنشع»، ، ، «اسمي لم يعد بعد الآن غوريلا ... اسمي أصبح «غرم الله .»

Twitter: @ketab_n

شفاء داء ودواء

بعيداً عن الحلم المزعج تحسنت حالتي بشكل كبير بعد مرور أسبوعين، سوى بعض الآلام التي تعاودني بين فترة وأخرى يصاحبها صداع جانبي أثر حتى على ذاكرتي القصيرة المدى واستمرت معي لهذا اليوم، فأنا لحد هذا اليوم أستطيع أن أذكر جيداً الأحداث القديمة بتفاصيلها، ولكن أجد صعوبة في تذكر الأحداث القريبة التي تمر بي. وقد شرح لي طبيبي الدكتور «هورنر»، خطورة إصابتي وقال لي: «إن العناية الإلهية أنقذتني من موت محقق، فلو استمر النزيف والإغماء لخمس ساعات لاحقة لفارقت الحياة لا محالة.»

وفي يوم من أيام أغسطس الجميلة كنت جالساً بجوار النافذة لأنني لم أكن أستطيع أن أتمتع بالتنزه في الحدائق أو الأسواق أو رؤية السياح الذين أصبحوا في ذروتهم في شوارع لندن في هذا الوقت من السنة بسبب الصداع الذي نكد عليَّ عيشتي وسرق أجمل الأوقات مني. بيد أن الهاتف دق فجأة فتناولته لأسمع خلاله صوت شفاء تتحدث من «دار الحي»، فرحبت بها بسعادة غامرة وأخبرتها بالقصة والآلام الرهيبة التي أعاني منها التي لم تخففها كثيراً المسكنات التي تناولتها، فردت علي بكلمة سحرية سرت بسببها قشعريرة في جسمي عندما قالت لي: «واعني يا نديم، وش صار فيك يا حياتي... ليته فيني ولا فيك.» كلمة «واعني»، أي فديتك بروحي، كانت والله بلسماً شافياً أفرزت في جسمي مادة «الأدرينالين»، التي تولد في الإنسان الشعور بالمتعة والثقة وتزيل الشعور بكل الآلام، فلم أعد أحس بأي آلام بعد كلمتها بالمرة. فقلت لها: «لك يا شفاء والله من

Twitter: @ketab_n

اسمك نصيب، فما بقي بي من آلام قد تلاشى تماماً عندما سمعت صوتك.» ردت بسعادة: «إذن انتظر المفاجأة، فأنا قادمة إلى لندن بعد يومين، وستراني صوتاً وصورة، وليس صوتاً فقط، فأنا قادمة في رحلتي الصيفية لمدة شهرين، لنرى ماذا سيحل بك يا نديم.» رددت بحبور وسعادة لا توصف: «سوف يُغمى علي بلا شك مرة أخرى يا شفاء، وضربة في الرأس وأخرى في القلب توجع يا غلاتي، لكنني على كل حال في انتظارك على أحر من الجمر مهما يكن الأمر، وذلك في مطار هيثرو بعد يومين... إلى اللقاء.»

ذهبت من فوري لوكالة عربية في لندن اسمها «نفرتيتي»، تنظم رحلات في «ادجورورود»، وحجزت رحلة لثلاثة أيام من موعد وصول شفاء لمدينة «بلاك بول» الترفيهية، وحجزت غرفتين منفصلتين في فندق «إمبريال هوتيل IMPERIAL» «HOTEL BLACKPOOL». استقبلتها في المطار مع إشراقة الصباح الباكر وقدمت لها باقة زهور بيضاء نسقت بعناية في محل زهور راقٍ في «هارودز»، ثم ركبنا التاكسي حتى «ادجورورود»، ووضعنا الحقائب في شقتها، لكن للأسف فالحافلة المتجهة إلى «بلاك بول» كانت قد غادرت لندن منذ أن كنت في المطار، فاستقللنا القطار من محطة «يوستن»، حتى «بلاك بول»، ووصلنا إلى الفندق قبل أن تصل الحافلة بنحو ساعة ووجدنا أسماءنا ضمن الحجوزات في غرفتين متقابلتين.

كان الجو منعشاً وصيفياً جميلاً في بلاك بول، المدينة الشاطئية التي تقع في الشمال الغربي مقابلة للبحر الأيرلندي أو بداية المحيط الأطلسي وتتميز بوجود الملاهي والألعاب على طول الشاطئ الذهبي الجميل. ذهبنا من فورنا إلى الملاهي الرئيسية وهي نسخة مصغرة عن والت ديزني ولم أركب الألعاب الخطرة لعدم ثقتي بشفاء إصابتي تماماً بعكس شفاء التي كانت تسرح وتمرح في كل لعبة وهي تضحك علي بأني لا أستطيع أن أجاريها اللعب. والحمد لله أنها لم تستطع أن تستفزني لأنها عندما عادت من لعبة قطار الموت كانت تبكي من الهلع وكحلها البدوي يملأ وجنتيها وشعرها منكوشاً وقد طارت «شيلتها»، في السماء نحو أيرلندا الشمالية،

Twitter: @ketab_n

ولو أني طاوعتها وركبت معها لطار الشاش الأبيض الذي يلف رأسي. لكنني كنت متأكداً بأن الشاش لو طار فهو لن يطير لوحده، بل سيحلق عالياً في السماء بحثاً عن شيلتها ليعانقها ويطير بها بعيداً في غياهب بحر الظلمات.

أخذنا راحة قصيرة بعد ذلك وعندما حل وقت الغداء في مطعم وسط الهواء الطلق وطلبنا «فش آند شبس»، ونحن نراقب أحد المحال التي تصنع قوارير فيها رمال ملونة وأخرى ساعات رملية جميلة تنقلب بعد مرور ساعة كاملة لتبدأ بالانسكاب لساعة أخرى، ومكتوب عليها ساعات «بلاك بول الرملية»، عشرة جنيهات للواحدة. انتهينا من الغداء وخرجنا نحو الشاطئ الرملي الجميل وبدت لي شفاء بروح معنوية عالية فتخلصت من حذائها وأخذت تعدو وتتمخطر حافية كـ«سندريلا»، على الرمال الذهبية وأنا أنظر بافتتان لقدميها الجميلتين اللتين تزينهما نقوش الحناء الغاية في الروعة والأنوثة. فدنوت منها وأخذت علبة فارغة وجمعت فيها الرمل الذي وطأته «شفاء»، بقدميها وهي ترقبني بحيرة، وقالت: «نديم، ما بك، هل تريد أن تسحرني، لن تستفيد شيئاً فقد تمكنت من روحي بدون سحر.» رددت عليها: «لو كان الأمر بيدي لسحرتك سحر تفريق، لأني في هواك أصبحت كالغريق.» وأخذت الرمل الذي فيه أثرها وعدت معها إلى صاحب الساعات الرملية وطلبت منه أن يصنع لي ساعة تحمل الرمال التي وطأتها قدماها، فابتسم الثعلب الإنجليزي بمكر، وقال: «سوف يكلفك ذلك خمسون جنيهاً يا سيدي، تعال في الغد وستكون الساعة جاهزة بين يديك.» قلت له: «بل اصنعها الآن أمامي كي يطمئن قلبي أنك لن تغير «الرمال التي وطأتها شفاء ، وخذ مئة جنيه.»

الساعة لا تزال تتقلب إلى الآن في مكان آمن في «مغاور تورا بورا»، عندما ذهبت للجهاد في أفغانستان ولم أتخل عنها وكنت أتمنى أن تدفن معي لو استشهدت، ولم تهتز يوماً من قنابل زنتها عشرين طناً... وعدت من دونها والله وقاني من أسباب المنيّة.

Twitter: @ketab_n

فندق بارك لودج

سامح محمد، شاب مصري شبيه بالمخرج الأمريكي وودي آلان (Woody Allen) يعمل في فندق اسمه «بارك لودج» في شارع 73 Queensborough Terrace، خلف شارع «الكوينز واي»، وبينه وبين «الهايدبارك»، أقل من خمسين متراً. تعرفت عليه في أحد الأيام وأنا أسير من أمام الفندق الصغير الذي يعمل فيه وحيداً كعامل استقبال واستدبار وجامع للغلة وسارقها في نفس الوقت. الفندق كان أقرب منه إلى الشقق المفروشة المنتشرة في كل مكان في السعودية، وهو فندق وضيع وقديم ومتهالك لم تطله يد الصيانة من العصر الفيكتوري. والعصر الفيكتوري هو الحقبة التاريخية التي حكمت خلالها الملكة فيكتوريا من العام ١٨٣٧ وحتى العام ١٩٠١، وتُعد مثل فترة هارون الرشيد بالنسبة للخلافة الإسلامية من حيث الازدهار والتقدم والرقي في شتى المجالات. وأكثر مباني لندن التاريخية الحالية يطلق على تصميمها الطراز الفيكتوري نسبة للملكة فيكتوريا. والفندق من أملاك سيدة كبيرة في السن دردبيس مقطوعة من شجرة حنظل تمشي على عكاز، وتحتاج نصف نهار للصعود إلى أعلى الفندق، وعندما ترغب في النزول يقوم سامح محمد البهلواني بزحلقتها فوق قطعة بلاستيكية شبيه بالطشت من أعلى الدرج لأسفله، وهو اختراع يسجل لعائلة سامح حيث يقول إن جده الأكبر أول من سن الطريقة في عمارة تابعة لهم موجودة في بولاق الدكرور، وهي أشق مهمة بالنسبة إليه ويتمنى في أعماق قلبه أن يأتي يوم ويطلق العنان للطشت فلا يقف بها إلاّ عند الحانوتي. وعندما تنتهي مهمته الشاقة اليومية يجلس طوال النهار،

Twitter: @ketab_n

وينام طوال الليل في الرسبشن للإشراف على تأجير الفندق واختلاس ما يمكن اختلاسه من الأموال ٢٤ ساعة في اليوم و ٧ أيام في الأسبوع. وأكثر ما يختلس الباوندات من الزبائن الذين يطلبون السكن لعدة ساعات فقط ثم يغادرون الفندق، فيساومهم على السعر وفي بعض الأحيان يرضى بسرقة خمسة باوندات فقط، وباوند على باوند يعمل كثير على رأيه.

الفندق يحتوي على خمس وخمسين غرفة، وبعد أن توطدت صداقتي معه، سألني عما إذا كنت أعرف أحداً من التجار السعوديين ليقنع صاحبة الفندق العجوز المخرفة بأن تبيعه «بتلات أربع مليون جنيه انجليزي» وهي صفقة مربحة جداً فيكفي موقع الفندق بجانب حديقة «الهايدبارك» بالإضافة إلى دخله المربح حتى مع سرقاته المتكررة، فأخبرته بأن أبي سوف يأتي عن قريب لزيارتنا وسوف أعرض عليه الموضوع. وعندما حلّ علينا شهر رمضان المبارك عرّجت على سامح محمد بعد الإفطار وطلبت منه أن يرافقني لنتجول في «ليستر سكوير»، فقد افتقدت الأجواء الرمضانية والتسلية في الليل الطويل، ولم يكن يوجد في لندن مثل الآن محال معسل ومقاهي عربية، ومن غير المعقول أن أذهب إلى ملهى للسهر في هذا الشهر الفضيل ولم يكن هنالك حل سوى التسكع بـ«ليستر سكوير». لكن سامح محمد رد عليّ قائلاً: «اللهم إني صائم يا عم أنا مستحيل أروح معاك.» قلت: «يا عم سامح، حيرتنا معاك، تلطش المعلوم كل يوم من العجوز المسكينة بيدك الخفيفة والحين تقول اللهم إني صائم، على راحتك أنا بروح لوحدي.» وفعلاً لم يرافقني طوال شهر رمضان، وربنا يزيدك إيمان كمان وكمان يا سامح يا بن محمد ويتوب عليك من المال الحرام. وبعد العيد، زارنا أبي واهتبلت الفرص وعرضت عليه شراء الفندق من المرأة العجوز، وكنت أتحدث معه وأحاول أن أقنعه بأي طريقة، كان يستمع لي ولا يتكلم لمدة نصف ساعة، بالغت في أهمية المكان والسعر «تلات أربع مليون جنيه» على رأي سامح محمد، وفسرتها لأبي بأنها «ثلاثة أو أربعة ملايين جنيه إسترليني»، وما زال سعر الإسترليني ٣، ٤ في تلك الأيام. لم يرد عليّ أبي وكنت أتوقع أنه لا ينصت إليّ، لكنه

Twitter: @ketab_n

قال: «أنا لم أرد عليك لأني عارف من البداية ماذا تريد أن تصل إليه في النهاية، تريد أن تتفاخر غداً عند راشد الماجد ونبيل ومحمد وليد بأننا نملك فندقاً في لندن، بغض النظر عن صحة الاستثمار.» أبديت امتعاضي من استنتاجه، بالرغم من إقراري بصحة ما قال في داخلي، بيد أني طلبت منه مرافقتي ليحكم بنفسه ويتعرف على الرجل الأمين (ادعيت لأبي.أنه رجل أمين ويصلي الخمس، ولم أنس أن أذكر له عندما قال لي: «اللهم إني صائم»، في رمضان خشية رؤية المعاصي والفتن ما ظهر منها وما بطن في منطقة «ليستر سكوير»). عندما وصلنا إلى الفندق تفحص أبي الفندق جيداً، وتفحص سامح أكثر من الفندق، وعدنا إلى الغداء في مطعم إيطالي في ركن «ادجورورود» مقابل مطعم «رنوش» للوجبات السريعة، الآن حلّ محله مطعم «مروش» اللبناني. في المطعم كنت أنتظر رأي أبي وكنت أتمنى أن يكون من أعماق قلبي أنه وافق على شراء الفندق، لكن أبي أصيب بنوبة ضحك لا تنقطع، كل دقيقتين ومن دون سبب وجيه لي، كلما سألته: «ها بشر وش رأيك نقول مبروك؟ بتشتري الفندق، عجبك السعر والموقع؟» وكلما حاول أن يبدي رأيه ينفجر من الضحك مجدداً، أسأله فيستجمع قواه ويحاول أن يرد عليّ، ثم يعود للضحك مرة أخرى، تضايقت من تهكمه عليّ وعدم إعطاء أي اعتبار أو إشراكي في الرأي على الأقل في استثماراته، فأنا ابنه ومن حقي عليه أن أشاركه في إدارة ثروته، وهذه فرصة استثمارية أتيت بها له على طبق من ذهب له وهي فرصة استثمار في بريطانيا كي نتوسع عالمياً. بعد أن قلت «نتوسع عالمياً»، لم يعد أبي يطيق أكثر من ذلك، وذهبت عنه نوبة الضحك خصوصاً أن الكلمة وسيعة شوي وما قدر يصرفها، قال: «يا ولدي يا نديم يا مفتح اسمعني جيداً ولا تنصدم، أولاً صاحبك هذا إلي تقول إنه مسلم ورجل أمين ومصلي الخمس «واللهم إني صائم ، هو إنسان مسيحي الديانة، مع احترامي لكل الأديان.» قلت: «نعم شلون مسيحي هذا صاحبي وأنا أعرفه من مدة وكيف مسيحي واسمه سامح محمد!!! المسيحيون يسمون محمد؟ من متى...» رد وهو ينظر إليّ بشفقة: «يا ولدي اسمه «سامح حنا ،

Twitter: @ketab_n

وليس محمد، وهو ما كذب عليك بس أنت طاير بالعجة، بعدين «تلات أربع مليون جنيه، إلي قالها لك بأنها سعر الفندق ما كان يقصد ثلاثة أو أربعة ملايين جنيه، يقصد ثلاثة أرباع المليون، يعني يا فهلوي يعني ٧٥٠ ألف جنيه إسترليني فقط.»

أم الحالة... أم الحالة... كم فولت من الكهرباء أحتاج يا عالم الآن بعد هذه الصدمة لأسترجع توازني وثقتي بنفسي، يا دي الفضيحة يا أولاد، كيف بس أتخلص من المأزق الذي وضعت نفسي فيه أمام والدي، والله صارت رقبتي أد السمسمة وانصدمت من سذاجتي وإني مسوي روحي «بزنس مان ، وتوسع عالمي، يا حلاوة حلي. تفشلت والله فشيلة صرت بعدها ما أقدر أناقشه بأي موضوع تجاري لمدة سنوات بعد هذي الحادثة والتي كان يحلو له عندما يريد أن يمازحني بكلمة «توسع عالمي...» هههههه. لم أستطع تناول شيئاً من الطعام وكان المطعم الإيطالي مطعماً راقياً ويتجول بين الزبائن موسيقي إيطالي يعزف على آلة الأكورديون للزبائن، وهي الآلة التي تُحمل فوق الصدر ويسحبها العازف للخارج بكلتا يديه ثم يعيد يديه للداخل بتماوج فتصدر ألحاناً جميلة، لكنني لم أكن رائقاً له وعندما اقترب مني وأخذ يدق فوق رأسي زجرته وقلت: «إذا لم تبتعد عني سوف أحشرك داخل آلتك المزعجة.» فهرب لأبعد منضدة مني وجلاً من هذا الإعرابي الجلف الذي لا يقدر قيمة الموسيقى. ذهبت من فوري لسامح حنا من دون أن آكل شيئاً، وحييته بتحية ما قبل الإسلام، تحية الجاهلية الأولى، وقلت له: «عمت مساء يا هازا!!! أأنت رجل مسلم أم نصراني والعياذ بالله؟ أجبني في الحال أيها النكبة.» قال: «مسيحي يا عم فيها حاجة؟» قلت: «لا على عيني وراسي، بس كيف تقول إن اسمك سامح محمد؟» رد قائلاً: «ما عمريش قلت لك اسمي سامح محمد، أنا بأقولك «سامح حنا ، وأنت تسمعها محمد يبقى المشكلة في وذنيك.» ...» طيب، كيف تقول «اللهم إني صائم في رمضان؟» قال: «لا... ذي الجملة بالذات بقى، متعلمها منكم يا مسلمين... وهي حلوة ومعبرة، وإلاّ إيه رأيك يا هندسة...» فأجبته: «عداك العيب والله يا واد يا سامح يا بن حنا

Twitter: @ketab_n

المعمداني، يا بتاع التلات ورقات أنا الغلطان، والله زين ما عرفتك على أخوي السلفي وقدمتك له على أنك مشروع مجاهد محتمل الذين نحسبهم كذلك والله حسيبهم.» لكن صداقتي مع سامح الطيب استمرت وكأن شيئاً لم يكن بالرغم من أنه نصاب فقد أحسست أنه لما يتعرف على سعودي أو خليجي جديد يلحن في القول عندما يعرف بنفسه فيجعل اسم سامح حنا أقرب لمحمد، فهو يلحس بعض الحروف كما يلحس الفلوس التي يسرقها.

الفندق اشتراه شخص لبناني بـ ٧٥٠ ألفاً وباعه بعد عام ١٩٩٨ بـ١٢ مليون جنيه ولا أعلم سعره الآن، ولكن قد يصل ١٨ مليون جنيه، وهذا عنوانه لمن يريد أن «يغوغله»، أي يبحث عنه في «غوغل»:

park-lodge-london.eurobookings.com

Twitter: @ketab_n

تأبط نقداً

اسمه «تأبط نقداً»، استقبلته في مطار هيثرو بتوصية من أخي الكبير في السعودية، وكان يبدو عليه الذكاء الشديد والفهلوة، وبالرغم من أنه لا يحمل الجنسية السعودية في تلك الأيام، كان معه كما أخبرني بطاقة هوية الخطوط السعودية استخدمها للحصول على خصم في فندق «انتركونتنتال» في «البارك لين». فكنّا لاحقاً ولمدة أسبوعين نجلس في بهو الفندق فترة الظهيرة مع بعض الأصدقاء من المغرب وتعزف لنا امرأة انجليزية على البيانو أغنية «أهواك وأتمنى لو أنساك»، ونحن نتناول المرطبات والمكسرات التي تغير كل خمس دقائق. وجلسات جميلة نتجاذب بها أطراف الحديث ونحدق في المارة في «الهايدبارك»، أو في شارع «الباركلين»، وكان رجلاً كريماً كما أذكر، وبالرغم من طريقة الخصم التي استخدمها في الفندق إلاّ أنه كان ينفق بكرم حاتمي، لكن في بعض الأحيان عندما أقول له هيا نتمشى في «البارك لين»، يخرج معي وبعد مدة بسيطة يقول لي يجب أن لا نمشي كثيراً فأنا أخاف على حذائي تراه غالي، أخاف عليه من كثرة المشي!!! كان حذاؤه مصنوعاً من جلد النعام. تعجبت من بعض تصرفاته المتناقضة، ولكن لتتعجبون أكثر مني أتعلمون ماذا أصبح هذا الشخص بعد نحو عشر سنوات من تلك المقابلة، لقد حصل على الجنسية السعودية، بمساعدة منا، وهو يعلم ذلك لو قرأ هذه المذكرات، وأصبح من أغنياء العرب بسرعة صاروخية تدور حولها علامات استفهام كبيرة جداً. وتطورت العلاقة معه مع الأيام والسنوات وأصبحنا بعد ذلك مثل الأخوان أو أكثر. لكن للأسف كانت له عادة غريبة وبشعة، فقد كان

Twitter: @ketab_n

يضحي كل سنة بأحد من أعز أصدقائه المقربين، بل إنه عندما يبطش يبطش جباراً ويلاحق الناس حتى في لقمة عيشهم ليتأكد من انتقامه منهم وأنه لن تقوم لهم قائمة. يعز أصدقاؤه في البداية كثيراً، وبعضهم كما رأيت وعاشرت لاحقاً اغتنى من ورائه وكان يلبس الساعات الألماس ويركب سيارات الفيراري والبنتلي في شوارع لندن ومقاهي «نايتسبردج». لكنه حين غضب عليهم، هوى بهم إلى قاع الأرض، أحدهم فلسطيني كان من أقرب الناس إليه يركب الطائرات الخاصة، ويعيش عيشة الملوك، لما غضب عليه أتى يوماً يبحث عن سلفه ليشتري دفاتر وشنط المدرسة لأبنائه. من حبه لنا أنا وأخي الكبير، أنه في أحد الأيام كنا قادمين إلى لندن واستقبلتنا مندوبة عن إحدى شركاته داخل الصالة الخاصة، وفي الخارج مرسيدس ليموزين سترتش، وسكنا في عمارته الوثيرة في ٧٤ «بارك لين»، وأجرة الشقة في اليوم الواحد أربعة آلاف جنيه. وفر لنا بطاقات ائتمان لم نكن بحاجة إليها، ولكن أتت لنا كهدية مقابل خدمات تعد بالملايين له، صرفنا منها حتى وصلت مئات الألوف، قد يسأل أحد وهل يعقل أن بطاقة تصل مئات الألوف، نعم لأنه هو من يأمر بفتح السقف الائتماني لها. وعندما حانت ساعة الصفر وبدأت الحالة السادية تتوجه نحونا قام بشكوانا للحقوق المدنية للدفع أو السجن. تفاجأت لما رأيت الاستدعاء من الشرطة وذهبت إليهم لعله خطأ من أحد الموظفين وأن «تأبط نقداً»، لا يمكنه عمل ذلك، لكن تأكدت أنه الشكوى منه شخصياً ورأيت تعنت الضابط في شرطة الظهران، وكأنه يريد أن يدخلني السجن، وقال بالحرف الواحد: «تدفع الآن أو السجن!» قلت له: «هل هذا حكم نهائي منك من أول لقاء، الدفع أو السجن؟» قال: «نعم.» فسألته: «هل تعتقد أني قادم ومعي مبلغ بمئات الألوف؟» رد: «هذه مشكلتك يا عمي.» عندها أيقنت أن أنفلونزا «تأبط نقداً»، قد ألمت بنا، وعرفت أنه بدأ بشراء الذمم كما رأيت من قبل ليتمتع بمنظرنا خلف القضبان أو ليذلنا، فانتفضت أمام الضابط وقلت بأعلى صوتي له: «إذا كان «تأبط نقداً ، اشتراك بأمواله، فهو لن يشتري نايف بن عبد العزيز، والله لأخرج من هنا وأتجه إلى الرياض مباشرة لنايف

Twitter: @ketab_n

بن عبد العزيز، وأقول له، ما سمعت منك وأنا أتهمك الآن لحماسك ومحاولتك إدخالي السجن من دون وجه حق، وأتحداك وأتحدى من خلفك أن تدخلني السجن الآن.» تفاجأ الضابط من ردة فعلي الصاخبة خصوصاً أنني انفجرت غضباً أمام المراجعين الذين غصت حلوقهم من طريقتي في تأديب ذلك المتخاذل، فخرجت لمدير شرطة الظهران ولم يقل لي الضابط شيئاً، وكان مدير الشرطة الذي اتجهت إليه على ما أذكر هو المقدم الزهراني. وكنت في بادئ الأمر أعتقد أنه سيكون شريكاً له، لأنني أعرف «تأبط نقداً»، وألاعيبه، فأحببت أن أتأكد بنفسي. لكنني عندما تناقشت معه لم يكن يعلم المسكين شيئاً وهدأ من روعي وقال: «أنت عليك قضية مالية اعتيادية ولك الحق في التعامل كما يفرضه القانون، واذهب واحضر المبلغ براحتك.»خرجت من شرطة الظهران وكانت تلك الأيام لا توجد جوالات بل بياجر، ومن عنده بيجر فقد كان يعد من علية القوم الذين يُشار إليهم بذي بيجر، أو بأبي بيجر، ويقال تبيجر الرجل، أي أنه حصل أخيراً على بيجر، أما قولك تبيجرت المرأة، فهذ يدل على أنها بِنتُ عز وغنى وذات حسب ونسب. المهم ما لكم بالطويلة، أصبحت تأتيني عشرات المكالمات على البيجر كالسيل لا يتوقف، أرقام تبدأ من الدمام والظهران والخبر، وعند اتصالي بها عرفت أنهم من أذناب «تأبط نقداً»، (عليه من الله ما يستحق، قصدي الله يسامحه) فهو لم يتوقع ردة فعلي العنيفة، ويطلبون مني حل الموضوع بشكل ودّي. الآن ودي يا حبي. أحيه... أحيه يا ودي... خفت من نايف يا بابا، غصب عنك تخاف من عمك، تحسبني مثل ربعك إلي خسفت فيهم، أنا «أخو نورة»، يا حبيب ماما وبابا. بعد كذا رحت لقصره عشان أقابله، وأقوله إنه مهو معاي الغبي يتصرف كذا، قبل ما أعرف أسرارك، أو فضايحك، ماني ضعيف تخوفني بالشرطة، لأن الحرامي إلي يخاف مهو الشريف. عند باب قصره، أتى رجال الأمن وقاموا بمحاولة تفتيشي، يحسبون أني أحمل سلاحاً. قلت لهم أنا ما عندي سلاح أنا ماني مجنون أضيع عمري مقابل حثالة، أنا بدخل له بثوبي وهو يعرفني أنا بقابله إذا فيه ذرة رجولة. والحقيقة أنه لم يقابلني إلى

Twitter: @ketab_n

الآن منذ العام ١٩٩٦. بل أنه لوضاعته وكّل مدعياً ضدي شخصاً من قبيلتي في الشرطة لتشويه سمعتي عند قبيلتي، ولكن ابن قبيلتي ماذا تحسبونه قد فعل، عقد معي اتفاقاً بصفته الوكيل عن «تأبط نقداً»، على أن أدفع سبعمائة ريال حتى ينقضي المبلغ يعني انتظر يا حبيبي حوالي ٢٥ سنة.

والمحظوظ من اتعظ بغيره، فلو تعلمون أن «تأبط نقداً»، يعيش أسوأ لحظات عمره ولم تنفعه أمواله شيئاً، بل إن فضيحته أصبحت بجلاجل وعلى لسان كل الناس. لكن لكي أكون منصفاً فإن للرجل تبرعات كثيرة في المجالات الخيرية والعلاج ومساعدة المحتاجين وبناء المساجد، لكنه مبتلي بمرض متأصل فيه وهو السادية وقد وقع في شر أعماله. مرة أخرى وللعيش الذي بيننا ولأنني بطبعي متسامح أتمنى من الله أن يفك كربتك ويعيد لك راحة البال، وأعلم بأن الحياة حق للجميع ولا يجب أن تصادر حرية أحد لأن عندك الأموال. تذكر عندما كنا نسير معاً في لندن في الـ«بارك لين» وفي «ريجنت ستريت»، عندما كنا نريد أن نشتري سرجاً للخيل في السعودية وطلب صاحب المحل أن تجرّب السرج بنفسك على الخيل الدمية فركبت بالمقلوب، ثم خرجنا خجلين نضحك مثل المساطيل على غبائنا، وكلماتك التي لن أنساها، «مسوّين روحنا عيال نعمة وحنا عيال فقر». ألا تذكر رحلتنا إلى «ألتون تاورز» مع شركة «نيفرتيتي» وصاحبها المصري العجوز الطيّب، لما دعوتك لتلك الرحلة الجميلة وكنت تقول طوال الوقت، «الله، الله، على الطبيعة، هذي الينة (الينة تقصد أن تقول الجنة)، مانت مصدق روحك من جمال الريف الانجليزي. تذكر كذلك الأوقات الجميلة لما كنا نروح نسهر في نادي «سترنق فلو» عندما رأيت الممثلة المشهورة Joan Collins، بطلة مسلسلDynasty، أيام الثمانينات، وبغيت تجيب فينا العيد، لو ما فكيناك من «البادي جارد». ليتها تعود تلك الأيام مع بساطتها ونرجع نسافر ونجلس في بهو فندق «انتركونتنتال» نشرب الشاي الإنجليزي بعد الظهيرة مع البسكويت الحلو والمالح ونسمع أغنية «أهواك وأتمنى لو أنساك» ونرمي وسخ الدنيا خلفنا.

Twitter: @ketab_n

عمر الشقي بقي

في إحدى الليالي الجميلة، كنت عائداً من زيارة أخي سيراً على الأقدام من شارع هارلي ستريت متجهاً إلى شقتنا في شارع «الكوينز واي»، حيث يبعد المستشفى عن السكن نحو ستة كيلومترات وكنت أقطع المسافة في أقل من ٣٥ دقيقة من السير الحثيث، وفي أحيان كثيرة كنت أستقل الباص اللندني الأحمر العتيق رقم ٢٣ أو رقم ٢٢ أو رقم ٧، المتجه نحو الغرب باتجاه السكن، وإن كنت مستعجلاً فأركب «الأندرجراوند» من «أكسفورد سيركس» واستخدم «السنترال لاين» ذا اللون الأحمر نحو محطة «ماربل آرش» ومن ثم محطة «لانكستر جيت» وأتوقف عند غايتي في محطة «الكوينزواي». وشبكة قطارات «الأندرجراوند» (قطارات تسير تحت الأرض) هي الأقدم على مستوى العالم، إذا استثنينا نفق الدمام بالطبع والذي يقال أنه دخل موسوعة جنيس للأرقام القياسية في مدة بنائه والله المستعان. ويعود تاريخ إنشاء «الأندرجراوند» إلى عام ١٨٦٣م، ومجموع طول الشبكة يصل ٤١٥ كم. وأهم المحطات الرئيسية هي محطة «تشارينغ كروس» (Charing Cross)، ومحطة «أوستون» (Euston)، ومحطة «كنغس كروس» (King's Cross) ومحطة «ليفربول ستريت» (Liverpool Street)، ومحطة «بادينغتون» (Paddington)، ومحطة «سانت بانكراس» (St. Pancras)، ومحطة «فيكتوريا» (Victoria) ومحطة «واترلو» (Waterloo) ومحطة «لندن بريدج» (LondonBridge).

في تلك الليلة كنت قد عزمت الأمر على ركوب «الأندرجراوند» نظراً لبرودة الجو وكانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف مساءً، سرت

Twitter: @ketab_n

حتى بوابة محطة «أكسفورد سيركس»، ولكن قبل الدخول إلى المحطة غيرت رأيي في آخر لحظة عند العتبة بالضبط، وقلت لنفسي سأسير على قدماي ما دمت أرتدي ملابس شتوية مناسبة كي أعرج بطريقي إلى «ادجورورود»، ومن ثم أقرّر هل أركب الباص أم أكمل السير على قدميّ من هناك. كنت برغم صغر سني أسير لوحدي في الليل وأحب أن أسلك الشوارع الجانبية المعتمة في طريق الذهاب أو العودة إلى المستشفى وأمرّ بجوار البارات والنوادي الليلية الخلفية والمواخير الخطرة ولم أفكر يوماً بأن ذلك ليس من الحكمة بشيء من ناحية الأمان، لم أشعر ولو مرة واحدة بالخوف من المكان الذي أنا فيه طوال فترة تواجدي في لندن، إلاّ في مرة زرت فيها منزل المغني الراحل «بوب مارلي»، وسأقص لكم حكايتها لاحقاً. والشجاعة هذه أو الجرأة لم أكتسبها من مدينة الدمام الوادعة، بل اكتسبتها من نشأتي المبكرة في مدينة الطائف، فقد كنا نسكن في حارة اسمها الريان وكان منزلنا مقابل المقبرة تماماً، والتي كنا نلهو حولها في الليل ونتحدى بعضنا في الطرق على جدارها الطيني والاختفاء بين القبور أثناء اللعب، وأهل الطائف شجعان بطبعهم، وإن لم تكن ذئباً بينهم أكلتك الأسود هناك. كنت وكان غيري والذين لم تتجاوز أعمارهم الثالثة عشرة في الطائف نحمل السكاكين في طيّات ملابسنا طوال الوقت، وإن غلبت الروم نحمل مفكات البراغي. أذكر أحد المواقف الطريفة عندما كنا صغاراً في السن لم تكن البقالات تبيع الخبز كما هو حاصل الآن، بل يوجد «تماس»، أي خباز في بعض الحارات يتجه له الناس في الصباح والمساء، أما وقت الظهيرة فالعادة تعمل ربة البيت الخبز الخاص بالمنزل. كان «التماس واسمه العم حاتم اليماني»، يعمل في الحارة المقابلة لحارتنا وتسمى حارة الجودة، وهم قبيلة كاملة وكريمة تسكن في حي واحد، وإذا تعاركوا مع أحد يخرج الرجال والنساء والأطفال عن بكرة أبيهم وتشتعل المعركة ويحمى الوطيس فويل لمن كان الضحية، قد تحسبوني أبالغ في نقل الصورة، لكن والله هذا ما كان يحدث في تلك الأيام وقد لحقت على الكثير من تلك المعارك الضارية واشتركت في اثنتين منها على ما أذكر. كنا

Twitter: @ketab_n

عندما نريد شراء الخبز من حارة الجودة نذهب معاً مع مجموعة من شباب الريان ومعنا المفكات والسكاكين وجنازير السايكل ونشتري الخبز بكل حذر، وعادة يكون وقت شراء الخبز هدنة بين جميع الأطراف وتتوقف أعمال القصف ويقل خرق الهدنة إلاّ ما ندر، ولم يفرض علينا حصار اقتصادي في أي لحظة من قبل قبيلة الجودة لظروف إنسانية على ما يبدو. في يوم من الأيام كان معي أخي الأصغر مني سناً، وهو الآن تاجر كبير جداً في أمريكا يحصد ملايين الدولارات من عمله في مجال الإنشاءات في ولاية كولورادو وتعدّت ثروته ثروة أبي في وقت قياسي، كنا عائدين متأخرين بعض الشيء صباح الجمعة فلاحظ أخي وجود بعض أطفال الجودة مندسين خلف إحدى السيارات فصاح بأعلى صوته «كميين»، فعدونا إلى المنطقة الخضراء لننفد بجلودنا حتى أن ظلنا سبقنا من سرعة العدو، وأنا أرفع سروالي من الخلف لأني ضعيف جداً وأخي يرفع سرواله من الأمام لأنه بدين بعض الشيء، وعندما وصلنا لحدود المنطقة الآمنة شاهدنا المرحوم «غازي العشي»، فسقط على ظهره من الضحك علينا وفضحنا في الحارة أمام أصدقائنا وقال: «كان واحد يرفع سرواله من قدام والثاني من ورا ومرعوبين وهم يجرون.» «غازي العشي»، توفي لاحقاً في حادثة قصر أفراح الطائف الشهير الذي سقط على النساء عندما دخل لإنقاذ الأطفال والنساء وبعد أن أنقذ أكثر من عشرين نفساً سقط عليه الجدار وتوفي رحمه الله. كذلك أذكر مرة، تعاركت مع واحد اسمه «القرص»، مشهور بالقوة والشجاعة والغباء في الوقت نفسه، وهو من عائلة الحربي في حارة الريان، وهنالك أكثر من عائلة نسبها الحربي في حارتنا، جميعهم يتحدثون اللهجة المصرية، أزيّك، أخبار الحجة ايه، يا راجل، وإذا قعدت عندهم ساعة أو ساعتين وجيت ماشي يقولون لك «ما تشرب الشاي، الشاي ع النار (والنبي) ع النار.» يعني كلام مصري مية في المية، بس أصلهم سعودي وهم عاشوا في مصر أيام العدم وعادوا للسعودية أيام الملك سعود. القرص هذا لم جيت أتخانق معاه طلعت المفك من جيبي ويازعط كنت، ناوي أضربه على كتفه، قسماً بالله يا جماعة الخير مسك

Twitter: @ketab_n

المفك وبيد واحدة من غير ما يستخدم اليد الثانية كسر المفك بين أصابعه وقالي وش رأيك الحين يا أبو ندم؟! والحمد لله قبل ما يهبدني بيده الأخرى إلي مثل الصبة طلع أبوه من بيتهم وقال: «تعال يا حمار يا ابن الحمار عامل راجل على عيل صغير ادخل قوى البيت يا ابن الك...». القرص هذا لم يهجده حد ويكسر عينه سوى ابن عمه عبد المنعم، إلي كان عنده سيارة كورولا غريبة صفراء تفحط من الكفرات الأمامية عكس جميع السيارات وفي البيبان الداخلية يعلق صور جميع الممثلات من فاتن حمامة وسميرة توفيق والهام يونس وشريفة فاضل.

وفي لندن لم أتعرض لمحاولة سرقة أو اعتداء رغم طيشي في السير في الأماكن الخلفية من الشوارع طوال السنة ونصف السنة سوى مرة واحدة، فقد كنت قادماً من عند صديق في شارع اسمه «موسكوس رود»، يتفرع من عند محل البيتزا إلي في «الكوينـز واي»، مقابل «ماكدونالد» الآن (كان «برجر كينج» في السابق). كنت أسير في الاتجاه المعاكس لماكدونالد، وخارج البار كان يقف شاب إنجليزي أصلع الرأس وأبهص الوجه وأطول مني بقليل وعليه صحة ما شاء الله تبارك الله، سلّم عليَّ بلقافة وقال: «وين رايح؟» رددت عليه السلام وقلت: «مهو شغلك وين رايح.» وعلى طول تحولت نظرته نحو جيب بنطلوني إلي فيه المحفظة، وقال: «تعطيني فلوس وإلاّ ما خليك تمشي من هنا، فلوسك أو حياتك!!!» وبدون مقدمات أعطيته لكمة في وجهه بدل المحفظة وجيت بعطيه لكمة أخرى قبل أن أهرب من المكان أو يأتيه المدد من داخل البار، لكنه ترنح بسبب الضربة وبسبب إنه سكران طينة، وحطيت رجلي وما وقفت إلاّ لما وصلت عند أنوار المطاعم في «الكوينـز واي».

أعود لكم لحكاية «الأندرجراوند» في تلك الليلة، فللّه الحمد لم أركبه وأكملت طريقي سيراً وأخذت عشاء من مطعم يوناني وأتذكر وجبة العشاء إلى الآن واسمها «كلفتكو». في اليوم التالي قرأت صحيفة «الاستندارد»، ويا للمفاجئة، فقد اشتعل حريق كبير ليلة البارحة في محطة «الأندرجراوند» في أكسفورد ستريت في الساعة التاسعة والنصف، وهو

Twitter: @ketab_n

الوقت نفسه الذي كنت أنوي فيه ركوب «الأندرجراوند» فيه ومات في تلك الحادثة المأساوية عشرة أشخاص، وكان سبب الحريق هو عقب سيجارة أحد الركاب كما بيّنت التحقيقات اللاحقة، لذلك منع في تلك السنة التدخين في القطارات الأرضية بسبب تلك الحادثة. وحمدت الله أني لم أذهب تلك الليلة في القطار وإلاّ من بيكتب لكم المذكرات.

Twitter: @ketab_n

صور وذكريات

كلما قلبت ألبوم الصور يزداد حنيني لتلك الأيام الصافيات، فلدي مئات من الصور التي التقطتها داخل الحدائق الجميلة الغنية بالورود والأزهار بكل ألوان الطيف، وأجملها الصور التي التقطتها أثناء رحلات مدرسة اللغة مع أقراني الطلاب من جميع أنحاء العالم. بعضهم من فرنسا وإيطاليا وسويسرا ومن أمريكا الجنوبية وعرب وكل الملل والنحل. صورنا جميعها بلا استثناء تعلوها الابتسامة وتتجلى فيها السعادة بوضوح، لم أجد صورة واحدة فيها تكشيرة أو عبوس كبقية الصور الأخرى التي التقطها لأصحابي هنا في السعودية، حتى لو كانت في حفل زفاف لا تفرقها عن صور العزاء. في أحد الأيام درسنا قصة عن «روبن هود»، وهو شخصية إنجليزية تمثل فارساً شجاعاً طائشاً وخارجاً عن القانون، عاش في العصور الوسطى وكانت لديه براعة في رمي السهام، يعيش في الغابات ومهنته سلب وسرقة الأغنياء وإطعام الفقراء. فقررنا بعدها التخييم لمدة أسبوع خلال عطلة عيد الـ«إيستر» (الفصح) في غابة نوتينغهام وهي المنطقة التي كان يختبئ فيها «روبن هود» في العصور الوسطى. في تلك الرحلة فقط عرفت حقاً معنى الحياة الجميلة، كنا نسهر ليلاً حول النيران المشتعلة نشدو بأجمل الأغاني ونرقص ونشوي ما لذّ وطاب من الطعام، وعندما نخلد إلى النوم ننظر كالأطفال إلى السماء الصافية والنجوم تتلألأ والقمر مرسوم بعناية إلهية، ومن حولنا في أعلى الروابي أنوار خافتة تنبعث من الأكواخ العتيقة بمداخنها التي تبعث نحونا رائحة الحطب المشتعل. ننام نوماً لذيذاً بينما الهواء المنعش يدغدغ أحلامنا، ثم نصحو فجراً على صوت البلابل والكروان وطيور الورور، فنجلب الماء القراح من نهر «ترنت» الرقراق لنعمل قهوة الصباح على الجمر فتكون ألذّ فنجان قهوة لو

Twitter: @ketab_n

ذاق طعمه الملوك لجالدونا عليه بالسيوف. وعندما يجهز الجميع نقوم بزيارة بعض مخابئ «روبن هود» التي درسناها سابقاً ونكتب بعض الملاحظات ومن ثم نقارنها بما لدينا من مواد دراسية.

أما صور المتاحف التي قمت بزيارتها سوءاً مع المدرسة أم وحيداً فهي كثيرة، فلندن مدينة غنية بالمتاحف أجملها المتحف البريطاني وهو أكبر متحف في بريطانيا، وأحد أهم المتاحف في تاريخ وثقافة البشر، ويعتبر أقدم المتاحف في العالم وتأسس عام ١٧٥٣ واعتمد في البداية على مجموعات العالم الفيزيائي السير «هانز سلون»، ويحتوي على أكثر من ١٣ مليون قطعـــة من جميع القارات. كذلك المتحف الوطنيNational Gallery، الموجود في ساحة الطرف الأغر، ويسميها العرب ساحة الحمام، وللأسف ترى العرب يجلسون الساعات الطوال يطعمون الحمام ويلهون حول النوافير ولا يعلمون أصلاً أنهم أمام أجمل المتاحف العالمية. فهذا المتحف فيه أكثر من ألفين وثلاثمئة من اللوحات التي يرجع تاريخها من منتصف القرن الثالث عشر إلى العام ١٩٠٠. إحدى اللوحات العالقة في ذاكرتي لحفلة شاي ما بعد الظهيرة، وهو تقليد بريطاني عريق تناول الشاي فيما بين الثالثة عصراً والخامسة، ويقدم الشاي مع البسكويت وقطع الكعك وسندويتشات الجبن أو الدجاج. كانت الصورة تعود إلى عصر النهضة، أي القرن السادس عشر، وهي لوحة جدارية طولها نحو ستة أمتار وارتفاعها متران، مرسومة في «الهايدبارك»، عند البحيرة الإيطالية، وشخصياتها كن الكثير من الأميرات اللائي يرتدين اللباس الإنجليزي التقليدي الضيق عند الخصر وينفرج بشدة حول الردفين ويزداد كلما اقترب من الأقدام بسبب استخدام أقفاص داخل بطانة الفساتين تشكل أجساد الحسناوات، وقبعات مزخرفة ويحملن عصياً قصيرة كعصا راعي الأغنام. وخلف الأميرات بعض الرقيق من شمال أفريقيا أو من الهند بلباسهم التقليدي، وتجر الأميرات كلاباً صغيرة جميلة بسلاسل مذهبة. بينما ينظر للأميرات بشوق الفرسان الأمراء من أمراء اسكتلندا وويلز وانجلترا. الصورة تحكي من دون كلام مدى رفاهية الطبقة الارستقراطية والتقليد الانجليزي العريق، والطريقة الإنجليزية القديمة في تعارف الأمراء والأميرات بغرض الزواج، والترف المادي في تلك الأيام، ولو تركت القلم لشرح ما تقوله تلك اللوحة لما اكتفيت بمائة صفحة.

Twitter: @ketab_n

أما متحف «مدام تيسو»، ويعرف عند العرب بمتحف الشمع فهو من أشهر متاحف الشمع في العالم، وأسسته «مدام تيسو» عـام ١٧٦١ والتي توفي والدها قبل أن تولد، فرعاها طبيب اسمه «كورتيس» حيث كانت أمها تعمل لديه كأجيرة. فعلمها فن صناعة الشمع فأتقنته حتى أنشئت معرضها الخاص، وهو يحتوي على تماثيل للشخصيات العالمية البارزة في جميع المجالات. كان هنالك تمثال للملك فيصل، رحمة الله، في العام ١٩٨٤، ولكنه أزيل ولا أعرف ما هو السبب، أما تمثال هتلر فلشدة كره الانجليز له وضع في مخرج الطوارئ تحت الدرج وكأنه زائد عن الحاجة.

إحدى الصور التقطتها فجراً من نافذة شقتنا في ٤١ رالف كورت، وكان أحد أيام ديسمبر القارصة البرودة، عندما ذهبت إلى النوم بعد أن أشعلت المدفأة، وتركت الستارة مشرعة لأرقب جمال السماء ولأنظر إلى نافذة «جاكو» التي لا زالت مضيئة. لم أستمر طويلاً حتى غططت في نوم عميق أحلم أني عدت إلى السعودية وأنا في حوض العراوي أجربع «أطارد الجرابيع»، في النعيرية والبرد الربيعي يلفح وجهي ويكاد يخترق عظمي، لكن من شدة البرودة صحوت فجأة فأدركت أني كنت أحلم، بيد أن البرد القارص جعل برودة جسمي مثل برودة دجاج الأخوين. فكرت بأن المدفأة قد تكون توقفت عن العمل، ولكنني لاحظت أن الغرفة شبه مضيئة بالرغم من أن الصبح لم يحن بعد، اتجهت نحو النافذة فوجدت الشارع وقد امتلأ بالرمال التي غطت السيارات المتوقفة وواجهات المنازل. تشوش ذهني بخاصة مع حلمي وأني كنت في براري النعيرية، فتساءلت، من أين إذن أتت هذه الرمال، لا، لا، إنها ليست رمالاً، إنها الثلوج يا نديم، اصحى يا عمي، يا الله أول مرة في حياتي أرى الثلوج حقيقية أمامي، وهذا الضوء الساطع الذي أضاء الغرفة ما هو إلاّ انعكاس ضوء أنوار الشارع على ندف الثلج البيضاء. وفي صباح الغد الباكر خرجت واشتريت حذاء خاصاً بالثلوج، وذهبت إلى الحديقة المجاورة لمنزلي، حديقة «كنجنستون» وبدأنا نلعب مع من عرفنا ومن لم نعرف. نتقاذف بالثلج حتى مع رجال الشرطة، وصنعنا رجلاً من الثلج، ووضعنا له أنفاً من جزر، وطاقية مزركشة واسكارف أحمر. وعندما توغلت داخل الحديقة اكتشفت أن جميع البحيرات في «الهايدبارك»، تحولت إلى ثلج يمكن السير فوقه، حتى نهر

Twitter: @ketab_n

«السربنتاين» تحول إلى ثلج وكانت هنالك لوحة تقول إن الغرامة تصل إلى مئتي باوند لمن يحاول أن يمشي فوقه نظراً لخطورة انكسار الثلج ووقوع الناس داخل البحيرة. وهذه بعض الصور القديمة.

هذه الصورة التقطها من شباك شقتنا في «كوينـز واي»، عندما استيقظت من شدة البرودة ونظرت إلى الخارج وحسبت لأول وهلة أن الرمال زحفت من «الهاف مون»، فغطت شوارع لندن. الصورة تظهر نهاية شارع «الكوينـزواي» والمحل الذي على يمين الصورة وفوقه مظلة، هو محل بيع الفاكهة للعائلة اليهودية التي أخبرتكم عنها، مدرستي تقع باتجاه اليمين، بعد المحل مباشرة. أما القبة التي تظهر في آخر الصورة فهي لسوق «الوايت ليز» الذي كان مغلقاً في تلك الفترة وأفتتح بعد ست سنوات من التقاط الصورة ـ لاحظوا السيارات العتيقة التي كان الإنجليز يستخدمونها في تلك الأيام. في نهاية الصورة، بعد حوالي ثمانمئة متر تبدأ حديقة «كنجنستون بارك» وقصر الأميرة الراحلة ديانا.

Twitter: @ketab_n

فريق كرة قدم مكون من خليط من كل الجنسيات، ويوجد في الصورة شيبة عرعر، وهو صاحب فندق «كلوستر ترس»، بجوار فندق «لانكستر جيت» الشهير، الذي نظم مسابقة ملكة جمال العرب لأكثر من مرة في لندن. يجب أن تبحثوا عن نديم في الصورة بأنفسكم.

من اليسار، أبي، الأستاذ عابد رحمه الله... الولد الشقي نديم

Twitter: @ketab_n

النافورة الإيطالية في «الهايدبارك» خلال فصل الربيع

سور «الهايدبارك»

Twitter: @ketab_n

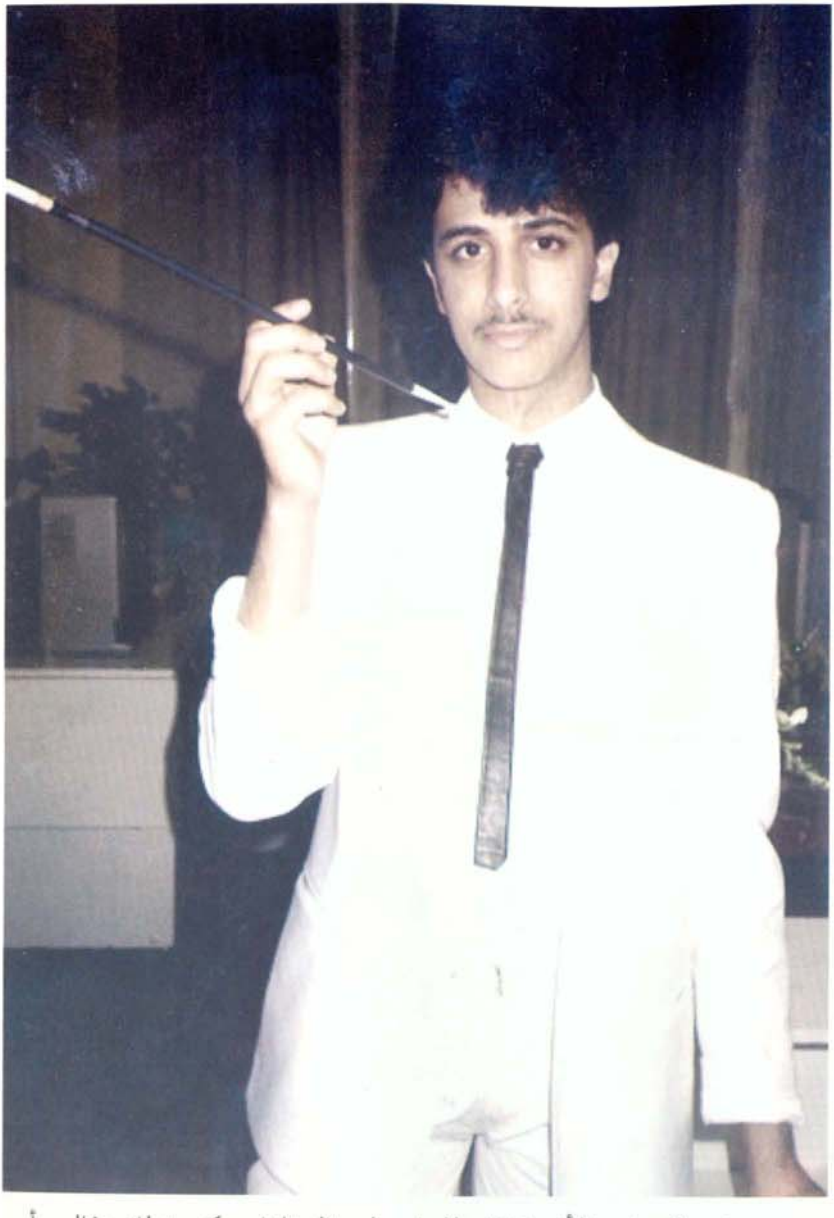

وضع اللمسات الأخيرة قبل الذهاب إلى «الترفلغار سكوير» للاحتفال برأس السنة الميلادية وتوديع العام ١٩٨٤ واستقبال العام ١٩٨٥، لم يكن يدر في خلدي بأننا سنقضي بقية تلك الليلة في قسم شرطة «بادينجتون» بسبب صاحبي الأرعن علي ولي إلي شات رجل البوليس شلوت. ملحوظة أنا ما أدخن ولله الحمد، بس هذي السيجارة لزوم ما لا يلزم.

Twitter: @ketab_n

أندرجراوند السنترال لاين الذي احترق لاحقاً

Twitter: @ketab_n

هذه الصورة المأساوية أخذت لي ثاني يوم وصلت لندن، وتبدو يدي المكسورة، كنت أتدرب لعبة التايكواندو في نادي الاتفاق، ولعبنا مباراة مع القادسية، عندما كسر يدي لاعب القادسية عادل الحواج. تبدو في الصورة ملابسي الي ابتعتها من سوق الخميس بالقطيف.

رحلة مدرسية للطلاب المسلمين بمناسبة عيد الأضحى لحديقة «ريتشموندز بارك»

Twitter: @ketab_n

مرزوق العتيبي مرافق الأستاذ عابد هو الأول جلوساً من اليمين

باص لندن الأحمر العتيق رقم ٢٣، وأنا أقفز داخله من أمام ملهى «الكيت كات»، في شارع «البايزووتر» أمام حديقة «كنجنستون» المتفرع من شارع «الكوينـز واي»، في هذا الباص ضاع المفتاح.

Twitter: @ketab_n

نهاية فصل الخريف وبداية الشتاء في «الهايدبارك»

رجل البوليس الإنجليزي الكلاسيكي، ويبدو طوله الفارع بالرغم من أن طولي ١٧٤ سم.

Twitter: @ketab_n

بعض شباب البانكس، موضة منتصف السبعينات وحتى نهاية الثمانينات الميلادية، الآن اختفوا من شوارع لندن بالمرة

بحيرة السربنتاين بعد ذوبان الثلج، وأذكر أني لبست في ذلك اليوم البارد جداً نحو خمس بلايزرات وثلاثة قمصان وبنطلونين وست شراريب وساعتين

Twitter: @ketab_n

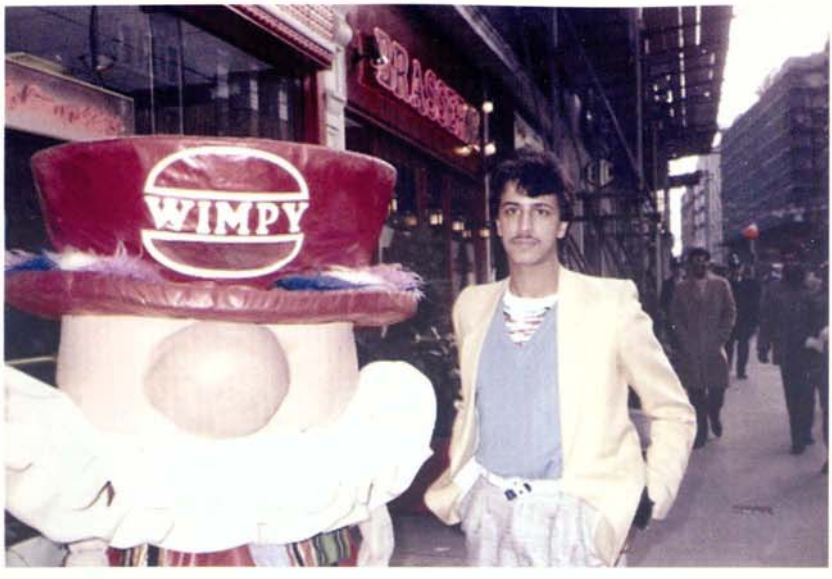

مطعم ويمبي في «الكوينـز واي»، اختفى الآن وأصبح محله «برجر كينج»

البطاقة القديمة التي كانت تستخدم للـ«أندر جراوند» وباصات لندن الحمراء، لاحظوا أن سعرها كان ٤,٧٠ باوند فقط لمدة أسبوع كامل، وتنتهي البطاقة في يوم الخميس ٣ يناير ١٩٨٥. الآن سعر البطاقة ليوم واحد فقط حوالي ٧ باوندات وتغطي المنطقة رقم واحد والمنطقة رقم أثنين... والله زمان يا لندن زمان.

Twitter: @ketab_n

من أجمل الأشياء أثناء التنزه في حدائق لندن هو إطعام الطيور التي لا تخشى الاقتراب من الإنسان. لاحظوا يا جماعة بدلة آخر موديل تصميم «فالنتينو» من «سلفردجز» وجزمه من سوق واقف في القطيف، يا حلاوة الظاهر أنا أول واحد طبق نظرية التجارة البينية العادلة Fair Trading.

لحظات جميلة وأنا أطعم الحمام في بداية صيف ١٩٨٥

Twitter: @ketab_n

نديم في لحظة استرخاء في «الهايدبارك»

Twitter: @ketab_n

المتحف الوطني National Gallery، في منطقة الترفلغار سكوير، ساحة الحمام.

يا ترى أين أصدقاء المدرسة الآن؟؟

Twitter: @ketab_n

سهرة في الهيبدروم

في أحد الأيام الشتوية وأنا أتناول حبات الكستناء التي كانت تشوى فوق عربات منتشرة بكثرة في تلك الأيام خصوصاً أيام الشتاء في «البيكاديلي سيركس»، وهي عربات شبيهة بعربات الذرة في مصر وجدة، «البيكاديلي» منطقة مهمة في لندن وتقع في وسطها تماماً وتربط أهم الشوارع بعضها البعض، مثل «ريجينت ستريت» المليء بالمحال الراقية والمفضلة لدى الملكة إليزابيث الثانية في التسوق، وشارع «البيكاديلي» العريق المليء بالفنادق الفخمة والمطاعم الراقية، ومنطقة «الويسد اند» الشهيرة بمتاجرها العتيقة من القرن الثامن عشر، و«ليستر سكوير» الغنية بالمسارح ودور السينما والأوبرا، ومنطقة «سوهو» المليئة بالمواخير والنوادي الليلية، لمحت أثناء ذلك شخصاً أعرفه حق المعرفة اسمه «وسيم مذاكر»، وهو يعمل أجيراً لدى عائلة راقية تمتلك الشركة السعودية للدفاتر والتسويق ومجموعة شركات «تحت السواهي دواهي» المتخصصة ببيع الماركات العالمية من الملابس، وهو مسؤول عن الشركة في إحدى مناطق المملكة. الولد بدأ العمل من الصفر في بزنس تلك العائلة وكان يذكر لنا أول ما بدأ العمل أنه قام بمرافقة العمال لتوزيع الدفاتر على مدن إحدى المناطق وفي عز الحر من دون مكيف لمدة ثلاثة أشهر، ينام في المقاهي أو المساجد، حتى أثبت وجوده فأصبح المدير العام بعد سنة واحدة فقط. أما العائلة التي كان يعمل لديها أجيراً فقد أسسها في الأصل صحفيان درجة ثالثة أو رابعة، أحدهما كان أكبر همومه هو متابعة أخبار الفنانة شريهان أيام عزها أو كتابة شعر ركيك مهلهل، مثل «حبيبتي أحببتها وحبتني، ولما حبتني قلت لها هيا إلى المأذون يا حبيبتي»، لو صنفت شعره لجنة نوبل

Twitter: @ketab_n

للمصالة والسخافة لاستحق الجائزة الأولى عن جدارة!!! لكنهما كانا من ناحية أخرى أصحاب بزنس مبدعين لأقصى درجة، بعد أن كانا قبلها من المعارضين في أيام الملك فيصل رحمه الله وذهبا للعيش في لبنان، وبعد مدة عندما رجعت الأمور لمجاريها، قام كمال أدهم مدير الاستخبارات السعودية بتوظيفهم وفتح لهم دفتر «وجه-ووجه» في لندن بمائة مليون دولار ليكون بوقاً سعودياً حديثاً يعمل على النفط ليخرس جميع الأبواق التي كانت تعمل على الفحم الحجري، وهو ما حصل بالفعل. سلمت على وسيم وقلت: «نورت لندن والله.» فأخبرني بكل زهو أنه قادم من البرتغال بعد أن دشنوا أكبر مصنع في العالم لتعليب السردين لصالح الشركة الأم، وهو في إجازة هنا لمدة أسبوع. رحبت به ورافقني إلى الشقة وتناولنا الغداء سوياً، وفي الليل قال: «نريد أن نذهب ونغيّر جو باقي لي خمسة أيام فقط في لندن.» قلت: «حلو، الليلة «ويك أند» سأتحدث مع «جاكو» صديقتنا اللبنانية الأنيقة.» وأبدت موافقتها بعد أن عرفت من هو الضيف، وأن شركة ماكس مارا في السعودية تتبع جزءاً من الشركة العملاقة التي يعمل بها أجيراً، كما دعوت صديقاً آخر اسمه مسفر ولد الوادي وخطيبته المغربية. تقابلنا في محطة «البيكاديلي سيركس» في الساعة العاشرة مساء واتجهنا نحو ملهى «هيبودروم» في الركن المواجه لمحطة «لسترسكوير»، والمكان مصمم مثل ملاعب كرة اليد أو الطائرة المغلقة، أي أنه مكون من دورين حيث يمكن لمرتاديه الجلوس في كلا الدورين. دخلنا «الهيبدروم» وتحلقنا حول المنضدة الأنيقة وطلبنا سندوتشات وعصائر بينما لم يطلب وسيم شيئاً، ومن وقت لآخر كنا نتجول في أرجاء الملهى وفي تلك الأيام كان المكان مليئاً بالـ«بانكس» وهم حركة شبابية ظهرت في بداية السبعينات تمثل الشباب الثائر على كل التقاليد وخصوصاً المتعلقة بالمظهر، فترى وجوههم وقد لطخت بالألوان البراقة والمخيفة وقصات شعورهم كسنام الديناصور ولا يهتمون بالنظافة الشخصية البتّة، وقد اندثرت هذه الحركة مع نهاية الثمانينات الميلادية، كنا نقوم بالتصوير معهم والحديث كفضول منا لمعرفة كيف يفكرون ولماذا يلبسون هكذا، وعندما رآها أحد أصحابي في السعودية لاحقاً، لم يستسغهم وقال: «هؤلاء هم حطب جهنم، معه

Twitter: @ketab_n

حق.» رجعنا لمنضدة الطعام ولم نجد أثراً للطعام ولا للعصير فطلبنا المزيد ظناً منّا بأنه قد تناولها بعض المساطيل هنا أو بعض الـ«بانكس»، بالرغم من أن الـ«بانكس» أناس مسالمون. بعد مدة أخبرتني جاكو بشيء غريب وقالت: «دخلك هيدا وسيم مدير كبير زي ما خبرتني.» أجبتها: «نعم وبكل تأكيد.» قالت: «بي يشبه عم يزط أكلنا ويشفط العصير شفط.» قلت: «مش معقول يا «جاكو» تظلمين الرجال.» قالت: «تعا وشوف بعينيك.» قطعاً لم أصدق ما سمعت لمعرفتي بمن يكون وسيم، لكن «جاكو» وضعت خطة محكمة لكي أرى بأم عيني، نزلنا إلى الدور الأرضي والذي توجد فيه منضدتنا وطلبنا أشهى المأكولات والعصائر مرة أخرى وآخر مرة، ولم نأكل أو نشرب سوى القليل منها، وابتعدنا ونحن بين ضحك وحنق عليه للدور الثاني وبدأنا عملية المراقبة عن كثب، بقينا في الأعلى للحظات، مسفر ولد الوادي يرقب من الميمنة وخطيبته المغربية في الميسرة، بينما وقفت «جاكو» ترقب في المقدمة وأنا أحمي المؤخرة، وشاهدنا وسيماً متلبساً وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال قبل أن ينقض كجارح على فريسته ليأتي بزمن قياسي على جميع السندوتشات وشفط العصائر، ولم يبق لنا سوى قطمير هنا أو قطمير هناك، لا ينفع حتى لذر الرماد في العيون. تأكدنا الآن أن وسيم يستحق العقاب لأنه إنسان مستلطخ من قلب والذي أغاظني أكثر أنه ولد نعمة، لكن ماذا أعمل الآن وقد خذلني أمام أصحابي وأمام «جاكو» بالذات. قال مسفر: «لدي الحل ولا يهمك من النصاب هذا.» قلت: «هات ما هو.» قال: «أنا سوف أؤدب صاحبك المستلطخ بس عطني محفظتك.» قلت: «ليه محفظتي.» قال: «بقلك بعدين أنت تستحي بس أنا ما بستحي منه.» أعطيته المحفظة وبعدين فتشني لقي بعض الباوندات فأخذها. أنهينا الحفل بسرعة واقترح مسفر أن نذهب إلى مطعم فخر الدين الراقي لتناول عشاء فاخر وليس سندوتشات لا تسمن ولا تغني من جوع، وافق الجميع وكان أكثر المتحمسين وسيم، لأنه رأى عرضاً مغرياً جديداً وهو بالتأكيد مجاني حسبما اعتقد. وصلنا إلى فخر الدين في «البيكاديلي ستريت» ومن زبائنه أكبر أمراء وشيوخ الخليج، وطلبنا مقبلات مما لذّ وطاب، كبة نية لأول مرة أتذوقها في حياتي

Twitter: @ketab_n

واستمريت عليها حتى الآن في المحال الراقية فقط لأنها لا تُؤكل في المحال غير النظيفة، وطلبنا جميع أنواع المشاوي، المحمر والمشمر، التي تكفي لعشرة أشخاص وحلوى وغيرها ولم نأكل نصف الطعام الذي طلبناه. عند الحساب قال لي مسفر ولد الوادي: «نديم هل يوجد لديك مال لدفع الحساب؟» عندها عرفت مغزى مسفر من أخذ محفظتي حتى لا أشعر بالحرج وأضطر للدفع. قلت: «والله ليس في جيبي بنس واحد.» قال: «يا للخسارة، حتى أنا لم يبق لدي شيء، لقد صرفت جميع ما لدي في «الهيبدروم.» نظرت إلى وسيم الذي أصبح يفحط فوق كرسيه ويتململ وأخذ يشرب الماء وكأنه يتجرع السم، بعد أن عرف المقلب المرتب بدقة من مسفر، وأخرج بيده التي ترتجف رجف المكينة من جيبه بطاقة أمريكان إكسبريس ذهبية تلمع لمعاناً شديداً، لأنها والله العالم لم تُستخدم أبداً. وعندما سحبت البطاقة على الجهاز أصيب جسمه بقشعريرة شديدة وضحكنا عليه حتى الثمالة. عندما عدنا في التاكسي نحو سكن مسفر كنا نغني ونرقص في التاكسي أغنية محمد عبده، «إبعاد كنتم ولا ولا قريبين المراد إنكم دايم دايم سالمين»، ووسيم «ضارب بوز» لا يشاركنا الأفراح وفي وادٍ آخر تماماً. وعندما توقف التاكسي كان الحساب ستة جنيهات، وقال لنا وسيم الزعلان: «يا الله يا نديم ويا مسفر كل واحد ٢ جنيه عشان ندفع «ستة باوند» للتاكسي.» ضحكنا وقلنا: «يا حبيبي قلنا لك ما عندنا فلوس... فلوس ماكو... بيسه نهي، أنت ما في معلوم كلام... إيش فيه صديق.» قال: «يا حبيبي خلاص المقلب وأكلتوني إياه، ودفعت أضعاف مضاعفة عن الأكل إلي أكلته في الهيبدروم، من الحين ورايح الحساب يكون فيفتي فيفتي.» انفجرنا من الضحك عندما اعترف بكل وقاحة وقلت لمسفر و«جاكو»: «يا عمي هذا ولد جدة ما تضحك عليه ببساطة، عطيني محفظتي يا مسفر.»

Twitter: @ketab_n

فتى النسيم يتسول في لندن

من كثرة جلساتي مع سامح حنا في فندق «بارك لودج»، تعرّفت على شاب سعودي يدرس في «برايتون» وكان قادماً ليقضي إجازة أسبوعين في لندن وسكن أول يوم في الفندق، وبعد أن توطدت معرفتي به انتقل للسكن معي في الشقة توفيراً للمال وكسبته كصديق جديد فال الدنيا ويحب أن يتمتع بمباهج الحياة، كان أخي المريض قد أدخل المستشفى للتنويم في تلك الفترة. اسم الشخص هذا هو فتى النسيم، تجتمع فيه الكثير من المفارقات، فهو مرة إعرابي أحمق في تصرفاته، وفي بعض الأحيان إنسان سريع البديهة ويعرف من أين تؤكل الكتف والرقبة. وبالرغم من بداوته الداخلية المتأصلة فهو حليق الذقن والشنب وإيطالي الملبس والمظهر إذا حافظ على فمه مغلق، لا يستقر في مكانه كأنه بندول ساعة يتحرك ذات اليمين وذات الشمال ولديه سيارة إنجليزية عتيقة ماركة «كلاسيك أوستين» يوجد في جانبها الأيسر الخلفي فتحة صدئة، أكد لي بجدية أنه يسكن داخلها فأر وحرمه المصون، وليس لديهما أطفال، فهما مصابان بداء العقم بحسب كلامه. وموديل السيارة يعود إلى الستينات الميلادية، وهي مليئة بالمخالفات المرورية، لن أبالغ إذا قلت إن لديه أكثر من ثمانمئة كرت مخالفة مرورية، وكان يحتفظ بالمخالفات في شنطة سيارته الخلفية كذكريات. فهذه المخالفة يتذكرها بحنين وشوق منقطع النظير عندما حصل عليها يوم أوصل صديقه العزيز إلى المطار وأوقف سيارته في المواقف المخصصة لسيارات الأجرة، والأخرى عندما وقف فوق فتحة «المان هول»، «غطاء البالوعة»، بعد أن أزاح من حولها المثلثات التحذيرية،

Twitter: @ketab_n

وقف فوقها وكان يشتغل أحد الإنجليز تعيسي الحظ داخلها، وسرعان ما حصل على مخالفة ولحق على سيارته قبل أن تأتي «السطحة»، لسحب سيارته وإنقاذ الإنجليزي من داخل الحفرة. عندما رأيت كمية المخالفات في شنطة سيارته هالني كثرتها وكنت اعتقدت أنها كوبونات مسابقة شهر رمضان. بعد أن عرفته أكثر، أدركت أنه ليس سوى «دبوس دولي»، متنكر بهيئة طالب وهو لا يدرس ولا يعمل ولا يهتم بالقوانين ولا المخالفات، أهم شيء عنده هو السهر والضحك وشرب الذي منه، وفي الليل أضطر للسياقة بدلاً منه، فهو لا يستطيع القيادة في الليل. ذكر لي في يوم من الأيام أثناء تجاذبنا أطراف الحديث أن لديه محلاً يسمى «تسجيلات النسيم»، على ما أعتقد في شارع الأربعين، بحي النسيم. في أحد الأيام وأثناء تجوالنا بالقرب من «تروكاديرو»، وهو محل يوجد في «البيكاديلي»، ويحبه المراهقون من العرب لوجود الألعاب الإلكترونية والبلياردو وسيارات التصادم وغيرها، ويوجد فيه مركز غينيس للقياسات العالمية، دخل فتى النسيم على محل شاورما مصري مقابل «التروكاديرو» وسأل هل يوجد لديك طعام بخمسين بنساً فقط. نظر إليه العامل المصري متعجباً من هذا العربي المفلس الذي يشحذ الطعام وأعطاه سندوتش شاورما مجاناً وفلافل وبيتزا وعلبة بيبسي. استأت من طريقته في الطلب، وقلتله: «يا أخي ليش تشحذ منه بهذي الطريقة، أنت ما عندك فلوس؟ قلي ولا تفشلنا قدام الرجال يحسبنا الحين شحاذين.» لذلك لما عدنا إلى المنزل طلب مني سلفة يمشّي بها حاله حتى نهاية الشهر، وكنت ذيك الأيام من كثر الفلوس أخفيها في المخزن تحت بطانية نوم عتيقة غير إلي في البنك والي يجيبه أبوي وأخوي الكبير لما يزورنا كل شهر من السعودية. وعادة إخفاء الفلوس تحت البلاطة وفي الحمام، وتحت السيفون ومثلي في المخزن، عادة سعودية وخليجية قديمة وتعتبر ماركة مسجلة في الأزمان الغابرة أثناء السفر، لعلها فوبيا السرقة التي يحذرون منها بعضهم بعضاً قبل الشروع في السفر، فهم يسمعون دوماً بأن الأجانب يسرقون الكحل من العين. كان السعوديون وبخاصة حديثي العهد بالسفر عادة يخفون أموالهم المنقولة

Twitter: @ketab_n

داخل الشراريب، بل إن بعضهم يتمنى لو أنه كان يمشي على أربع لكي يكون لديه مساحة تخزين أكبر. وعندما يحاسبون يضطرون للركوع وفتح الشراريب والتي تكون عادة من النوع الرديء والرخيص وإخراج القدر المطلوب من الفلوس. آخر مرة رأيت سعودياً يخفي الأموال في «حوافره»، قصدي في رجليه كانت في مصر، وهو شخص من سامطه، حشر عشرة آلاف جنيه مصري دفعة واحدة في شراريبه وكان لونها غريباً مثل لون العصفر، لا أعلم هل هو زيادة في التمويه مثل ما يفعل المحاربون في الغابات أم أن هذا هو اللون المتوفر في سامطه وأحد المسارحة. الأخ كان رابطاً الشراريب بسلك مقوى بالبلاستيك، مثل السلك الذي يلف فيه كيس الخبز اللبناني. وهو يمشي وعيناه لا تبتعدان عن كعبيه، فكثيراً ما يصطدم بالمارة، ويقول للرجل، «آسف يا «مزموزيل»»، يحسب «مزموزيل» تستخدم للرجال والنساء. لن استرسل، أخرجت ألف جنيه من تحت البطانية وأعطيتها إلى فتى النسيم، ثم صحوت من النوم في اليوم التالي ولم أجد أثراً لفتى النسيم، كأنه «فص ملح وذاب». بحثت عنه في فندق سامح حنا، ولم أجده وبعد مدة أدركت أنه نصب عليّ وطار بالألف باوند ومن المستحيل أن أجد له أثراً بعد ذلك، فلم أكن أعرف عنوانه ولست متأكداً إن كان الاسم الذي عرف به نفسه صحيحاً أم لا. بيد أني لم أستسلم وقررت أن أصل إليه مهما طال الزمن، وأصبحت أتردد على فندق «بارك لودج»، أكثر من العادة لأنني قرأت مرة في إحدى قصص «تشرلوك هولمز» واسمها (مغامرة المشكلة الأخيرة)، أنه لا بد للمجرم ومهما كانت ظروف الجريمة أن يعود لسبب أو لآخر لمكان الجريمة. و«تشرلوك هولمز» يا أخوة يا كرام يعد من أعرق وأشهر محققي البوليس والتحري في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ولديه أسلوب رائع في فك الأحجيات البوليسية أذهلت القراء عندما قدم أول رواية له في العام ١٨٧٨، واشتهر بمهارته الشديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا. وقد ألف أربع روايات، وستاً وخمسين قصة قصيرة، ولمن أراد أن يزور بيته الذي انطلقت منه جميع الروايات والقصص المشوقة، فهو

Twitter: @ketab_n

على بعد عشر دقائق من «ادجورورود»، إن كنتم فاعلين، والعنوان هو المنـزل رقـم ٢٢١ ب، بيكر ستريت بالقرب من المركز الإسلامي.

ولكن للأسف لم تفلح كل خطط «تشرلوك هولمز» في القبض على فتى النسيم، وكيف تفلح الخطط ولم يفلح بوليس لندن ولا الاسكتولانديارد أن يلقي القبض عليه وفي رقبته أكثر من ٨٠٠ مخالفة مرورية. لكن لأن فكرة القبض عليه واسترجاع أموالي كانت بالنسبة لي مسألة مبدأ، استطعت أن أتغلب حتى على «تشرلوك هولمز» في الكشف عن موقع المجرم وتتبعه بطريقتي الأكثر تعقيداً وحبكة. فقد اقتفيت أثر فتى النسيم ولاحقته خلف البحار والبراري والقفار وقطعت قارة أوربا وأفريقيا وآسيا حتى أصل إليه في حي النسيم في الرياض. وقصة المطاردة المعقدة بدأت عندما عدنا إلى السعودية لانقضاء فترة العلاج، وبعد سنتين تقريباً من وقوع حادثة النصب، حيث كنت في زيارة خاصة لمدينة الرياض بسيارتي السيلكا موديل ٨٦، فتذكرت خيطاً موسيقياً، أقصد خيطاً رفيعاً سيدلني حتماً على المطلوب فتى النسيم، ألا وهو تسجيلات النسيم، نعم تسجيلات النسيم التي أخبرني عنها سابقاً وقال إنها تخصه!قد تكون زلة لسان منه أوصلتني إليه بعد سنتين. اعتصرت ذاكرتي الضعيفة لأقصى حد وتذكرت أن المحل يقع في شارع الأربعين في حي النسيم. وصلت إلى الموقع بعد أن سألت كماً هائلاً من الملاقيف كلما سألت شخصاً معيناً أجابني بالوقت نفسه سبعة أشخاص فلا أدري لمن أستمع. المهم وصلت إلى «الوك»، أقصد التسجيلات ووجدت بائعاً يمني الجنسية فسألته عن فتى النسيم، وأشار بسبابته نحو رجل يختلف تماماً عن فتى النسيم يضع شماغاً برتقالي اللون على كتفه الأيسر وطاقية زري عتيقة بالية الخيوط ومنتفة وله شنب يقف عليه القنفذ ويعتمر ثوباً كويتياً أصفر مغبر. اقتربت منه وعرفني بسرعة عكسي أنا، وفغر فمه بابتسامة بلهاء، والله لم أعرفه إلاّ من أسنانه البنية اللون بسبب أن بطنه قد انتفخ منذ صغره بشرب مياه الآبار الصحراوية المليئة بكمية عالية من الكلور ولم تنفع بعدها مياه إيفيان أو تلميع الأسنان في عيادات لندن لجعلها بيضاء كأسنان خلق الله. رحب بي فتى الوادي أيما

Twitter: @ketab_n

ترحيب و«أوجب لي»، يعني ذبح لي خروفاً للي لغته تمشّي الحال. حتى أني خجلت أن أفتح معاه موضوع الفلوس، لكنني استجمعت قوتي، وكلمة تستحي منها بدها، وسألته: «وين الفلوس يا فتى النسيم يا نصاب ليه هربت ثاني يوم من غير توديع ولا أحم ولا دستور، والله لو قلت لي ما أقدر أردهم كان سامحتك وأعطيتك زود بعد.» قال: «نعم الفلوس في ذمتي والحمد لله إنك وصلت لي عشان تحللني، بس لازم قبل ما أردهم لك نسأل كم وصل سعر صرف الجنيه الإسترليني عشان تأخذ حقك كاملاً، يمكن نزل سعر الصرف.» قلت: «يا عمي كان سعر الصرف ٤,٣ ضرب ألف يعني أبي منك الله لا يهينك الحين ٤٣٠٠ ريال.» قال: «لا، لازم نسال البنك أول شيء.» رحنا بنك الراجحي القريب من محل التسجيلات، وسألنا عن سعر الصرف وطلع السعر ٦,٢ يعني ٦٢٠٠، وبكذا ربحت منه ألفي ريال دفعها عن يد وهو صاغر بعد أن حاول العودة للسعر الأصلي، ولكن أخذت منه المبلغ وقلت له: «يا حبيبي هذي أتعاب إدارية.»

Twitter: @ketab_n

ساعة سميرة توفيق

أتيت مبكراً في أحد الأيام لزيارة أخي، وعندما توسطت بهو الدور الأرضي لمحت الفنانة سميرة توفيق جالسة وحيدة فوق أريكة خضراء بجوار النافذة، الأمر الذي جعلني أغيّر وجهتي نحوها مباشرة، فبدت لي امرأة جميلة وجذابة كما عهدتها منذ صغري. كانت سميرة في ذلك اليوم ريانة العود بشكل يضفي عليها نوعاً من الفخامة والوجاهة الملوكية، وترتدي فستاناً خلاباً زادها أنوثة وروعة أساسه أبيض ومحلى بصور لأوراق شجر برتقالية وصفراء اللون وأخرى وردية جذابة وحذاء بكعب متوسط مفصل على نفس لون الفستان. لن أتحدث عن نحرها ولا رقبتها لكي لا أقع في المحظور، بل أكتفي بوجهها الوضاح وحبة الخال الشهيرة وشعرها الأسود المنسدل كسواد الليل على عاتقها العريض، أما كحلها البدوي الذي يزين عينيها الفاتنة، فأجزم أن ألف إنجليزي قد بصق على زوجته البهصاء عندما رآها في ذلك اليوم. أكمام فستانها كانت قصيرة فبدت يداها المكتنزتان جميلتان تأسران الألباب خصوصاً عند النظر إلى معصمها الذي تزينه ساعة برّاقة تكاد تغوص في ذراعها الريان. حييتها وقلت لها: «سلامات يا ست الكل أنت تزورين أحداً هنا أم تراجعين المستشفى؟» ردت بابتسامة مفعمة بالأنوثة وممزوجة بعطف الأمومة: «الله يسلمك، بعيد عنك «معدتي» تعبانة بعض الشيء، صار لي شي شهر ما بوكل إلاّ طعام مهروس، وبعمل فحوص هون والشفا من عند ربنا.» قلت: «سلامات والله، بس بصراحة يا ست الكل إلي يشوفك يقول الناس كلهم عليلين وأنت الوحيدة الصحيحة.» قالت: «شايف كيف، أنا بخبي آلامي

Twitter: @ketab_n

داخلي.» ضحكنا معاً ولم أتمالك نفسي وسألتها لما رأيت بساطتها وانفتاحها في الحديث: «أش الذوق الراقي يا ست سميرة!!! ساعتك جميلة كثير.» ردت: «مقدمة والله (بلهجتنا يعني تأمر عليها، أو تفداك) هي الساعة شريتها من هارودز في الأمس فقط، أنت أول واحد تعجبه مرسيه ها ذوقك.» قلت: «أكيد عليك بتطلع حلوة، القالب غالب يا ست الكل.» كانت الساعة مرصعة بالألماس واسمها BOUCHERON، ولم ألبث أن ودعتها بعد أن تمنيت لها الشفاء وصعدت نحو غرفة أخي.

عند المساء وأنا أسهر مع «جاكو» في «الكوفنت جاردن» أتحدث معها عن سميرة توفيق وعن ساعتها الجميلة في الليلة نفسها، فتحمست «جاكو» للذهاب إلى «هارودز» في اليوم التالي والسؤال عن الساعة BOUCHERON، وفعلاً ركبنا منذ صباح اليوم التالي عند الضحى «الأندرجراوند» من محطة «البيزووتر» وتوقفنا عند محطة هاي ستريت كنجنستون التي تبعد نحو خمسمئة متر عن «هارودز»، وبحثنا عن الساعة حتى وجدناها في شباك أحد البوتيكات داخل المتجر العريق. دلفنا للمحل ورحب بنا البائع الأنيق ترحيباً ملوكياً، يحسبنا المسكين من زبائنه المترفين. سألناه عن الساعة فأجلسنا على مقاعد وثيرة وطلب لنا قهوة وكعكاً لذيذاً وأحضر مخدة سوداء جميلة مخملية بلون القط الشيرازي ولبس قفازات من حرير «لزوم النصب الراقي»، ونحن ننظر بعضنا إلى بعض بزهو و«ضابطين» دور أولاد الأكابر، ثم أتى بالساعة ووضعها بعناية فوق المخدة التي لو نمت عليها من طراوتها لما استفقت بعد مئة عام. بعد ذلك أضاء أربعة أنوار صغيرة موجهة نحو الساعة، وطفق يشرح لنا نحو ربع ساعة عن عدد الألماسات المطعمة بها الساعة ومن صممها وكم من الوقت استغرقت صناعتها ومن هم أبوها وجدها وقبيلتها، ونحن نشرب القهوة بكل ثقة وهدوء، ولم يبدُ علينا الاستعجال أو أننا تورطنا بالسؤال، ثم أخبرنا بالمفاجأة الكبرى وهو سعر الساعة وكان ٧٧ ألف جنيه إسترليني فقط لا غير، يعني أكثر من ٣٣٠ ألف ريال سعودي بسعر تلك الأيام، الآن بالتأكيد السعر أعلى بكثير. «زطينا» آخر قطعة من الكعك اللذيذ وأخبرناه

Twitter: @ketab_n

بأننا سوف نفكر في الأمر «ونكلم دادي... أوه... ياه دادي»، ثم نعود له قريباً جداً وأعطيناه أرقام هواتف المستشفى، لأنها أول أرقام بدت لي عندما طلب المعلومات الخاصة بنا للاتصال بنا للتأكد مما سنقرره لاحقاً عندما نشاور داددي، هيهيهيه يا دادي إلي بيدفع ٣٣٠ ألف في ساعة ونص والحسابة بتحسب. «تبقى قابلنا يا حبيبي، أنا لاقي أحلق عشان أشتري ساعة بـ ٣٣٠ ألف ريال. بس والله تستاهلين أكثر يا سميرة توفيق ومثل ها الساعة ما صنعت إلاّ للناس إلي مثلك إلي يستاهلون كل غالي ونفيس.

Twitter: @ketab_n

بريصة الأصفهاني والأمير تركي الثاني

كان أخي عندما يدخل المستشفى ينوّم في الطابق الثالث في الغرفة الخاصة رقم ٣٣٣، وهذا الطابق مخصص للمرضى الفي آي بي، واستمر تنويم أخي أحد المرات لمدة ستة أشهر متواصلة، وكانت فاتورة المستشفى لوحدها خمسمئة ألف جنيه إسترليني دفعها جميعاً الأمير سلطان بن عبد العزيز رحمه الله، وجعلها شفيعاً له يوم القيامة. و«هارلي ستريت» عبارة عن شارع يقع في وسط لندن خلف محال «دبنهامز» في «أكسفورد ستريت» ويمتد حتى شارع «بيكر ستريت» بالقرب من متحف الشمع من الجهة المقابلة، وتشير السجلات التاريخية أنه في العام ١٨٦٠، قبل نحو مئة عام من إنشاء «وزارة الصحة البريطانية إن إتش إس» كان يوجد في الشارع نحو عشرين عيادة طبية، والآن وصل عدد الذين يعملون في المجال الطبي في الشارع نحو ثلاثة آلاف شخص. في تلك الأيام كان الشارع مليئاً بالعرب المحولين للعلاج فترى الكثير من المشاهير العرب وغيرهم من المرضى البسطاء الذين يتلقون العلاج في عيادات الشارع الشهيرة. كان اسم الطبيب الذي يشرف على علاج أخي الدكتور «جولدمان»، بريطاني الجنسية ويهودي الديانة ويعد أحد أفضل ثلاثة أطباء في العالم في علاج مرض اللوكيميا. أما الممرضات اللائي يعملن في المستشفى فهن من أطيب وأرق ممرضات عرفتهن في حياتي في طريقة تعاملهن الإنساني مع المرضى، فهن يغدقن الحنان على المريض ويؤدين عملهن باحترافية عالية. أما بالنسبة إلى الميزانية التي كنا نتمتع بها أثناء فترة العلاج في المستشفى فقد كانت مفتوحة على مصراعيها، لدرجة أننا كنا نطلب بجانب العلاج المكلف، ألذّ

Twitter: @ketab_n

أنواع الطعام من مطاعم لندن الشهيرة الإيطالية واللبنانية والفرنسية والصينية وكله على كله، بس أهم شيء نطلب عن طريق المستشفى عشان تسدد الفواتير، كما لم ننس أن نحلي بعد كل وجبة طعام دسمة بالآيس كريم أو الكيك أو الحلويات اللندنية المترفة وجلها تجلب لنا من «سلفردجز» لأنها حذفة حصى من المستشفى، وكله من خير الله ثم خير أبو خالد الله يرحمه يا رب. لذا رجعت حليمة إلى عادتها القديمة فازدادت حركة رجل الزوار إلى المستشفى لزيارة أخي، فلم نفرق بين اللوعى على حالته من الجوعى، فاتفقت مع العاملين في المستشفى على عدم تقديم أكثر من الشاي للزوار حتى لو طلبنا أمامهم غير ذلك.

في المستشفى كانت هنالك ممرضة دبدوبة جميلة لونها وردي ووجها طفولي بريء وخدودها حمراء قانية، حبوبة تتكلم بصوت خافت جداً لا يكاد يسمع واسمها «دبي» سبحان الله دبة واسمها دبي، دبي بكسر الداء والباء وليس بضمها أحسن شيء بسميها «ديبي» عشان لا تتلخبطون مع مدينة دبي. مع مرور الأيام ومن طيبتها أصبحنا نتعامل وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات عديدة، وصرت أحب أن أمازحها وأخبل فيها وأجننها فأمسك خديها وأشدهما بقسوة، مثل ما عمل حسين الجسمي مع حليمة بولند، لكي أزيد من حمار خديها، كأني ألعب في باربي. كانت تستلطفني كثيراً وتحب بدورها مشاكستي طوال الوقت، وعندما أزور أخي، وبالرغم من أنه متشدد دينياً، إلاّ أنه من طيبتها وقبولها لدى كل من عاشرها، كان يخبرني ويقول: «ترى ديبي تسأل عنك من الصبح!!! شفها في غرفة الممرضات أزعجتني كل شوي داقه الباب علي.» كنت أجلب لها معي الكثير من الهدايا والكاكاو الذي تحبه كثيراً من «هارودز» خصوصاً كاكاو اسمه Mozart-Herz'l. أمام غرفة أخي توجد صالة منيفة تتوفر فيها العديد من المقاعد الوثيرة، وعندما ينام أخي أجلس فيها طويلاً حتى لا أزعجه وأقوم بقراءة بعض الكتب أو استقبل بعض ضيوفه في الخارج وأصرفهم بعدما يشربون كأس الشاي فقط لا غير. في أحد الأيام أخبرتني «ديبي» أن أحد الأمراء السعوديين سوف يتم تنويمه في الغرفة المقابلة لنا وأنهم

Twitter: @ketab_n

سيصلون الساعة الثانية ظهراً. دخلت في ذلك اليوم على أخي وجلست معه بعض الوقت ثم رجعت إلى الصالة الخارجية وانتظرت الضيف العزيز الذي سيكون جارنا في المستشفى لمدة أسبوعين قادمين، وبعد لحظات سمعت واحد يقول WHATS ... WHATS WHATS UP ... WHATS UP، ظرت إلى مصدر الصوت وإذا بي أرى رجلاً صعلوكاً رأسه ممغوط للأعلى ودقيق من الأسفل ويتشكل مثل حبة الفول من الأعلى، لكنني عندما ركزت على ما يقول، أدركت أنه لم يكن يقول تلك الكلمة الانجليزية بل كان يقول، «وسع، وسع» يعني «درب، درب»، أي أفسحوا الطريق، ويا للجهالة، كان يوجه كلامه للممرضات الانجليزيات اللائي في الطريق لكي يفسحن الطريق لسمو الأمير الذي كان يمشي الهوينى خلفه، وبدا لي أنه طويل القامة وفي نهاية الأربعينات من عمره وسيم ومصفف شعره بعناية ويرتدي بدلة أنيقة بنيّة اللون وكرفته من نوع البوبيون التي تربط كورده في أعلى القميص ويرافقه نحو ثلاثة أشخاص وسرعان ما دلفوا إلى داخل الغرفة المقابلة لنا. جلست بعد ذلك وأنا أقرأ كتاباً «لعبد الله القصيمي» أظن اسمه «العرب ظاهرة صوتية»، واضعاً قدمي اليمنى على اليسرى ومسترخياً آخر استرخاء انتظاراً لما ستحبل به الأيام من مفاجآت من ضيفنا العزيز القادم لتوه. وفجأة خرج الشخص نفسه صاحب «وسع، وسع» ودنا مني إلى أن وقف فوق رأسي وتفرس بي لبعض الوقت ثم حول نظراته الخائبة نحو الكتاب الذي أقرأه، وتفرست فيه بدوري فبدا لي لون بشرته كلون البرص (يسمى الوزغ أو أم صالح، حسب التساهيل)، ومليء بالنمش كنمل يمشي على وجه، وحدقتا عينيه قريبتان من وسط أنفه لتزيدانه دمامة على دمامة، أما شعره فأحمر ومجعد كسلك غسيل الصحون. ومن دون مقدمات ولا تحيّات، قال: «نزل رجلك الأمير جاي.» لم أرد عليه واحتراماً للأمير غيرت من جلستي وعكستها فوضعت اليسرى فوق اليمنى في الاتجاه الآخر، ثم عاد وقال لي: «نزل رجلك التانية، ما ينفعش كدا.» ثم أضاف بتمادٍ: «بلاش الكتاب ده دي الوقت.» وكان حديثه أثناء خروج الأمير الذي جلس قبالتي في المقاعد الموجودة خارج غرفته. عند هذا الحد

Twitter: @ketab_n

قلت له: «يا محترم، ممكن تحل عن سماي...» الصراحة قلت له كلمة ما أقدر أكتبها الآن، عشان كذا من هول المفاجأة فتح فمه بابتسامة يائسة وكأني أعطيته كفاً على قفاه، وسبحان الله، عندما فتح فمه كان أشبه بحمار يستعد للنهيق، ففي البداية فتح فمه فظهرت أسنانه الأمامية المطعجة، ثم ازداد فمه اتساعاً ليتحفني بصورة نواجذه وضحك بصوت متقطع أقرب للنهيق. فرميت الكتاب جانباً ودفعته من منكبه واتجهت لسمو الأمير تركي وحييته وتحمدت على سلامة أحد أفراد أسرته المنوم في المستشفى. كان سموه لطيفاً للغاية وبادلني السؤال عني وماذا أفعل هنا، فحكيت له الأخبار بالتفصيل، وسأل إن كنت في حاجة لشيء فشكرته على لطفه. بريصة الأصفهاني، وهذا اسمه، كان يراقب حديثنا بقلق وحذر وهو يتلون مثل الحرباء، كلما نظرت إليه رأيت شكله يختلف عن النظرة الأولى، ثم انضم إلينا في الحديث وكنت قد وصلت للحديث مع سموه عندما سجلت في الكلية العسكرية بالرياض، وكيف أني لم أتمّم دراستي بالكلية حتى أرافق أخي، فشاركنا بالموضوع، وقال: «الحمدلله إنك ما سجلت في العسكرية اصلو أنا لما كنت في الكلية الحربية في مصر كنت في التمارين بنط من فوق النار، وأزحف من تحت الرصاص، وأنزل بالحبال من الدور العاشر في ثانية، والطلاب بقى كلهم يغمى عليه من التعب، إلاّ أنا، دا وزير الحربية كان بيقولي، «بس يا بريصة، بس يا بريصة صحتك يا عسكري ، وأنا أقوله، «سيب يا وزير، سيب يا وزير دنا حكمل المشوار لحد ما أصل سينا .» نظرت إلى سمو الأمير ورأيته يضحك من كل قلبه على الأراجوز بريصة وعرفت الآن وظيفة بريصة بالضبط، فهو لم يعدُ سوى أراجوز لتوسيع صدر سموه.

في يوم لاحق كنت أزور المريض الذي كان مع سمو الأمير وعندما نويت الخروج أعطاني سموه رسالة فيها ظرف مغلق لا تحمل أي عنوان، فكرت أنه يريدني إرسالها بطريقي بالبريد، فتساءلت: «نسيت تحط العنوان يا طويل العمر؟!» ضحك وقال: «لا هذي الرسالة لك حط عليها عنوان سكنك». خرجت وبريصة يراقبني وفشخ فمه فشخة بدون صوت، كتامي

Twitter: @ketab_n

هذه المرة وكأنه فقد القدرة على الكلام. وذهبت من فضولي لدورة المياه وفتحت الرسالة وهالني ما رأيت في الرسالة، كانت محشوة برزم جنيهات جديدة لم يمسّها أحد من فئة الخمسين باوند، حسبتها فطلع المجموع خمسة آلاف باوند، وأدركت عندئذ بأنها هدية من سمو الأمير. رحت طاير لأخوي وقلت له: «تعال شوف الأمير أعطاني هدية خمسة آلاف باوند، يا كثر الفلوس إلي عندنا الحين.» وصرت أقوله مثل سعد الفرج: «بسنا فلوس، بسنا فلوس، البطانية في مخزن الشقة انترست فلوس، والحين خمسة آلاف، يا ساتر.» بيد أن أخي لم يكترث للفلوس وأبدى عدم رضاه وقال اشكر الأمير وردها له، لسنا في حاجتها قلت: «شلون يعني نردها له، والله فشيلة ما أقدر، أصلا لو شفته كيف فرحان وهو يعطيني كأنه هو إلي محصل المبلغ.» رد علي وقال: «ماني ماخذ منها شي أنت بكيفك.» رجعت وقلت: «ما فيه إلاّ بريصة الأصفهاني هو إلي بيحلها.» استنيته في الصالة، ولما طلع وناديته: «بريصة!!!بريصة!!! تعال أبيك بخدمة، تقدر تساعدني وترد الظرف لسمو الأمير وتعتذر منه إنا مقدرين له كرمه بس لو يعطيها أحد يستحق أكثر منا يمكن أفضل.» ابتسم بريصة ابتسامته المعهودة لكن بصوت أقرب لفحيح الأفعى هذه المرة وأخرج لسانه وبدأ يلث. الظاهر لكل حالة عنده نغمة خاصة في الضحك، وقال: «برافو عليك يا واد يا نديم، أنت كدا عشرة على عشرة، حتكبر أقوي في عين الأمير، ويعرف إنك مش بتاع فلوس.» قلت: «الحمد لله طمنتني والله خفت إنه بيزعل منا إذا رديناها.» وبينما أنا أتحدث مع بريصة عن ترجيع الفلوس وإذ بمفرزة من قوات الشرطة الخاصة المسماة «سكوتلانديارد»، تسرع نحو الباب الذي يوجد به المريض من عائلة سمو الأمير فتدفع الباب بعنف وأنا وبريصة نرقب المنظر بدهشة كبيرة، وحاول بريصة من هول الصدمة والخوف أن يتسلل بخفة ويلوذ بالفرار وسط الزحمة والربكة، فدست على قدمه حتى لا يتحرك ولاحظت إحدى الشرطيات أنه يحاول الهروب وقالت له: و«You are going no where?، أي إبق مكانك ولا تغادر.» كان يبدو على سمو الأمير الهدوء التام وهو يضع رجلاً على رجل ولم يتحرك من

Twitter: @ketab_n

مكانه ولم يعلق على الطريقة المشينة التي داهمت بها الشرطة غرفة المريض في المستشفى، وكان في تلك اللحظة يتواجد السفير المصري لزيارة سمو الأمير، فقام من مكانه وعرف بنفسه واستنكر الذي يجري، رد عليه الضابط بأن هذا موضوع لا يخصه من قريب أو بعيد كسفير، وأوضح الضابط بأن هنالك بلاغاً بوجود أسلحة خطيرة في هذه الغرفة، ابتسم الأمير وأخرج لهم بهدوء الهدية التي أتى بها لابنه وهي عبارة عن لعبة رشاش تفحصها البوليس بدقة وهم في غاية الإحراج فاكتشفوا الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه واعتذروا بأشد أنواع الاعتذار، ولم يسلموا من تقريع السفير المصري الشديد لهم. وعند هذه النقطه هاج وماج بريصة بعدما شعر بالأمان وقال: «سبهم لي يا سمو الأمير دنا حخرب بيتهم، إزاي يتجرأو يعملوا كدا، هي سايبة وإلا سايبة، أنا حا أخذ حقك منهم، دنا هرد لهم الاهانة الي ما ينسكتش عليها.» قال له الأمير بكل برود: «انثبر.» رد بريصة: «حانسبر إن شاء الله.»

وفي اليوم التالي شرح لي بريصة خلفيات القصة وهي أن الممرضة الخاصة بهم والتي كانت تستلم بخشيشاً مئتي جنيه كل صباح، لاحظت الهدية التي أحضرها سمو الأمير لابنه فحسبت أنها رشاش حقيقي فأبلغت البوليس، وكانت تلك السنة هي السنة التي قتلت فيها الشرطية البريطانية «أيفون فليتشر»، أثناء مظاهرة أمام السفارة الليبية في لندن برصاصة قالت السلطات البريطانية وقتها أنها أطلقت من داخل السفارة الليبية، والتبس الأمر على الممرضة التي كانت تشك في كل العرب ولا تفرق بين ليبي أو سعودي أو مصري.

عرفت بريصة لاحقاً على أخي المريض لعله يسري عنه بنكته المتواصلة وبكذباته التي تهتز لها الجبال، وعندما رآه أخي يضحك بطريقة غريبة وكأنه ينهق وينقطع نفسه شك بأن به مساً من الجان وقال له: «سوف أرقيك لعلك تشفى يا بريصة، ما قولك؟» أجاب بريصة: «لك ما شئت يا مولانا. وسلم ناصيته لأخي وبدأ يقرأ عليه المعوذات وينفث عليه ضاغطاً على ناصيته وقابضاً على شوشته سلك المواعين الحمراء، ويبدو لي أن

Twitter: @ketab_n

أخي قد ضغط عليه أكثر من اللازم، فتضايق بريصة وبدأ يتململ ذات اليمين وذات الشمال وتصدرعنه حشرجة وكأنه يريد أن يعض يد أخي التي تسحب شوشته، فحسب أخي أن المارد هو الذي يتململ وأنه سوف يخرج لا محالة، فقال: «أنطق، تحدث قل من أنت، من أنت، أنطق... أنطق أيها الجان، لماذا تلبست بعبد الله بريصة الأصفهاني، حلفتك بالله أن تنطق فمن أنت.» رد بريصة المسكين بصوت يكسر الخاطر: «أنا بريصة يا مولانا...»، فضربه أخي على صدره بقفا يده ونفث فيه وقال: «داوم على الأذكار تشفى بإذن الله يا بريصة.» عدنا للجلوس على المقاعد وتمدد بريصة وهو يتنفس الصعداء، وسألني: «إيه الأذكار يا عم نديم؟» وشرحت له أذكار الصباح والمساء، قال: «مش لما نصلي بالأول.» قلت له: «يعني ما تصلي يا بريصة، حسبي الله عليك، الله يهديك بس.» نام أخي قرير العين بعد أن قرأ على بريصة وأتت «ديبي» واطمأنت على المغذي والأدوية المحقونة بوريده، وغطته بالبطانية وأتت عند قدميه وغطتهما وكان فوق قدمي أخي تلفاز معلق بالسقف يرتفع نحو نصف متر فوق رجليه وبعدما انتهت «ديبي» من تغطية قدميه رفعت جسمها وانتصبت فاصطدم رأسها من الخلف بالتلفاز وهوت مغمى عليها فتلقفتها بين يدي ومددت جسمها على الأرض وحاولت أن أعطيها إسعافاً سريعاً لإنعاش القلب والتنفس CPR، تعلمته في ثانوية الخليج في الدمام!!! نعم... نعم... شكلي قلت شيء غلط، معقولة في ثانوية الخليج تعلمت الإنعاش!!! قصدي تعلمت ذلك في مدرسة اللغة الانجليزية في لندن، ولاحظت بريصة أثنائها يتسلل بخفة من خلفي وتوقعت أنه يريد الهرب مرة أخرى فحنقت عليه كيف يتركني هذا الأراجوز في هذه اللحظات العصيبة. لكن وبينما أنا مشغول بإعطاء «ديبي» قبلة الحياة، انفجرت ضاحكة في وجهي وكأنها هي التي خرج منها المارد وليس بريصة. كانت «ديبي» تضحك ملء شدقيها لأن بريصة الحمار عندما تسلل من خلفي ذهب مباشرة للهاتف واتصل على رقم الطوارئ ٩٩٩، وطلب سيارة إسعاف لإنقاذها، ولما سألته الشرطة عن العنوان أعطاهم عنوان المستشفى. يعني بريصة حبيب قلبي كان يطلب

Twitter: @ketab_n

إسعاف يجي على عنوان المستشفى عشان نركبه ونأخذ لفه على الكورنيش وبعدين نرجع لنفس المستشفى لتلقي العلاج!!! لكنه بغبائه الشديد كشف خطة «ديبي» الجهنمية من حيث لا يدري، فهي لم تكن مغمى عليها حقيقة، ولكنها عملت التمثيلية لحاجة في نفسها، بيد أن حظها العاثر أوقعها مع بريصة المشؤوم.

بعد أن أنهى مريض بيت سمو الأمير فترة العلاج في المستشفى خرجوا بالسلامة فودعتهم وحزنت والله لفراقهم لأنهم ملأوا الجو حركة في المستشفى وآنسوا وحشتنا، وبيني وبينكم حبيت بريصة من كل قلبي وحسدت الأمير على وجود رجل مثله معه يسري عنه بعفويته ونصبه وضحكته الحمارية. وعندما غادر الأمير ودعني بكلمات رقيقة ولهول المفاجأة أعطاني رسالة جديدة وهو يضحك وقال: «أنت عارف العنوان زين المرة هذي صح!!!» ترددت وقلت: «صح يا طويل العمر شكراً لك من أعماق قلبي.» وأسرعت إلى نفس التواليت وفتحت الظرف وحسبت الفلوس الموجودة وجدتها ثمانية آلاف جنيه هذه المرة، أكثر من المرة الأولى، حسبي الله عليك يا بريصة الأصفهاني شكلك لطشت الخمسة ألاف باوند وما رجعتهم للأمير.

Twitter: @ketab_n

تعقب بريصة في مصر

قابلت الأمير بعد مدة من مغادرتهم المستشفى ولم يكن في معيته بريصة، وأخبرني بأنه لم يعد يعمل معه بعد الآن، وأنه قد استقر به المقام في مصر وقد تغيرت أحواله بسبب ظروفه العائلية الخاصة، ولم أكثر السؤال عن ماهية تلك الظروف أو عن عنوانه ونسيت موضوعه تماماً، لكن الظروف تسنت لي للوصول إليه عندما حصلت على دورة متقدمة في الجامعة الأمريكية في القاهرة مع بعض الزملاء وكان عددنا أربعة عشر شخصاً في العام ١٩٩٤ تحديداً، بعد عشر سنوات بالتمام والكمال من عملية النصب التي قام بها بريصة في «هارلي ستريت كلينك».

وللالتحاق بالدورة في مصر التي بدأت في شهر فبراير سبقني جميع أصدقائي بالسفر بالطائرة، أما أنا فقررت السفر بسيارتي الجديدة البي إم دبليو ٧٤٠ الكحلية الأنيقة والتي لم يمض على شرائها شهر لأني أحببت أن أتمتع بقيادتها في شوارع القاهرة. فقمت قبل موعد السفر بشراء الكثير من الملابس الأنيقة والهدايا والعطور والبخور، وجلها أحضرتها لأنني كنت متأكداً بأنني سأجد من أهديها إليهم لاحقاً. وضعت جميع الأغراض بالسيارة في الليل على أمل أن أبدأ الرحلة في صباح اليوم الباكر. لكن بسبب سعادتي وأنا أفكر في الرحلة القادمة وما ستحبل به الأشهر الطويلة القادمة في قاهرة المعز من مغامرات، لم يأتني النوم حتى الساعة الثالثة فجراً، فقمت من سريري وغيرت ملابسي وأطلقت العنان للسيارة من مدينة الخبر متجهاً نحو القاهرة. استمريت في القيادة حتى وصلت منهكاً إلى مدينة بريدة في الساعة الثانية عشر ظهراً، نمت في فندق كحيان حتى

Twitter: @ketab_n

المساء ومن ثم واصلت السير إلى أن وصلت مدينة حائل ومنها اتجهت إلى مدينة تبوك التي تبعد عنها نحو ٦٥٠ كلم، وهي منطقة صحراوية موحشة وقفراء ذات طريق مفرد ولا توجد به خدمات إلاّ ما ندر، وتوجد بها مدائن صالح وتشمل عدة كهوف ومقابر منحوتة في الجبال لأقوام حكموا وعاشوا في هذه المنطقة من آشوريين وأنباط ورومان وعرب، وقد قال الله عنهم في القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾. وعند الساعة الواحدة ليلاً توقفت عند محطة مظلمة لونها بلون طين الهجير المتفطر ومكائن ضخ البنزين صدئة متهالكة مائلة متمائلة فملأت خزان وقود السيارة وتوجهت للبوفيه داخل بيت طيني وباب خشبي متهالك موجودة في وسط المحطة وطلبت شاياً ليساعدني على الاستيقاظ أثناء القيادة. نظرت نحو سيارتي وأنا أنتظر العامل يسكب الشاي من أبريق أصفر نحاسي مطعّج من كل الجهات، وإذ بي أشاهد رجلاً بالقرب من سيارتي، أشعث أغبر وأحدب الظهر يلمس سيارتي ثم التفت إليّ بنظرة مريبة ومخيفة لم أكترث له كثيراً ووددت أنه لم يمس السيارة لأنها كانت جديدة وكنت أحافظ عليها كثيراً تلك الأيام، فأخذت الشاي ونظرت مرة أخرى نحوه فلم أجده وتعجبت كيف اختفى بهذه السرعة. ركبت سيارتي وتحركت مسرعاً لا ألوي على شيء من هذه المحطة المظلمة كقلب كافر، وأضأت النور الداخلي، وتفحصت المقعد الخلفي بالمرآة العاكسة على سبيل الاحتياط فقط. شغلت شريط أم كلثوم واسترخيت طوال الطريق الطويل والذي يبدو أن لا نهاية له وأنا أستمع إلى أغنيتها الخالدة التي تصدح بأحلى الكلمات:

«رجعوني عنيك لأيامي اللي راحوا *** علموني أندم على الماضي وجراحه *** اللي شفته قبل ما تشوفك عنيه *** عمري ضايع يحسبوه إزاي عليه»، وبعد نحو ساعة وأنا في قمة الاسترخاء، سرحان وأفكر في المغامرات القادمة التي ستحدث في أزقة وفنادق القاهرة ونيلها وحول الهرم، فأخذتني الأفكار حتى تخيلت أنني أسير وسط وادي الملوك

Twitter: @ketab_n

وأتجول بين قبور الفراعنة في الوادي الصخري المحاط بالتماثيل والتعاويذ التي يعتقد الفراعنة أنها تحمي قبور ملوكهم فتبسمت منتعشاً لهذه التخيلات اللذيذة، لكن فجأة ظهر لي شيء وسط الظلام شل تفكيري ووقف له شعر رأسي وكدت أنحرف بالسيارة من الرعب الذي أصابني، فقد ظهر لي نفس الشخص الذي رأيته قبل ساعة في المحطة الموحشة وهو يقف في منتصف الطريق وبدت لحيته الكثة وأسنانه ظاهرة كأنياب ذئب متوحش، وعيناه المريبتان ازدادتا حمرة، كل ذلك حدث في جزء من الثانية لكن صورته انطبعت في مخيلتي بكل تفاصيلها، فأصابني الهلع الشديد وخشيت أن يكون عفريتاً من الجان لأني كنت قد قطعت إلى الآن نحو ١٥٠ كلم ولم أمر على أثر لوجود حياة أو إنسان فكيف وصل هذا المسخ إلى هنا، ولماذا وقف وسط الطريق؟.. وبسرعة وبفعل الخوف والرهبة، استبدلت شريط أم كلثوم ووضعت بدلاً منه القرآن الكريم بصوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد حتى وصلت إلى منطقة جبلية ومنعطفات تلتف كأنها ثعبان، ولا أعلم أين تقع على الخريطة التي معي واستمرت لنحو ١٠ كلم أخرى، ثم أنبسط الطريق مرة أخرى وكنت أتمنى أن أجد أثراً للحياة أو محطة وقود أو أي شيء أتوقف عنده حتى يهدأ روعي ويطمئن قلبي. وتذكرت وأنا أستمع للآيات الكريمة وحشة القبر عندما ينقطع الإنسان عن الناس والدنيا وكيف يكون حاله عندما يكون وحيداً ليقابل مصيره الحتمي تحت التراب والظلام الدامس. ولكنني بدأت أشعر ببعض الطمأنينة عندما ظهرت بجانبي سيارة عراوي وبها شخصان ويضيئها نور أحمر خافت، فتجاوزاني ونظرت للسرعة لدي فكانت ١٤٠ كلم في الساعة، ارتحت بعض الشيء لوجود بشر بالقرب مني ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد اختفت السيارة بعد مدة في الظلام ثم أتت سيارة أخرى شبيهة لها تماماً وتجاوزتني فازدادت دقات قلبي أكثر فأكثر وأحسست أن هنالك شيئاً غير طبيعي في تلك السيارتين، فقررت أن أتجاوزها بدوري فزدت من سرعتي وأنا أنظر إلى من بداخلها لأرى تحت الأضواء الحمراء الخافتة قزمان أجزم أنهما بطول طفل في الرابعة من العمر يضحكان ضحكات شيطانية من كل قلبيهما وكأنهما

Twitter: @ketab_n

يقولان شاركنا الضحك. فتعجبت كيف يمكنهما سياقة السيارة، وما هي سر تلك الضحكات التي تخلع القلب من مكانه، فاستبدلت شريط عبد الباسط عبد الصمد ووضعت سورة البقرة بصوت الشيخ العجمي، وتجاوزت السيارة بسرعة قصوى وألقيت عليهم نظرة أخيرة في المرآة العاكسة وقد اختفوا بعيداً عني، ولكن ويا للهول فبعد أكثر من ربع ساعة من تجاوزهم وأنا أقود بسرعة عالية وجدت السيارة الأولى أمامي، فزدت من السرعة حتى اقتربت من ٢٠٠ كلم وتجاوزتها من دون أن أجرؤ حتى أن أنظر إليها فسطع ضوئها الأحمر بقوة عليّ وأضاء قمرة القيادة حتى أني رأيت قدميَّ بوضوح وعليهما ظلال قرني شيطان، ولكن المفاجأة التي كادت أن تقضي عليّ وتنهي كل شيء في تلك اللحظة أن ظهرت سيارة أخرى ثالثة مماثلة أمامي وبها الأشخاص إياهم والضوء الأحمر نفسه، فأحسست أني قد دخلت وادي التيه وخرجت من دائرة الزمان. كان قد بقي على صلاة الفجر نحو ساعة، فصرت أدعو الله أن يأتي بنور الصباح حتى تنتهي هذه الليلة المرعبة الطويلة وأنا وحيد وجل في قلب هذه البيداء التي لا نهاية لها أردد الآيات مع الشيخ العجمي، لكن ولله الحمد أتى الفرج عندما ظهر على مد البصر بصيص ضوء خافت في نهاية الطريق، ففرحت واستبشرت خيراً وعادت الطمأنينة إلي شيئاً فشيئاً، وقررت التوجه إلى المكان والبقاء فيه حتى يشع نور الصباح. كان المحل الذي قصدته هو محطة تقوية للهاتف السعودي السيار الكحيان في تلك الأزمان، فتوقفت بالقرب منه واطمأننت حينما وجدت عدة سيارات للهاتف وشخصاً مسلحاً يقوم بسكب ما بقي من القهوة على الرمال. وقفت بجانبه وكان ينظر إلي بحذر وأنا بدوري أنظر بحذر أكثر منه، سلمت عليه ورد التحية وقلت: «هل تسمح لي بالجلوس معكم حتى الصباح.» رحب بي وقال: «حياك الله، تفضل صلي معنا الفجر وافطر ثم توكل على بركة الله.» جلست معهم وكانوا نحو خمسة أشخاص وذكرت لهم قصتي، فأخبروني أني لست أول شخص يتوقف لديهم بسبب شعوره بالخوف والرهبة، بل في بعض الأحيان يأتي إليهم أكثر من خمسة أشخاص ومعهم سلاح ويطلبون

Twitter: @ketab_n

الاستئناس معهم مثلي حتى الصباح. بعد الإفطار وظهور الشمس استعدت ثقتي بنفسي وأكملت طريقي ووصلت إلى مدينة حقل على البحر الأحمر قرب الحدود الأردنية في السابعة صباحاً، وسرعان ما نسيت العفاريت وشغلت أغنية لعبد الله الرويشد «على ايش نتفاهم وحبل المودة بيننا مقطوع».

وفي ميناء العقبة التي تنطلق منها البواخر والعبّارات نحو مصر كان موعد أول باخرة ستبحر نحو ميناء نويبع في صحراء سيناء عند الساعة الثالثة عصراً. نمت في الباخرة من الساعة الرابعة عصراً حتى الثانية عشر ليلاً، وعندما وصلنا جمارك نويبع تعرفت على شخص من قطر اسمه عبد الهادي ويعمل كاتب عدل في محكمة الدوحة ولديه سيارة موستنج سوداء واتفقنا أن نكمل المشوار سوياً، وطالت إجراءات الجمارك والتفتيش والبخشيش الذي لا ينقطع حتى آذان الفجر، كل شيء عليه جمارك، نوعية الاستيريو الفخمة، نوعية جنوط السيارة، فتحة السقف، ما باقي إلاّ شراريبي يأخذون عليها جمارك، حتى شكيت والله إنهم كاميرا خفية، وكله من غير أوراق أو وصولات، أدفع تنجو، تلكأ في الدفع تنام في الجمرك، بعدها انطلقنا وسط صحراء سيناء باتجاه القاهرة من دون عفاريت هذه المرة برحلة طولها نحو ٥٠٠ كلم. في الطريق إلى القاهرة تغيرت المعالم كثيراً، ففي الأمس كنت أرى سيارات الجمس المتروس حريم وبزران وسيارات الكابريس والجيب والليموزين السعودي، وها أنا بعد يوم واحد فقط أتجاوز السيارات من نوع فيات ونصر وتاكسي البيجو الأسود والأبيض المصري الشهير والكتابات الجميلة عليه، (صلي على النبي، يا ناس يا شر كفاية قر، أبو محمود وسارة، يا تعدي يا تهدي، آكلك منين يا بطة)، وناس رايقة وتحب الحياة مش مثلنا رسميين لو تنظر عند الإشارة لأي واحد تراه متجهماً وجاحظ العينين وكأنه في طريقه إلى مستشفى الأمراض العقلية. كنت أعلق المنبه لهم وأحييهم «صباح الورد يا جدعان» وهم يحيوني بفرح ويقولون: «نورت مصر يابيه، يا أمير.» فالمصريون أكثر أهل الأرض «عشرية» بل إن مصر هي البلد الوحيد في

Twitter: @ketab_n

العالم الذي لا تحتاج أن يرافقك إليها صديق. اذهب إلى أي قهوة شعبية إن كنت وحيداً واسحب بكل ثقة كرسياً وسطها وأسأل أقرب شخص بجانبك، «كم الساعة يا أفندم» واعلم رحمك الله، أن المصري لن يعطيك الجواب بسرعة أو ببساطة كما تتوقع، بل سوف يقول لك: «عايزها كم يا أفندم، منور والله مصر، حضرتك من فين؟» ثم يدخل معك بحوار طويل في السياسة والكورة والاقتصاد والحج وقبر النبي (ص)، طبعاً غني عن القول بأن المصري موسوعة بكل شيء، وبعدها يعزمك على الشاي «واللب والسوداني» «فصفص وفول سوداني»، واليوم الثاني ممكن يعزمك على بط ووز واليوم الثالث يزعل لو لم تمرّ عليه أو سألت عن أحوال خالته «بهانة» التي أخبرك أنها عيانة وكأنك نسيت العشرة التي بينكم، وعلى النقيض من لندن ومن الانجليز، فلو سألت رجلاً انجليزياً عن الساعة، فسوف تسمع إجابة مقتضبة وكأنها رصاصة انطلقت من فمه ولن يكرر لك الجواب إن لم تسمعه وسوف يختفي من حياتك وسط الزحام ولن تراه مرة أخرى ما حييت أبداً.

وصلنا مع شروق الشمس إلى القاهرة واتجهت أنا وعبد الهادي إلى فندق ماريوت وحصلنا على غرفة تطل على حديقة الشاي والمسبح بـ ٥٥ دولاراً فقط، يعني كل واحد يدفع حوالي ٢٧ دولاراً، لذلك شاركت بشهر كامل هو مدة وجود عبد الهادي من قطر بالرغم من وجود سكن لي في الدورم (سكن طلاب الجامعة الأمريكية في القاهرة).

في اليوم التالي اتجهت لسكن الجامعة الذي يقع في نهاية شارع شجرة الدر في حي الزمالك، الحي الذي كان يعد في أربعينات القرن الماضي من أحياء القاهرة الراقية، وأشهر شوارعه شارع جامعة الدول العربية وشارع أحمد عرابي وشارع ٢٦ يوليو، ووجدت جميع رفاقي قد وصلوا بالسلامة على الخطوط المصرية وحكيت لهم ما حصل لي من أهوال في الطريق بين حائل وتبوك وحقل، وأخبرني أحدهم بأنه سيعود معي في نهاية الدورة ولن يدعني أغامر في العودة لوحدي. كان سكن الطلاب جميل بناه كما توضح لوحة الشرف المعلقة في مدخله كل

Twitter: @ketab_n

من القصيبي والجريسي وأحمد عبد اللطيف جميل، وهو مكون من جناحين، جناح للطلاب وجناح للطالبات وفي الطابق الأرضي، في أقصى البهو يوجد مطعم جميل خاص بالطلاب المقيمين القادمين من أنحاء العالم.

Twitter: @ketab_n

في سكن طلاب الجامعة الأمريكية بالقاهرة

في البداية «كش» منا جميع الطلاب والطالبات لأنهم لم يستسيغوا هؤلاء الغزاة الجدد الأعراب الأقحاح أحفاد عدنان ومعد وقضاعة وطي ومضر الذين يختلفون عنهم في المظهر والسن والملبس، خصوصاً أننا احتللنا ركناً مميزاً في البهو وقلبناه إلى سوق عكاظ نتباهى فيه بمفاخرنا فتتعالى أصواتنا المتشنجة أثناء أي حديث مهما كان تافهاً، حتى لو أردنا شراء سندويتش فلافل بدون شطة نحدث جلبة وإزعاجاً ونعيقاً، فيسمعنا آخر طالب تعيس الحظ في البهو أكثر مما يسمع للشخص الذي يجلس معه إلى الطاولة نفسها والذي قد يكون يتحدث معه عن تكنولوجيا النانو. وجل مواضيعنا التي نناقشها مستهلكة وبيزنطية الطابع مثل مواضيع سياقه المرأة، وأننا أفضل بشر في العالم وشعب الله المختار وغيرنا يخشى عليه من عذاب النار. لكن بعد مدة تمكن «بعض العصاة الخارجين عن الجماعة»، وعددهم أربعة وأنا كبيرهم بالطبع من كسر الحاجز النفسي الوهمي والخصوصية التي يتميز بها مجتمعنا، وتعرفنا على شيرل كندية مسلمة، وسمر سورية، وهيفاء وهبة لبنانيتان شقيقتان، وتبثا سامنثا أمريكية، وعمرو ووليام سعوديان برغم أن اسم وليام غير عربي فهما سعوديان من جدة.

كسرنا الحاجز النفسي وانسحبنا من الركن السعودي الممل الفوضوي وانضممنا إلى أصدقائنا الجدد وأصبحنا نذهب إلى الجامعة معاً

Twitter: @ketab_n

ونعود فنقضي أجمل الأوقات في ركوب الخيل في صحراء الهرم أو استئجار البواخر النيلية والسهر في الأماكن الراقية مثل «ورلدز ويندو»، وهو مطعم راقٍ في أعلى فندق هيلتون رمسيس أو في ماريوت والفنادق الأخرى الراقية. مع مرور الأيام بدأت أميل لهبة اللبنانية وجذبني إليها بالإضافة إلى جمالها ذوقها الرفيع ورزانتها، وكذلك ثقافتها العالية. لكنني لم أظهر لها شيئاً من ذلك بل عزمت أن أحوّل إعجابي بها إلى نوع من «التلذذ بالحرمان... لن أكمل هنا!!!» لذلك قمت بعمل اتفاق مع صاحب محل للورود في بداية شارع شجرة الدر المتفرع من شارع ٢٦ يوليو وقريب من السكن بإحضار باقة ورد كل يوم الساعة الثالثة ظهراً ويضعها في الاستقبال باسمها، فكان يرسلها مع «الصبي بلية» على دراجته الرشيقة، وللطرافة كان أحد زملائنا الطيبين والمتبسطين في حياتهم اليومية، وهو من الناس الذين أعتز بصداقتهم، قد اتفق مع صاحب محل فراخ بجانب محل الورد بأن يحضر فرختين عليهما القيمة يومياً لعمل كبسة محترمة يوزعها على بعض الشباب من المجموعة نفسها. لم يكن الطبخ مسموحاً به في السكن لأسباب تتعلق بالسلامة ولوجود مطعم في الطابق الأول، ولكن حبيبنا أبو عبد الله حصل على استثناء من الضابط برتبة عميد المسؤول عن أمن السكن لطبخ وجبة عشاء يومياً مكونة من فرختين أرز المهيدب طويل الحبة، شرط أن يحصل الضابط على صدر أو فخذ فرخة بالرز المعمر يومياً. «الصبي بلية» أصبح يأتي كل يوم بفرختين وبوكيه ورد، يضع على يمين المقود الورد وعلى يساره الفراخ وهو يفرق بينهما في الدريكسون حتى لا تختلط رائحة الورود بزفر الفراخ والله أعلم، فيسلم الفرختين لحراس الأمن لتتجهان لأبي عبد الله مباشرة فيشرع بعملية الطبخ، بينما يتجه بوكيه الورد إلى الغرفة رقم ٢٤٢ في قسم البنات. كنت أؤكد على صاحب محل الورد دوماً بأن لا يفشي السر وقد حافظ عليه تماماً مع الإكرامية المتواصلة بطبيعة الحال. وكالعادة، كنت أصرف كل ما لديّ من أموال في مقابل أن أتمتع بمباهج الحياة من دون زلل لأقصى حد ممكن، وبالرغم من أن كل واحد منا كان يستلم في تلك الأيام مبلغاً يصل نحو ١٨

Twitter: @ketab_n

ألف ريال سعودي بالإضافة إلى مبلغ ٣٠ دولاراً كمصروف جيب يومي وسكن مجاني، إلاّ أني بسبب تلك التصرفات أصبت بالإفلاس قبل يومين من نهاية الشهر. فاتجهت إلى صديقي العزيز الذي يسكن معي بالغرفة واسمه «سامر الطويل»، وطلبت منه ألف جنيه ليومين فقط حتى تأتي المهية آخر الشهر، فرد عليّ: «يا عمي مجنون أعطيك، إحنا نقول فرصتنا في هذا الكورس بنطلع بأربعين أو خمسين ألف ريال وأنت تفلس من أول شهر، روح يا حبيبي انتبه لفلوسك.» قلت له: «لا تعطيني فلوس بس يرضيك ينقطع بوكيه الورد عن هبة؟» فقفز من مكانه وقال: «أفا عليك وأنا أخو حصة، والله ما ينقطع الورد عن هبة لين ينقطع نهر النيل عن المصريين، قوم معاي البنك.» وصرف لي ثلاثة آلاف جنيه وقال: «لا تنس تختار ورد زين لبكرة والله الله باللون الأحمر، كثر منه.»

كانت البنت اللبنانية تفتخر بالمعجب الخفي أمام جميع البنات وأمامنا نحن الشباب ويبدو أنها لم تدرك أني أنا العاشق الهيمان إلي يستاهل قرص الودان. ومن غيرة البنات منها قامت بعضهن بإهداء أنفسهن ورداً، وأدعين أنه من عاشق آخر هيمان وخفي وكمان في حبهم غلبان، فتقاولن مع صاحب الورد حتى امتلاء الرسبشن بالورود فحسب بعض المارة في الشارع أن السكن تحول إلى محل لبيع الورود، فقصده العرسان يبحثون عن كوشات وزينات، وزوار المرضى عن بعض الوريدات. ولكن حبل الكذب قصير ولم يمتد معهن سوى أسبوع أو أسبوعين والصبورة من امتد بها الحال لشهر من الخيال.كان من ضمن الأشخاص الذين تعرفنا عليهم شاب سوري يدعى باسل، وهو ولد معجباني ترعرع وتقرع شعر رأسه في مدينة الخبر، وسيم وجسمه رياضي ويحلق شعره على الصفر يومياً ويدعوه المصريون بـ«زلبطة»، يعني قرعة بلغتنا. وفي أحد الأيام كنا نتسامر و«هبة»، تضع بوكيه الورد بكل فخر بحضنها ولكنها لما قامت سلمته إلى باسل وقالت: «خذ هذه الباقة لك فقد امتلأت غرفتي بالورود.» وأخذها باسل وتوجه بها لغرفته وعاد عندما أوشك وقت العشاء وبدأنا نحضر

Twitter: @ketab_n

الطعام اللذيذ من المطعم في الطابق الأرضي. لم يرق لي ما فعلته هبة فقررت أن أقوم بمغامرة مجنونة فتسللت من دون أن يشعر بي أحد وكأني ذاهب إلى دورة المياه، وهذه الطريقة استوحيتها كذلك من قصة «تشرلوك هولمز» المشوقة «مغامرة إكليل العقيق»، التي يقوم خلالها القاتل بالتسلل من طاولة الطعام فيقتل الضحية ويعود لإكمال العشاء وكأنه ذهب لدورة المياه ليكون الجميع شهوداً بأن القاتل كان معهم أثناء وقوع الجريمة، فذهبت وكان يفصل بين السكن الخاص بالشباب عن سكن البنات ساحة تتوسطها نافورة جميلة، نظرت فوجدت معظم الشبابيك مفتوحة في الجهتين ومن ضمنها شباك باسل وشباك هبة، فقررت تنفيذ الخطة التي طرأت لي واقتربت من مواسير تصريف المياه وتسلقتها بخفة ودخلت غرفة باسل ووجدت البوكية فحملته ورأيت بيانو جميلاً في غرفته ثم وجدت ورقة وقلماً فأخذت الورقة وكتبت: «لو أخذت الورد ثاني مرة كسرت البيانو فوق رأسك يا زلبطة، التوقيع فتوة الحسين «زنهم أبو دراع».

وربطت الورد في حزام بنطلوني ونزلت بسرعة بعد أن أخذت في جيبي ورقة أخرى وقلم زلبطة لأكتب رسالة أخرى لهبة واتجهت للجهة المقابلة وتسلقت إلى غرفتها ووضعت الورد على سريرها وكتبت: «أهديتك يا هبة السماء وروداً لتغنيني عن كل الكلمات، فأحفظيها كما حفظت حبك في أعماق قلبي الملتاع... المتيم نديم الهوى.» وعدت سريعاً بعد أن نفضت ملابسي من أي أثر للجريمة وأكملت العشاء معهم، وعندما عادت «هبة»، لغرفتها رجعت وهي فرحة وخائفة في الوقت نفسه وتحمل بوكيه الورود والورقة المكتوبة عليها كلماتي. فقام باسل مسرعاً واتجه نحو غرفته وأحضر الورقة الأخرى التي كتبتها له وقرأها علينا جميعاً، فاستغللت فرصة شعورهم بالشك والريبة والغموض الذي بدأ يتلبسهم عن سر هذا الشخص الخفي، فقلت «يا جماعة الخير أجزم أن لدينا جان هنا في السكن.» وأخبرتهم بالقصة التي حصلت لي في الطريق بين تبوك وحائل، وقلت لهم: «إني أشك أن الجان قد لحق بي أو أنه قد ركب في المقعد الخلفي معي بالسيارة وبدأ يلعب معنا ويتسلى بحكاية الورود.» عندما سمعت هبة

Twitter: @ketab_n

ما قلت سقطت على المقعد شبه مغشي عليها وأتت بنت سمراء أخرى من جنوب أفريقيا فسألت ما بها، فترجم لها باسل ما حصل وحدثها عن شكنا بالجن فسقطت هي الأخرى مغشياً عليها، وقمنا بمساعدتهما وأتى طبيب السكن بسرعة تسبقه كرشه العظيمة وكشف عليهما وقال إن كل نتائج الفحوص سليمة ولكنهما تحتاجان لبعض الراحة. وفي الواقع لم يكن مغمى عليهما، ولكنه دلع بنات مع شيء من الرهبة، وعدّت المسألة على خير، وبصراحة بغيت أعترف على نفسي لما تدهور الموقف، بس تريثت قليلاً ولما تأكدت أن الجميع بخير بلعت العافية وسكت.

إلى هذا اليوم وبعد مرور سنوات عدة لم تكتشف «هبة»، أني أنا الذي كنت أرسل لها الورود كل يوم، ولم أبدِ لها بدوري أي إشارة لذلك أو عن شغفي بها حتى حانت ساعة الرحيل، ولم يكن يعرف سر الورد سوى صديقي «سامر الطويل»، لكن هبة بالتأكيد شكت فيّ كثيراً، وقد تكون تأكدت من ذلك عندما سافرنا وانقطعت عنها الورود، كما انقطعت الفراخ ورز المهيدب طويل الحبة عن ضابط أمن السكن.

Twitter: @ketab_n

بريصة يعترف

زرت معظم دول العالم وتزلجت فوق جبال الألب وركبت الأفيال ونمت في معابد الهندوس في الهند وسكنت في أجمل المنازل المترفة في «بيفرلي هيلز» و«سانتا مونيكا»، عشت أياماً عيشة الملوك وأياماً أخرى أطول عيشة الصعاليك، تناولت ألذ أنواع الطعام في أرقى المطاعم، وأردئها من عربات مكشوفة في دليهي بجوار الجامع الكبير «مسجد جهان ناما»، لكن قلبي تعلق بأم الدنيا منذ أول مرة زرتها فيها ففضلتها على دنيا رب العالمين. أحببت أزقتها القديمة وشعبها البسيط الطيب وبازاراتها ومطاعمها الشعبية والحمام المحشي بالفريك والملوخية والفول والطعمية على ما تقدمه مطاعم «لو تران بلو» الفرنسية ومطاعم «النايتس برج» ومطعم «سينيور ساسي». وقد كنت محظوظاً عندما تعرفت أثناء الدراسة في الجامعة الأمريكية في القاهرة على «تبثا سمنثا» البنت الأمريكية الكلاس والمتخصصة بالدراسات الشرقية والتي تتقن اللغة العربية كأنها من نسل «يعرب بن قحطان»، وتحب القاهرة كلها على بعضها بحلوها ومرها، وتحب كذلك المشي على الأقدام طوال الليل والنهار لا تتوقف كأنها تاكسي الجيزة. فكنا نمضي أكثر أوقاتنا مشياً وسط الأحياء الشعبية والأزقة الضيقة والمنازل المتلاصقة والحوانيت المتداخلة ببعضها والتي تتميز بكثافة سكانية عالية، وأشكال الناس فيها غريبة عجيبة جداً، فلباسهم عتيق ومتسخ وشعورهم مقروضة قرضاً وليس لها ستايل معين، نظراتهم غائرة، فإمّا يكون الشخص فيهم ضخماً كأنه ماموث أو صعلوكاً لدرجة تحسب أنه

Twitter: @ketab_n

يد الشخص الضخم الذي بجانبه، فالدخول إلى هذه المنطقة كركوب ساعة الزمن التي تأخذك إلى مئات السنين الغابرة.

لكن كل تلك المثالب كانت هي سر سحر وجاذبية القاهرة لنا، فكنا نقوم باستمرار بالتجول فيها ابتداءً من الساعة الحادية عشر صباحاً من حي الحسين وذلك بعد أن نتناول وجبة الغداء في أحد المطاعم الشعبية والتي يشتهر كل مطعم فيها بإجادة نوع معين من الطعام لا يمكن أن تجد مثيله في أي مطعم آخر. فمثلاً مطعم الحاتي في الحسين-الكبابجي يسمى الحاتي في مصر- رهيب جداً في عمل الحمام المحشي بالفريك والكباب والكفتة، ولن تجد كباباً مثل كباب الحاتي لو أفنيت عمرك كله تلف العالم من أقصاه إلى أقصاه، مستحيل. أو نتناول الأرز باللبن في مطعم المالكي، أما الطعمية والفول والمسقعة فألذها التي يعملها مطعم الجحش، هذا اسمه والله، وعندما يصل الأمر إلى طبق الكشري المصري الأصيل فألذه الذي يعده مطعم العمدة، بينما يتميز مطعم الشبراوي بأنه أفضل مطعم شعبي يعمل السندوتشات الغنية بالمخللات والشطة الحراقة. كنا كل يوم نجرب أحد تلك المطاعم الشعبية، ثم نذهب فنتربع على مصطبات قهوة الفيشاوي العتيقة في حي الحسين والتي تجاوز عمرها المائة عام فنشرب الشاي الثقيل أو السحلب والعرق سوس أو الزنجبيل أو اليانسون، وندخن النرجيلة المعسل العجمي ذي العبق السلطاني والرائحة الزكية، وعندما يروق «دماغ تبثا» ويعتدل مزاجها من المعسل العجمي يحلو لها أن تستعرض ثقافتها عن المقهى فتحكي لي كيف كان يجلس في هذا المكان قبل أكثر من ستين سنة الفنان كارم محمود وهو يغني بانشراح وتهادي للسهارى (أمانة عليك ياليل طول... وهات العمر من الأول)، وتواصل بشوق كيف كان الناس يتحلقون حوله أو حول الكتّاب والأدباء والقصاصين الذين تعج بهم القهوة وبخاصة في ليالي رمضان المبارك ليستمعوا بشغف منقطع النظير لسيرة أبو زيد الهلالي أو الزير سالم أو عنتر بن شداد وحبيبته عبلة أو لقصة تغريبة بني هلال. وبعد هذا الفاصل الزمني، نكمل رحلتنا إلى حي خان الخليلي الملاصق لحي الحسين فنتجول حول مبانيه التاريخية والتي تعود إلى عصر

Twitter: @ketab_n

المماليك، أي أنها بُنيت قبل ستمئة سنة، ويتميز الحي بتزاحم بازاراته التي تبيع الحلي والنحاسيات والأكسسوارات والفرعونيات. ثم نعرج بعد ذلك على الأماكن التاريخية الأخرى مثل شارع ما بين القصرين وقهوة الحرافيش التي استوحى منها الكاتب الكبير نجيب محفوظ معظم قصصه الواقعية ومسلسلاته وأفلامه، وبعدها نكمل السير في القاهرة القديمة فنتجول وسط حارة اليهود والقاهرة الإسلامية والقاهرة القبطية والقاهرة الفاطمية ومسجد عمرو بن العاص وقلعة صلاح الدين وحي السيدة زينب، ثم ننهي عادة جولاتنا نحو النقطة التي بدأنا منها في حي الحسين فنقوم بتناول وجبة العشاء عند الساعة الواحدة ليلاً.

في إحدى الليالي زرنا منطقة المقابر التي تقع في القاهرة القديمة أسفل قلعة صلاح الدين، وتجولنا وسط القبور والأضرحة ونحن نشعر برهبة شديدة تزيدها ظلمة الليل وعواء الكلاب والقطط من كل مكان، وكنا نستغرب من «أطفال المقابر» الذين يلهون وسطها ويلعبون «الاستغماية، هايد آند سيك» من دون وجل أو شيء من الخوف، كما كان الكثير من النساء يقمن بكل أريحية بنشر الغسيل فوق حبال مربوطة بشدة بين الأضرحة.

وفي أحد الأيام الربيعية المعتدلة الجو قررنا ركوب الحنطور فاستأجرناه من قبالة فندق ماريوت وطلبنا من «العربجي» جولة لمدة ساعة حول أزقة القاهرة واتفقنا أن نعطيه ٦٠ جنيهاً أجرة عن الرحلة، وفعلاً بدأنا في التنزه بجوار نهر النيل لنتمتع بمناظره الخلابة والتي تمخر منه البواخر السياحية وتصدح منها الموسيقى الراقصة والصاخبة، وآلاف البشر يمشون حول كورنيش النيل تراهم يهيمون في كل ركن وكل زاوية وفي البلكونات وفي الساحات، في كل مكان مئات البشر، كثافة سكانية لا حصر لها، وعادة لا تخلو يد المصري من طعام يأكله أو كوب شاي يعدل مزاجه، فتراه يأكل سندويتش فلافل أو باذنجان بالطرشي أو حتى خبز حاف أو كوز ذرة أو يقزقز لب أو يشرب كازوزه، وإذا غلبت الروم وجدته يشعل سيجارة، وشعب لا يتوقف عن أسباب الحياة أبداً، فقلدناهم واشترينا بليلة

Twitter: @ketab_n

من أحد الأكشاك ثم واصلنا الطريق نحو كوبري ٢٦ يوليه وكنا نسير عكس اتجاه السير. وددت في البداية تحذير «العربجي» (العربجي كلمة تركية تعني سائق عربة، عربة جي، وفي السعودية عربجي يعني متخلف) بعدم عكس خط السير ولكنني تركته لشأنه ففي القاهرة كل شيء ماشي بالبركة، لكن فجأة ظهر لنا شاويش مختبئ خلف جدار وسط الظلام وقام بتوبيخ «العربجي» وقال له: «لازم تدفع مئة جنيه غرامة السياقة في الاتجاه المعاكس للسير.» ولم أتدخل طوال الوقت بينهم، إلاّ أن الشاويش التفت إليّ في النهاية وقال لي: «يرضيك برضه كدا يا بركة؟» قلت: «والله ما يرضيني، خذ يا عم خمسين جنيهاً وسامح الراجل الغلبان أصله ما يقصدش.» وناولته الفلوس وكملنا المشوار ورحنا شربنا عصير منجا وفخفخينا عند فرغلي في شارع جامعة الدول العربية.

وفي اليوم التالي اتجهنا شرقاً في رحلتنا على الأقدام لاكتشاف مدينة القاهرة، فسرنا باتجاه شارع الدول العربية وتناولنا طعام العشاء في مطعم أبو شقرا، وهو من أنظف وألذ المطاعم في المشويات في مصر، ثم قفلنا عائدين نحو السكن، وكنا نسير بمحاذاة مسجد مصطفى محمود والذي يوجد بالقرب منه حراسة أمنية مشددة لوزير مصري سابق، فاستوقفنا جندي جاهل وأحمق يبدو أنه قد خرج بالأمس فقط من الترعة وقال: «حضرة الصول عاوزكم.» رددت بكل ثقة: «مين حضرة الصول يا عمي، إذا الصول عاوزنا يجي هو عندنا»، فما كان من الجاهل ابن الأحمق إلاّ أن رفع الرشاش في وجهي من دون مقدمات وقال: «الي يقوله حضرة الصول هو الي يمشي قدامي يا غجر.» فأدركت أنني مقدم على مصيبة لا محالة فسلمت أمري لله وتوجهنا للصول الأجهل من جهل الجاهلين، وبدا لي منذ البداية من سحنة وجه حضرته اللاحم وبريهته العسكرية التي تغطي إذنيه وشنبه المنفوش كأنه برادة حديد جذبها مغناطيس، بأن عقله مقفول بالضبة والمفتاح. بادرني حضرة الصول بالسؤال مباشرة: «مين دي الي معاك وتعملوا إيه هنا؟» رددت: «يا محترم أنت عسكري حماية لشخصية مهمة زي ما هو واضح، لكن مش شغلتك تصيد الزباين من الشارع بسنارة

Twitter: @ketab_n

وتحقق معهم، بعدين هذي أمريكية يا عمي بلاش فضايح.» أخونا بالله لما سمع إنها أمريكية فكر إنها ما تعرف عربي ودخل معاي بكلام ساقط عنها وقالي اسألها كدا: «بالأمريكاني» وشوف جوابها إيه على الكلام إلي قلته لك؟» رددت عليه وقلت: «عيب عليك يا حضرة الصول هذي برضه إنسانة محترمة وعندها مبادئ ودين وأخلاق أنت فاكر الدعوة سايبة وإلاّ أيه!!!» رد وقال لي: «دي عندها دين!!! دينها إيه؟» رددت وقلت: «مسيحية.» قام فحرك سبابته مثل مساحة سيارة، يمنة ويسرة وهو يشير نافياً وقال بكل جدية: «الأمريكان مش مسيحيين.» قلت: «أمال إيه يا حضرة الصول؟» قال: «الأمريكان دينهم كفار!!!» (يفكر كلمة كفار ديانة مستقلة). عند هذه النقطة فهمت مدى المصيبة التي وقعنا فيها وأدركت أنه ليس هناك غير طريقة واحدة للتفاهم مع هذا العبيط وهي النصب على إلي خلفوه، فقلت: «كلامك عين العقل يا حضرة الصول، بس لو تعرف جنابك إن الآنسة فتاكات بنت وزير الداخلية حسن بيه الألفي، ربنا يقازيها ألف خير كل يوم تديها دروس خصوصية عن الإسلام، أمال يا راجل، مهي صاحبتها الروح بالروح وتدعيلها كل يوم بعد كل فرض صلاة بالهداية.» عندها هبط شنب الصول الجاهل وكأن المغناطيس أعطاه سالب هذه المرة وبلع ريقه وقال: «يا رب ينجح مقاصدها وتسلم على إيديها، أصلو باين ع البنت إنها أمريكانية طيبة قوي قوي قوي يا ولد أبوي، ما تشربوا الشاي معانا يا جماعة؟ الشاي ع النار!!!» رددت بسعادة: «يجعله عامر يا فندم، أنا لازم أروح دي الوقت تلاقي الحجة أم فتكات زمانها بتدوّر علينا.» وانتهت المشكلة وتخلصنا من الصول الجاهل وشتمناه لما غادرنا المكان إلى أن طلع الصباح.

اشتقنا لركوب الحنطور مرة أخرى فركبنا مع الشخص نفسه من عند فندق ماريوت وذلك بعد مدة أسبوعين من المرة الأولى، ويبدو أن العربجي لم يتعرف علينا، فبعد أن سار بنا نحو برج القاهرة ومايسبيرو «برج التلفزيون» اتجه مرة أخرى نحو كوبري ٢٦ يوليه وبالاتجاه المعاكس مرة أخرى، فنبهتني «تبثا» بأنه سوف يكرر نفس الخطأ ومن الأفضل

Twitter: @ketab_n

تحذيره، لكنني قلت لها: «لا، لا، لن نحذره خلينا نشوف آخرتها.» وفعلاً لم يخطئ حدسي فبعد مدة وأثناء السير عكس الاتجاه فوق كوبري ٢٦ يوليه ظهر الشاويش النصاب المختبئ في المكان نفسه وبدأ بمسرحية توبيخ العربجي وطلب منه غرامة مئة جنيه، ثم استدار نحوي وقال بصوت يستدعي الشفقة: «يرضيك برضه كدا يا بركة؟» ضحكنا لما كشفنا سر عملية النصب التي اتفق عليها صاحب الحنطور والشاويش الغلبان، وقلنا لهم: «لا المرة هذي سامحونا انتم، العرض المسرحي مجاني، حنا زباينكم خلاص، ما يصير تأخذون منا فلوس، فركش يا حبيبي منك له.»

وبعيداً عن «تبثا سامنثا»، سأختصر في النهاية كيف استطعت أن أصل إلى بريصة الأصفهاني بعد أن دوختكم باللفة الطويلة على القاهرة وأيامها الحلوة، فأصل الحكاية يعود لزميلنا العزيز عمرو من مدينة جدة والذي كان يدرس في المرحلة النهائية في الجامعة الأمريكية ويتقلد منصب رئيس نادي الطلبة السعوديين في مصر، ورغب في المشاركة في الحفل السنوي الذي يقيمه الطلاب في الجامعة الأمريكية للتعريف ببلدانهم تحت مسمى «اليوم العالمي». كان يتوفر لدى عمرو ميزانية ستة آلاف جنيه مصري فقط كميزانية للاشتراك في «اليوم العالمي»، وكان يحتاج أكثر من عشرة آلاف جنيه أخرى للحصول على مجسمات ونماذج تمثل البيئة السعودية يعملها عمال مصريون وعلى شراء ملابس سعودية صناعة صينية، وشماغ وطني سعودي صناعة انجليزية ودواليب عتيقة مزينة بمرايات ومعشقة بالدبابيس لحفظ وتطبيق الملابس وسجادات الصلاة صناعه هندية، وزير ماء ووجار للجمر ومهفات صناعة سورية وابريق الشاي القديم الملون بمثلثات متداخلة حمراء أو خضراء يستخدمها عادة أهل البادية وهي صناعة بلغارية. كما تقاول عمرو مع مطعم مصري لعمل «كبسة بخارية» لتوزيعها في اليوم السعودي على الزوار على أنها طبخة سعودية!!! وكان عمنا عمرو يحاول أن يجمع المبلغ من أي كان فطرق باب السفارة ولم يجد أكثر من الستة آلاف، وتحدث مرة معي وذكر لي بأن الأمير تركي يقيم بصفة دائمة في فندق «مينا هاوس» ولو استطاع الوصول إليه فسوف

Twitter: @ketab_n

يساعده لا محالة فهو مشهور عنه الكرم ويأتي بعد الأمير سلطان بن عبد العزيز في الكرم كما هو معروف. أخبرت عمرو أني من الممكن أن أساعده في هذه الحالة لعلاقتي السابقة بسمو الأمير، فركبنا سيارته السوفت الحمراء واتجهنا إلى طريق الإسكندرية الصحراوي الذي يوجد في بدايته فندق «مينا هاوس».

استقبلنا مدير الفندق المناوب وأخبرنا بكل أسف أنه لا يمكن أن يساعدنا في الوصول لسموه لأنه هو وأفراد الفندق لا يمكنهم التواصل مع الأمير الذي يسكن في قسم كامل ومفصول تماماً عن الفندق إلاّ في الحالات الضرورية القصوى، لكنني طلبت من المدير المناوب أن يبلغه باسمي ويذكّره إذا نسي من أنا عن بعض الأحداث التي حصلت بيننا في لندن. وفعلاً عاد المدير المناوب مع حارس شخصي للأمير أمريكي الجنسية طوله نحو مترين ويبدو أنه لم يبتسم منذ حرب فيتنام، «أصول الشغلة يا عمي» وقام بكل وقاحة بتفتيشنا من دون أن ينبث بكلمة واحدة، ثم تبعناه وأدخلنا صالة كبيرة يبدو أنها قد أضيفت حديثاً في الفندق وتخص الأمير وليس الفندق، وانتظرنا فيها قدوم سمو الأمير. حضر الأمير وابتسامته المعهودة تسبقه وقد بدا لي أنه قد تقدم به السن بعض الشيء وازداد وزنه فرحب بنا ترحيباً أخجلنا ولمت نفسي لأني لم آتِ فقط للسلام ولكن لطلب دعم النادي السعودي الكحيان. بيد أن سمو الأمير بنبله هو الذي بادر وقال: «وش أقدر أسوي لكم، محتاجين مساعدة، ناقصكم فلوس، آمروا، لا يردكم إلاّ لسانكم.» شكرته وأخبرته أولاً أني أريد أن أعرف كيف أصل لبريصة، وثانياً بأننا نحتاج دعماً مادياً لنقيم يوماً سعودياً في الجامعة وتنقصنا عشرة آلاف جنيه مصري. أشار الأمير لأحد الحراس ودنا منه فكلّمه وذهب في الحال وأحضر ظرفين ذكّراني بالظروف التي استلمتها في لندن. وقال: «خذ هذه للنادي والأخرى لبريصة، وسوف تجد بريصة في مسجد العابد في مدينة الشيخ زايد.» فشكرناه من قلبينا وودعناه بمثل ما استقبل به من حفاوة وتقدير... وكان في وداعه وإلاّ بلاش نطول عليكم.

Twitter: @ketab_n

فتحنا الظروف في سيارة عمرو ووجدناها عشرة آلاف دولار للنادي، وخمسة أخرى لبريصة، فناولت عمرو العشرة آلاف فطار بها فرحاً، وقال: «سوف أطلب تيوس مندية بدلاً من الدجاج البخاري الله يوفق الأمير بيخلينا نلعب بالورق لعب.»

ركبت في اليوم التالي القطار العتيق المتجه نحو مدينة الإسماعيلية لتلبية حفل غداء عند مدرس في الجامعة الأمريكية، قبل أن أعود بالحافلة السياحية لمدينة الشيخ زايد... لكن في الطريق إلى الإسماعيلية صدمت وأصابتني الدهشة من حالة القطار المزرية وقارنته بالقطار الذي كنت أركبه بين لندن ومانشستر، فالقطار البريطاني أنيق أحمر اللون يلمع كالبلور من الخارج وركابه يلبسون أجمل الملابس وقصات شعر النساء رائعة وجلهن يرتدين نظارات أنيقة وفخمة وعطورهن جذابة، ويجلسون على كنبات وثيرة، ويحمل أكثر الركاب «الآي بود» أو «اللاب توب» أو يقرأون الكتب ويتحدثون بأصوات تتناغم مع تهادي القطار، أما المناظر الخارجية الخلابة نحو الشمال الانجليزي ففيها متعة العشاق من أنهار وجداول وشلالات تجري طوال الطريق بين السهول والتلال والأشجار الباسقة الخضراء، والقرى المتناثرة بأكواخها الجميلة وفي كل قرية توجد بعض الحصون أو القلاع التي تذكرني بقصص سندريلا وحبيبها الأمير شارل. أما القطار الحجري الذي ركبته في طريقي إلى الإسماعيلية فكان لونه بلون الصدأ، وقبل أن أركبه حسبت أنه مركون كمتحف لقطار من عهد الخديوي إسماعيل، وأقل جماعة من ركاب قطارنا التعيس كانوا عبارة عن أسرة تتكون من عشرة أشخاص، الحاج والحجة وأبناؤهم وزوجاتهم وأحفادهم، ويحملون في أيديهم وفوق رؤوسهم وظهورهم الطعام والأقفاص، أما الصعيدي الذي يجلس أمامي ويلف فوق رأسه عمامة ضخمة لو فردتها لغطت سيارة «سوبربان»، ومن ضخامة شنباته كان من المفترض يقص لها تذكرة، وكان يحمل بين يديه قفصاً مليئاً بالحمام والإوز والبيض ويسمى «الزيارة». أما القطار المتهالك فكان الأجدر تسميته قطار شحن وليس قطار أوادم، لأننا فعلاً كنا مشحونين فيه

Twitter: @ketab_n

كالبضائع، وزاد الطين بلة من يبيع المية والذرة وسندوتشات الكبدة في القطار فأصبحنا في خرابة صاخبة، والذي هالني أكثر هي دورة المياه، كرمتم، يعني لا تزعلون مني لأني سميتها دورة مياه بس عشان تعرفون عن أيش اتكلم، فلقد فتحت الباب الذي سمي بهتاناً بحمام الهنا فوجدت حماماً عربياً فيه فتحة مكشوفة ترى منها الأرض التي يمشي فوقها القطار، يعني عدم المؤاخذة يستطيع صعيدي واحد نقل البلهارسيا لجميع المحافظات في رحلة ذهاب واحدة ومجاناً كذلك. طيب تخيلوا لو كان في السكة تحت القطار، مثلاً يعني، تنكه حديد طايحة وإلاّ أسلاك شائكة واقتربت من الفتحة، أترك لكم لتتصوروا حجم الكارثة.

إن لم تخني الذاكرة فقد مررت بنفس هذه الرحلة، على مدينة «قها» والتي أثارت شجوني لأني عندما كنت صغيراً في مدينة الطائف كنت أحب كثيراً أن أشرب من «منجا قها»، هل تذكرونها؟ لقد كانت تباع بعلب صغيرة مغلفة بورقة بيضاء يتوسطها رجل يبتسم مرسوم على هيئة منجا وفوق رأسه طاقية طاهي وأمامه كوب من عصير المنجا المصرية اللذيذة. كانت «منجا قها» أفضل هدية تقدم في الطائف للمرضى عند زيارتهم في مستشفى الملك فيصل في الشرقية، أيام حلوة وحياة كانت بسيطة.

بعد الغداء مباشرة قفلت عائداً من الإسماعيلية بالحافلة السياحية وودعت القطار إلى غير رجعة حتى وصلت إلى مدينة الشيخ زايد رحمه الله، والتي بُنيت بمنحة من صندوق أبو ظبي للتنمية، وسألت عن مسجد العابد فوجدته بسهولة، وبحثت عن بريصة، فقال لي أحد الأشخاص: «هل تقصد العارف بالله الشيخ الزاهد العابد العالم النحرير بريصة الأصفهاني؟» قلت في قلبي: «زين ما أضفت «رائد الفضاء العربي المسلم الأول» كل تلك ولّي في رقبته خمسة آلاف باوند يلعن أبو النصب.» ورددت عليه: «نعم هو بذاته قدس الله سره وسر جيرانه.» فأوصلني إليه في أحد المقاهي فاندهشت لما رأيته للوهلة الأولى، فقد تقدم به السن كثيراً وشاب شعر رأسه الذهبي سابقاً وطال حتى وصل كتفيه ويلبس ثوباً أخضر طويلاً فضفاضاً وعمامة على رأسه مربوطة بإحكام وتدلت سلاسل وتعاويذ

Twitter: @ketab_n

لا حصر لها من رقبته، كما كان يحمل مسبحة طولها نصف متر. لما رآني قفز وصرخ بأعلى صوته، مدد، مدد يا سيدنا أحمد الرفاعي مدد، وأقبل نحوي مرحباً بك يا شيخنا نديم، أهلاً بالكريم أهلاً بمن أتى من مكة والمدينة وقبر النبي (ص)، وبادلته التحايا والترحيب وجلسنا معاً في المقهى ثم أخذني إلى بيته وذبح لي وزّة وبطّة وعمل كوشري بالسمن والتقلية وملوخية بالشطة وطاجن سمك، وسألني على مائدة الطعام عن صحة أخي وعمّا أفعله في مصر فقصصت له الأخبار بالتفصيل وأخذت منه بدوري أخباره، فاطمأنيت عليه لما أحسست أنه يعيش في صفاء وإيمان جميل بعد أن طلق الدنيا بالثلاث والنصب بالعشرة، واعترف لي أثناء الحديث بما كنت متأكداً منه، بأنه قد لطش الخمسة آلاف جنيه الإسترليني التي سألته أن يرجعها للأمير قبل عشر سنوات، وطلب مني السماح فسامحته وقلت له: «لن أسامحك فقط بل لك عندي خمسة آلاف دولار أمانة من سمو الأمير تركي.» فصرخ مرة أخرى وقال: «مددد، يا مانت كريم يا رب.» فسلمته الخمسة آلاف ثم ودعني بمثل ما استقبلت به من حفاوة وتكريم. وقفلت بدوري عائداً نحو القاهرة لألحق باحتفال اليوم السعودي كي نعرض بضاعتنا البائرة أمام الطلاب من إيطاليا وفرنسا وأمريكا ونسألهم السؤال التقليدي ماركة «غصب وان + غصب تو».» وش رايك فينا قبل عشر سنوات والآن، وماذا تقول عن أوجه التقدم التي رأيتها اليوم خلال تجوالكم في المعرض؟» طبعاً الإجابة الحتمية ستكون: «لقد دهشت مما رأيت اليوم وكانت فكرتي أن بلدكم عبارة عن صحاري ورمال وشويت جمال على بغال، ولكن هذا المعرض غير نظرتي تماماً عن بلدكم المذهل وسوف أنقل الفكرة إلى أصدقائي عندما أعود لجزر الواق الواق...»

Twitter: @ketab_n

رجال حول أخي

سأحدثكم اليوم عن بعض «الإخوة»، الذين كانوا يتحلقون حول أخي سواءً في شقتنا في ٤١ «رالف كورت» في «الكوينـزواي»، أو في عيادة «هارلي ستريت كلينك»، والتي كان أخي ينوّم بها ثم يخرج إلى الشقة، وما يلبث أن ينتكس فيعود للتنويم للأسف مرة أخرى. كان أكثر المترددين علينا هم من الأخوة من شمال أفريقيا وآخرين من سوريا، وهنالك شخص أمريكي يتحدث العربية لا أذكر اسمه الآن ولكن أذكر الشخص الثاني وهو انجليزي مسلم واسمه «سليمان»، وهو زنجي يشبه في شكله وبناء جسمه القوي بطل العالم السابق في الملاكمة «مايك تايسون». وبالرغم من أنني أصغر من أخي كثيراً فقد كنت أحس أن الشقة وكذلك المستشفى أصبحا وكراً لكل أولئك، فقد كانت تلك الأيام هي أيام الغليان التي حمي فيها الوطيس في أفغانستان وتصاعدت فيها ألهبة نيران حرب العراق وإيران والفاو وعبدان. وهؤلاء الشباب من شمال أفريقيا يتميزون بالغلظة والجلافة وبالعنف ولا شيء غير العنف، وكانوا يأخذون دروساً في العقيدة والحث على الجهاد عند «العلامة» أخي، بمحاضرات لا تتوقف، حتى وهو يتناول الطعام.

ففي يوم من الأيام وأخي منوّم في المستشفى عندما كنت أصلّي الجمعة في مسجد «ريجنت ستريت»، الجميل الذي بُني في العام ١٩٤١ في حديقة «ريجنت بارك» والتي تقع بالقرب من «بيكر ستريت»، وتم افتتاحه من قبل السفير المصري دكتور حسن بهجت باشا، وتمت إدارته لاحقاً من قبل جماعة الإخوان المسلمين، حصلت على منشور يوزعه أحد

Twitter: @ketab_n

مريدي أخي وهو جزائري الجنسية، وهالني ما رأيت في المنشور الذي يدعو إلى قتل الشرطة الجزائرية والحكومة وكل المتعاونين معهم. ويظهر بالصور آثار الهجوم والتفجير بالشوارع وهنالك بعض صور الأبرياء الذين طالهم القتل، كما أنهم في نهاية المنشور يتظلمون من القوات الجزائرية التي قامت «ظلماً وعدواناً»، بقتل «المجاهدين» الذين ارتكبوا المجزرة!!! يا حلاوة، يعني المفروض يسمحون للإرهابيين يقتلون على راحتهم ويجمعون الغنايم والسبايا، ثم يعطونهم شهادة تقدير في نهاية تلك الصولة الجهادية. صدمت من محتوى المنشور وكانت السلطات البريطانية في تلك الأيام تحتوي هؤلاء الرعاع وتغض الطرف عنهم وقد عششوا في كل ركن فيها قبل أن تكتوي بنارهم. الآن لو حاول أحدهم توزيع مثل ذلك المنشور لنشروا بوزه قبل أن يمد ورقة واحدة. أخذت المنشور واحتفظت به لأجد الوقت المناسب للحديث مع أخي لكي يعرف خطورة الناس التي تتردد علينا ووحشيتها.

ولكن السؤال، لماذا تستقبل بريطانيا هؤلاء الأعداد من اللاجئين وغيرهم من الذين يشوهون سمعة الإسلام دين الله الحق؟والجواب بكل بساطة أن بريطانيا قد وقعت على معاهدة جنيف في العام ١٩٥١، والتي تقضي بضرورة منح حق اللجوء السياسي للاجئين الذين يفرون من بلدانهم خشية التعرض للاضطهاد أو القتل، وهي تهيئ لهم كما رأيت بعيني السكن المجاني مع الراتب الأسبوعي وتدريس أبنائهم مع الطعام المجاني لهم في المدارس وكسوة الصيف والشتاء، وأشياء أخرى كثيرة لا تحصى. بل إن بعض اللاجئين، والله العظيم، عندما عدنا إلى السعودية في إجازة قصيرة أعطونا أموالاً لشراء ذهب لهم، وعندما سألني أحد الأقرباء ونحن نتسوق لهم، لمن هذا الذهب ما شاء الله، قلت له لبعض اللاجئين المساكين والمشردين بعيداً عن أوطانهم في شوارع بريطانيا. رد بحسرة: «ما يأخذونا معهم لاجئين تحت التمرين، أي لاجئين يا عمي إلي يقدرون يشترون ذهب، السعودي ما يقدر يشتريه!!!» والأدهى من ذلك أنني أتذكر في تلك الأيام قيام مؤتمر تحت عنوان «القضاء على الإمبريالية الغربية وزعزعة

Twitter: @ketab_n

أركانها» وأين أقيم!!! في لندن، عقر دار الإمبريالية وبحماية من البوليس الإنجليزي!!!يا للحماقة.

كما زاد الطين بلة بالنسبة لي شكّي المستمر بأن هذا الخليط الغريب من أفريقيين وسوريين وأمريكان وإنجليز لا بد أن يكون مخترقاً، خصوصاً من الإنجليزي والأمريكي، والمسألة واضحة ما يبيلها تفكير كثير، ولكن الحماس الزائد من أخي والإخلاص المنقطع النظير يعمي العيون أحياناً، وفعلاً تأكدت من حدسي كما سأخبركم بالتفصيل. فلنبدأ بالنصاب «سليمان الزنجي»، اسم حقيقي وهو شخص معروف لجميع جماعة المركز الإسلامي الرئيسي في لندن. كان هذا الشخص المفتول العضلات يخفي في نفسه ما الله مبديه لي، ولم أكن مرتاحاً له من ناحية حماسه الزائد وشخصيته التي تتغير عندما يبتعد أخي عنا. ففي أحد الأيام كنا وحدنا وبدا متردداً، ثم أراني كتاباً اسمه «ثورة الملوخية في شارع أبو مية»، موجه ضد السعودية وحاول أن يستميلني، قــرأت الكتاب ورميته في وجهه وقلت ٩٠% منه كذب، ١٠% صحيح لأن الكمال لله وحده في أي دولة بالعالم. غضب من رأيي الصريح والحقيقي له وأشار لصورة قديمة في الكتاب ليحاول بيأس إقناعي، وكانت صورة لجبل قارة في الأحساء، وقال: «شوف السعودية كيف كانت واحة خضراء جميلة، نخيل وأشجار وحدائق غناء.» ثم أراني صورة أخرى، صحراوية مقفرة لمكان بتضاريس الصورة الأولى نفسها ويقصد بأن الأشجار قد ماتت وأزيلت بفعل الإهمال والفقر والظلم. تفحصت الصورة جيداً. وأدركت بسرعة أنها لجبل القارة في الأحساء وأن الصورة لجهة أعتقد الشرقية نحو الواحة والأخرى من جهة الصحراء وفبركت على أنها قبل وبعد. المكان لحسن الحظ زرته سابقاً عندما كنا نلعب في فريق يسمى «فريق الربيع»، لكرة القدم، حيث كنا نلعب يومياً في مكان سوق الواحة الحالي في الدمام، وكانت الأرض تابعة للسكة الحديد، وكابتن الفريق وأكثر لاعبيه من أبناء عائلة الغربي من الأحساء، ورتبوا لنا في يوم من الأيام مباراة مع فريق من أولاد عمومتهم في الأحساء. توجهنا نحو الأحساء في يوم المباراة وأكرمنا الأحسائيون

Twitter: @ketab_n

بكرمهم المعتاد فخرجت القرية عن بكرة أبيها وعملوا لنا غداء مهيباً في الحديقة نفسها التي أظهرها لي سليمان الزنجي. أتذكر عندما لعبنا المباراة في ذلك المكان أن أتت جميع القرى المجاورة بشيبهم وشبابهم وذراريهم وقواريهم «عربات تجرها الحمير» وقواريرهم «النساء». فكنا نلعب أمام جمهور بالآلاف، وكانت المباراة بالنسبة إليهم تحديد مصير لقطاع الأحساء والضفة الشرقية للري والصرف، لا نعلم لماذا، وحنا كنا جايين نلعب ونتوكل على الله، ولا كنا ندري أصلاً حتى إنه في غداء وجمهور. كان من أخشن المتواجدين في الملعب والذي سبب لنا الكثير من الإصابات والمشاكل والنرفزة هو الحكم الحساوي، صدقوا أو لا، فكان طوال المباراة، رافع ثوبه ولابس طاقية وعرقان أكثر من اللاعبين وله فحيح عظيم يصدر من خنافره ويزداد كلما لحق بنا، فأحس عندما أجري خلف الكرة أن أسداً خلف أذني يوشك أن يقفز فوقي من هول فحيحه. وإذا صارت هجمة لهم، يشجع فريقه بكل صفاقة وكأنه ليس بحكم ويعدو معهم، ويصيح بأعلى صوته، يا الله... يا الله... يا الله، عليهم، عليهم يا عيال، وإذا قطعنا الكرة منهم، قرعهم وسبهم وسفل بهم، مالت عليكم، الله يأخذكم إن شاء الله. وفي الكثير من الأحيان كان يضايقنا بكتفه ويحاول يعيقنا عن الجري، ما أحد يقدر يقوله شيء، فالصافرة في يده. لكن بالرغم من كل ذلك فزنا عليهم وكان الضحايا إثنان من عيال الغربي، واحد عينه ووجهه انتفخا لمدة أسبوعين بعد المباراة، والثاني انفك مفصل قدمه لمدة شهرين، بالإضافة إلى بعض الإصابات البسيطة شفيت خلال نهاية الأسبوع.

ما أطوّل عليكم، حاولت أقنع اللوح «سليمان»، لكن ما صدق، بس ولله الحمد، تفحصت الصورة إلي فيها الشجر مرة أخرى وكان تمّ التقاطها من فوق جبل القارة كما ذكرت ولاحظت وجود سيارة «كابريس»، صغيرة بعيدة في الصورة لا تبدو واضحة من الوهلة الأولى وموديلها بين العامين ٨٢ أو ٨١. قلت: «يا حبيبي أنا ما أبي أرد عليك، طالع السيارة

Twitter: @ketab_n

هذي، الكلام المكتوب يقول إن البلاد كانت فيما مضى مليئة بالأشجار والواحات قبل!!! طيب حنا الحين في العام ٨٤ وموديل السيارة له سنتين تقريباً، يعني البلاد لسا بخير وما خربت زي ما يدعون في الكتاب، ومن كتابهم أدينهم.» بهت سليمان من ردي المفحم وتحجج بأنه لا يعرف أنواع السيارات الأمريكية ونافح لنصف ساعة من دون أن يقول شيئاً. لذلك أخذته عند محل سيارات شهير في «البارك لين» بين فندق «الجروسفينور»، وفندق «لندن هيلتون»، وسألت البائع عن موديل السيارة الأمريكية في الصورة فأكد لنا بأنها موديل ٨٢، عندها انتفخ برطم سليمان وأصبح بحجم فنجان القهوة وهو الكبير في أصله، وقفل مزاجه طول اليوم ولم يعد يتحدث معي إلى أن غادر في الليل إلى شقته في «شيبرد بوش».

ضربت فيوز سليمان بعد ذلك لمدة طويلة وأظنه عاد بعد تلك الحادثة لشغلته القديمة كما اتضح لي، فقد كنا نسير أنا وهو وقاسم اليماني في يوم من الأيام ونحن نغني أغنيـة «بوب مارلي، بفلو سولجر» Buffellow Soldier، فقال: «إذا كنتم تحبون بوب مارلي حقاً، ما رأيكم أن نزور بيته الذي يقع في «نوتنغ هيل جيت.» وافقنا فرحين لأن بوب مارلي كان هو معشوق الشباب في أيامنا تلك، ولم نكن نعلم أن له منزلاً في لندن، لأنه كان قبل وفاته المأساوية يعيش بين أمريكا وجمايكا. فتوجهنا فرحين عند غروب الشمس وركبنا «الأندرجراوند» من «البايزووتر» ونزلنا في «نوتنغ هيل جيت» بعد محطة واحدة فقط، وعندما صعدنا «بالأصنصير» الحجري والذي يعمل عليه رجل أسود في تلك الأيام ووصلنا إلى المنطقة الموحشة، اكتشفنا بأنها منطقة خطرة جداً ورأينا لوحة تحذيرية من البوليس في مدخل الحارة، بأن الدخول على مسؤوليتنا بعد الساعة السادسة مساء، ونحن الآن عند السادسة والنصف، لكن كنا مطمئنين لأن سليمان «البادي جارد» المفتول العضلات معنا ولن نخشى أحداً. سرنا قليلاً فبدت لنا لندن أخرى لم نكن نتوقع أن نجدها هنا بالقرب من «الكوينـز واي»، فها هو الوجه الآخر المظلم والبشع منها، فكل

Twitter: @ketab_n

سكانها من الزنوج الكاريبيين والجمايكيين والأفارقة الآخرين. وزاد من رهبتنا ظلمة الشوارع الحالكة وأشكال الناس المخيفة وشعورهم الطويلة المنيّلة بستين نيلة والمجدولة كأنهم يحملون فوق رؤوسهم خلية نحل مؤجرة لعائلة من العناكب. وآخرون يعتمرون القبعات الكاريبية الصوفية ذات الألوان الحمراء والخضراء والصفراء، ويدخنون المرجوانا بكل استرخاء زرافات ووحدانا وأمام منازلهم الأم والأب والأبناء، وأصواتهم تتعالى وصرخاتهم الهستيرية لا تنقطع، والبعض يرقص «البريك دانس» موضة الثمانينات. جلسنا أمام منزل بوب مارلي الأبيض اللون وطرازه الفيكتوري الجميل وبدأنا بتأمل أبوابه وسياجه المفتوح، وبدا لنا أنه أكبر بكثير من جميع البيوت المحيطة به ويجلس فوق عتباته الكثير من الشباب الزنوج الصيع بملابسهم الغريبة المليئة بالألوان ويلبسون الخواتم الفضية والذهبية والسلاسل التي تنوء من حملها البغال.

كان شكلنا شاذاً وكنا كالصعاليك مقارنة بأجسامهم العملاقة وعضلاتهم المفتولة، وأحسسنا أننا أخطأنا عندما دخلنا المنطقة الخطرة هذه، وكان الأجدر بنا هو الانصياع لنصيحة الشرطة وعدم دخولها في الليل. ولكن الذي أثار استغرابنا أكثر أن أتت بنت شقراء جميلة تتقصع في مشيتها وهي الوحيدة التي كنا نستطيع رؤية ملامحها واضحة في الظلام، لأن الزنوج الآخرين كان من الصعب علينا رؤيتهم جيداً في الظلام، إلاّ إذا ابتسموا فعندئذ نستطيع أن نحددهم من أسنانهم البيضاء فترسم في عقولنا ما غم علينا من بقية زولهم الظاهر عشان كذا السودانيين ينادون الرجل بـزول. ومن دون مقدمات اتجهت البنت الشقراء نحو سليمان الزنجي صاحبنا وطلبت منه شراء المرجوانا، فانزوى بها بعيداً عنا وأشار لنا بعدم الاقتراب، وقلت في نفسي: «يا ساتر عليك يا نديم، هذي آخرة التربية وكيف وصلت لهذا المكان ووقعت في هذا الوحل الذي لا يصدق.» وبدأت باسترجاع شريط حياتي ومن أنا وماذا أريد أن أصل إليه في الحياة وكأني أنا تاجر المخدرات. وبينما أنا أفكر سألني قاسم اليماني، أين سليمان لقد اختفى فجأة ولم أعد أراه، تقدمنا إلى الركن الذي انزوى فيه

Twitter: @ketab_n

فلم نجده بحثنا عنه حول بيت «بوب مارلي» فلم نجد، له أثراً بالمرة، وظهر لنا فجأة خلف منزل «بوب مارلي» زنجي بطول مترين إلاّ ربع سانتي. وقلت: «يا قاسم سوي نفسك شراي ولا يحس إنا ضايعين.» وفعلاً كان هو من بدأ وعرض علينا البضاعة ونحن لا نعلم هل كانت بضاعة تُشرب أو تُؤكل أو تُشم مثل ما نراه في الأفلام. قلبنا القطعة بين أيدينا وقلنا له: «مش بطالة، بكم يا الاخو الدرزن، مسوين بعد فيها حقين جملة؟» فرد: «القطعة فقط بسبعين باوندا. «قلنا: «انتظرنا لحظات فصديقنا الذي معه المال قادم حالاً.» ابتعدنا وكأننا ننتظر صديقنا ومعه الفلوس، ثم أطلقنا سيقاننا للريح باتجاه محطة «نوتينجهيل جيت» التي أتينا منها، ركضنا بكل ما أوتينا من خفة ورشاقة وشباب، ثم ركضنا ونحن لا نلقي بالاً للزنوج الذين يصرخون علينا في الطريق أو يتهكمون بأعلى أصواتهم، فيا روح ما بعدك روح. وبعد أكثر من تسع دقائق من الجري المتواصل تعبنا فبدأنا نمشي قبل أن نستكمل الجري مرة أخرى، وفجأة ظهر لنا الشخص نفسه الطويل ٢ متر إلاّ ربع سانتي إلي خليناه ورانا بعد كل هالمارثون من الجري وهو يبتسم وقال: «أين صديقكم ألم يأتِ بعد؟» واكتشفنا أن الطريق الذي ركضنا فيه وسط الحارة يدور كقوس ثم يكتمل دائرة كاملة، مثل شوارع «الهيلز» في آرامكو. أي أننا عدنا إلى النقطة نفسها التي بدأنا منها عملية الهروب الكبير. قلت: «يا لهوتي، ما بدهاش يا قاسم، أنا عندي طريقة قديمة تعلمتها في البر وهو أن نتبع القمر ونجم سهيل مثل البدو وبنجرب الطريقة في لندن، شوف يا عمي، «الكوينـز واي ، شرق «نوتنق هيل جيت»، يعني حط طال عمرك نجم سهيل يمينك، والقمر فوق راسك وعلى طول أهرب باتجاه اليمين وبنوصل «الكوينـز واي ، بإذن الله.» طالعت السما، لا نجم سهيل ولا قمر بل غيوم وظلمات بعضها فوق بعض، لا حول، طيب وش الحل. أخيراً سألنا واحد خال وين جهة الشرق، أشر لنا جهة الشرق وما صدقنا ودعسنا دعسة واحدة وما وقفنا إلاّ بعد ما تعدينا «الكوينـز واي»، وخليناه ورانا من الخوف، وتنفسنا الصعداء، وحمدنا الله على السلامة وقلنا توبة إن كنت أحبك تاني يا «بوب مارلي» وتوبة من يا سليمان يا بتاع المرجوانا.

Twitter: @ketab_n

الحقيقة المرة

بعد أن تأكدت من شخصية سليمان الزائفة ومن هم الأخوة الآخرين من شمال أفريقيا، كنت محتاراً كيف أوصل الفكرة لأخي بالرغم من تلميحي له بذلك أكثر من مرة، ولكن كان أخي لا يجادل ولا يساوم ولا يجامل حتى أبي في سبيل الدعوة والجهاد، بل إن أبي قد اتخذ منه قبل مرضه الأخير مواقف كثيرة نظراً لأنه كان يريد أن يطبق التعاليم التي يؤمن بها بالقوة علينا في البيت، حتى أنه في بداية التزامه كان يمنعنا من مشاهدة صلاة المغرب المنقولة من مكة المكرمة على الهواء في «غصب وان» أثناء شهر رمضان، كل شيء ممنوع.

أتت الفرصة عندما كان أخي منوّم في «هارلي ستريت كلينك»، وكنت قد طلبت منه تخفيف عدد الزوار بناء على طلب الدكتور «جولدمان» بسبب مناعته التي بدأت تضعف، لكنه قال بأنه يعتبر الدعوة جهاداً، وإن روحه رخيصة في سبيل الله و«أين أنا من المجاهدين الذين يضحون بأنفسهم وأبنائهم ودمائهم» وبقية الكلام الذي تعرفونه، لكنني أخرجت من جيبي المنشور وقلت له: «اقرأ، هل يرضيك أن يوزع مثل هذا المنشور والصور التي فيها رجل من أصحابك، يأكل ويشرب معك، بل يسمع منك ويستنير بحديثك؟» قرأ واستطرد في القراءة ولاحظت أن تعابير وجهه قد تغيرت غضباً وقال: «من وزع هذا المنشور، إن فيه الكثير من المخالفات والخروج على الحاكم وقتل الأبرياء، لا يمكن تحليل قتل الأبرياء، نحن ندعو للجهاد ضد الروس وضد من يقتلون الأبرياء وليس ضد الأوطان. من الذي وزّع هذا المنشور؟» أخبرته: «فلان الفلاني.» رد

Twitter: @ketab_n

بغضب: «مستحيل.» وبدأ بالدفاع عنه. قلت: «سأزيدك من الشعر بيتاً، هل تعلم ماذا حاول سليمان أن يعمل معي، حاول أن يدخلني في مشروع «ثورة الملوخية بشارع أبو مية .» وذكرت له القصة وقصة حارة «نوتينغ هيل جيت» بالتفصيل فغضب مني ولم يصدقني وقال كلمة جرحتني والله في وقتها جرحاً كبيراً: «لا تغلط على أصدقائي، تراهم عندي أهم من أخواني.» والله هذا ما قاله لي، لكنه كان معذوراً ومخدوعاً بشعارات براقة ستنكسر حتماً على أمواج الحقيقة عندما تأتيه عارية تماماً. أخذت على خاطري، وقلت له: «لن أتحدث معك في هذا الموضوع وسوف أجعلك ترى بنفسك.» كانت حالة أخي قد تردّت تلك الأيام، ولذلك عندما خرجنا لصلاة الجمعة ولرؤية المنشورات بنفسه كما اتفقنا، جلس على عربة المعاقين لعدم قدرته على المشي، ركبنا التاكسي اللندني الأسود من شارع «هارلي ستريت» ووصلنا المسجد فدفعت عربته وصلينا صلاة الجمعة، وبعد صلاة الجمعة وقفنا في صحن المسجد وهو يرقب من بعيد ورأى النعيق والعويل من الأشخاص الذين يشتمون ويلعنون أنظمة بلدانهم ويوزعون المنشورات، ووقعت عين أخي على صاحبنا وأحضر له قاسم اليماني المنشور فقرأه وغضب غضباً شديداً وقال: «أعدني إلى المستشفى بسرعة.» وفي يوم الأحد أخذت أخي أدفعه في العربة من المستشفى حتى وصلنا «الهايدبارك»، عند ركن الخطباء وكان سليمان الزنجي أحد الخطباء المفوهين والذين يجتمع حوله المخدوعون أمثال أخي، كان العدد يصل إلى مئات المعجبين بهذا الزنجي الإنجليزي المسلم الذي يدافع عن الإسلام وهم لا يعلمون حقيقته. دفعت أخي واندسسنا وسط الزحام حتى لا يرى أخي ويتكلم على راحته، بدأ سليمان حديثه في «الهايدبارك» بالآذان... الله أكبر... الله أكبر... أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن لا إله إلا الله... أشهد أن محمداً رسول الله. كان من بعض الضحايا الذين يرددون الآذان خلفه «أبو خالد» المحاسب الطيب في الملحقية العسكرية السعودية وحرمه المصون وسلم عليّ وقال بحبور: «شفت كيف الإسلام عظيم، هذا ولا يتعبون عشان يتعلمون الإسلام واللغة وحنا ما نسوي شي للإسلام.» لم

Twitter: @ketab_n

أناقشه في الموضوع ولكن قلت: «الله يدله للحق ويوفقه لكل خير.» وبدأ سليمان في موعظته واللعب على العواطف، وفي النهاية بدأ بالحديث عن الموضوع الذي أتى من أجله وهو «ثورة الملوخية في شارع أبو مية»، وبدأ يكيل الشتائم والتحريض والتعريض بالسعودية وتقليب الأمور، ويجد الدعم للأسف من الكثير من المخدوعين الذين غرهم حماسهم وحميتهم للدين، فكانوا يتجاوزون عن بعض زلاته. نظرت إلى أخي وقد تغير وجهه وقلت من الأفضل أن نبتعد لأن صحته لا تساعده كثيراً في سماع هذا الهراء، فتحركنا ولاحظنا سليمان، وبدأ بتغيير الموضوع خجلاً من أخي، وأضاف: «لا ننكر أن السعودية تبني المساجد وتوسع الحرم ولها أعمال خير كثيرة في العالم.» يبي يرقّع يعني، فقال لي أخي بحزن شديد: «اللهم أهدي قومي فإنهم لا يعلمون، خذني يا أخي الحقيقي إلى المستشفى لم أعد أحتمل أحداً الآن.» نظرت إليه بحزن شديد، فهذا أخي الذي كان قبل أقل من عامين يحمل الأثقال ويعتني بجمال جسمه ويدرس في كلية الطب في جامعة الملك فيصل وفي عز الشباب والوسامة، أدفعه الآن في عربة المعاقين والملاية البيضاء تغطي نصفه السفلي، وقد خذله الناس جميعاً، فقبلت رأسه وقلت له: «لا تحزن يا أخي إن الله معنا، ولديك في السعودية أخوة خير منهم، فيهم وفاء قحطان ونخوة عتيبة وكرم شمر وطيبة الأحساء وذوق الحجاز وفزعة أهل الجنوب وشيمة حرب، فلا تأس على القوم الفاسقين.»

Twitter: @ketab_n

ضاقت علينا لندن بما رحبت

دفعت عربة أخي خارج «الهايدبارك»، واتجهت به نحو المستشفى في شارع «هارلي ستريت» وبدأ حينها تساقط قطاف الثلج بتؤدة علينا، وما لبث أن تسارع تساقطها حتى غطت أطراف أكمامي ويدي وقبعة أخي والملاية التي تغطي نصفه السفلي وأصبحت أحتاج لجهد أكبر بعد أن غاصت دواليب العربة وسط الثلوج المتجمعة على الأرض، لكنني واصلت بعزم طريقنا وسط شارع «أكسفورد ستريت». كانت جميع المحال في تلك الأيام الغابرة تقفل رسمياً أيام الآحاد من كل أسبوع، فبدا الشارع خاوياً لا حياة فيه البتة سوى صرير الرياح الذي لا ينقطع فتهتز منه زينات أعياد «الكريسماس» المعلقة في الشارع، فتصدح كرات شجرة «الكريسماس» الملونة بألوانها الخضراء والحمراء القانية والجذابة والأجراس الذهبية بأنغام تثير شعوراً غريباً وقشعريرة في الجسم لا يعلمها إلاّ من جربها. كما يظهر على واجهات محال «نيكست وسي آند إي، وسلفردجز، وتوب مان، وتوب شوب، وماركس آند سبنسر»، تماثيل بابا نويل يحمل أكياس هدايا عيد الميلاد بجوارب حمراء مزركشة وهو يقف فوق الزلاجة الطائرة التي تجرها ستة غزلان بنية اللون. لكنني لم أصادف طوال الطريق آدميا واحداً يمشي في ذلك اليوم الغريب الموحش، فلو أن حياً صاح في الشارع بأعلى صوته لرجع له صداه كما لو كان يستغيث في وادٍ سحيق، فأحسست وأنا أدفعه أمامي بأننا وحيدان في هذه الدنيا وقد تقطعت بنا السبل كما لو أننا تائهان في غياهب القطب الشمالي وسط الثلوج والصقيع بعيداً عن الوطن والأهل من دون عزوة أو أمان.

Twitter: @ketab_n

نظرت إليه من فوقه لأجد دموعه الغالية تنهمر وتختلط بقطاف الثلج وهو يحاول أن يزيلها من دون أن يبدي ذلك لي، هزني انكساره وقلة حيلته وهوانه على الناس، فقلت في نفسي: «وآسفاه عليك يا أخي لكم عانيت من المرض ومن خذلان أولئك الأوباش وها أنت عاجز حتى عن السير على قدميك.» ولكنني تظاهرت برباطة الجأش لكي أشد من أزره، فقلت له: «ما أجمل الثلوج يا أخي وهي تتنزل علينا كغزل البنات، إنها تداعبنا بنعومتها عندما تلامس أجسادنا.» وتابعت: «ألا ترى يا أخي أن الشارع أصبح ملكاً لنا لوحدنا، فلا يوجد أحد فيه سوانا!!!» لم يردّ عليّ سوى بتنهيدة طويلة أخرجت من أعماقه دخاناً أبيض كثيفاً اخترق الثلوج المتساقطة وكأنه يدخن الأرجيلة. وصلنا إلى متجر «دبنهامز»، فانحرفنا ناحية اليسار باتجاه «هارلي ستريت كلينك»، وعند بوابة المستشفى قابلتنا الممرضة الحبوبة «دبي» وقد انتهت لتوها من نوبة عملها، لكنها عندما رأت حالة أخي التي يُرثى لها ورأتني اندهشت مما شاهدت، لأنها تعودت أن ترانا دائماً مبتسمين وضحكاتنا ترد الروح، كما كانت تقول لنا دوماً، فعادت معنا إلى غرفة أخي وعندما نام أخي جلست معي خارج الغرفة وتحدثت معها بإيجاز عن سبب حزنه الكاسر، وإحساسه بالصدمة من أصحابه، وأحمد الله أني تحدثت معها، فهذه البنت الإنجليزية، كمعظم الإنجليز، لديها حكمة في النظر إلى الأمور، فقد قالت لي بعد أن فهمت المشكلة: «أفضل حل هو أن يقوم بزيارته أحد من أصدقائه القدامى من بلدكم وحبذا لو تأتي أمه وأبوه لزيارته في هذه الظروف العصيبة، فالعلاج النفسي مهم لأي مريض، وهو مهم لارتفاع المناعة الضرورية في مرضه.» وفعلاً دخلت الغرفة واتصلت بأبي وأمي وأخي الكبير وطلبت منهم القدوم بأسرع وقت، وطلبت من أخي أن يحاول أن يدعو أحداً من أصدقائه في الجامعة وتوفير التذاكر والمصاريف لهم إن كان ذلك ضرورياً. اتصل أخي لاحقاً بسليمان البابطين وخالد أبو سمرة، اللذين رفضا فكرة توفير التذاكر لهما أو أي مساندة من أخي، وفي خلال أسبوع كانا في لندن وقد سبقهما والداي في الوصول.

Twitter: @ketab_n

أخبرتكم في حلقة سابقة عن أبي، وسوف أحدثكم بإيجاز عن والدتي، فوالدتي كانت بالنسبة إلينا امرأة بأمة كاملة، أغدقت علينا من حنانها وعطفها وعوضتنا كثيراً عن غياب أبي المتواصل عنا أثناء انشغاله في أعماله التجارية، وبخاصة عندما كان يعيش في لبنان لمدة ثلاثة أشهر ويعود ليبقى معنا لمدة أسبوع أو عشرة أيام فقط، ثم يعاود السفر مرة أخرى. في بداية حياتها إلى أن دخلت أنا إلى الصف الأول الابتدائي في مدرسة محمد بن القاسم الابتدائية في الطائف، وأمي ما زالت أميّة لا تقرأ ولا تكتب كبقية أقرانها من جيلها، لكنها كانت بالرغم من ذلك تحفظ أشعاراً وقصائد بدوية جميلة ومعبرة وتحب أن تشدو بها في كل حادثة غريبة تمر بنا لتعبر بها عما يجول في خاطرها أو عن رأيها. كانت تنشد أبياتاً طويلة من دون تأتأة أو همهمة، فنستغرب منها كيف حفظتها عن ظهر قلب بطريق السماع فقط، وما سر تلك الذاكرة القادرة على تخزين كل تلك القصائد والملاحم. وفي بداية السبعينات الميلادية ظهرت حملة اسمها «محو الأمية» كنا ونحن أطفال نحسب اسمها «نحو الأمية» فدرست مع نصف نساء الحارة في المدرسة الموجودة بجانب قصر الأميرة سارة بنت عبد العزيز خلف الجبل الذي يقع في حارة الريان في مدينة الطائف، فأتقنت القراءة والكتابة بشكل مذهل. أذكر في يوم من الأيام أن أحد أخوالي حصل له حادث شنيع هو وأسرته فانتظرنا خروج الحريم الذين يدرسون في المساء «محو الأمية» تحت الجبل أنا وأبناء خالي الآخرين وكانت أعمارنا بين السابعة أو الثامنة. عندما خرجت النساء من المدرسة انطلقنا ونحن نسابق الريح كل يحاول أن يسبق الآخر، وعندما وصلنا إلى أمي قلنا لها: «نبشرك... خالي صار له حادث خطير.»، نحسب كلمة نبشرك تركب هنا في هذه الجملة.

كنا عند مرض أخي قد أخفينا عنها سر المرض وأخبرناها أنه فقر دم شديد اسمه لوكيميا وعلاجه لا يوجد إلاّ في لندن، ولكنها في يوم من الأيام كانت تقرأ صحيفة الشرق الأوسط، بعد أن أتقنت القراءة، وسقطت عينها على اسم المرض «اللوكيميا»، سرطان الدم، فطفقت تبكي ابنها

Twitter: @ketab_n

عندما عرفت أن معنى «لوكيميا» هو سرطان الدم، ولم تعد تتحدث مع أحد لمدة طويلة، وكل ما واساها أبي أو أقربائي لا ترد وتكتفي بالقول، ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وتوافق معرفتها بمرض أخي الوقت الذي خذله فيه الناس وأصبح أخي محتاجاً لها كما هي محتاجة له، وكان أخي كما عرفنا فيما بعد يردد في الوقت نفسه الآية الكريمة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاۡيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وكلاهما آيتان متتاليتان من سورة يوسف، فهل كان هنالك توارد خوطر بين الأم وابنها رغم بعدهما عن بعضهما.

بعد أن استقبلت والداي في المطار وأثناء السير في الطريق من مطار «هيثرو» ونحن متجهون نحو لندن في السيارة المرسيدس الخاصة بالملحقية العسكرية، كانت أمي تقول بأنها تشم رائحة أخي داخل السيارة، سبحان الله، هل كانت تتوهم، أم أن ذلك كان صحيحاً، فأخي قد ركب معي قبل أكثر من شهرين في السيارة نفسها، الله وحده أعلم. وعندما دخلت معهما المستشفى كانت سميرة توفيق في بهو الفندق فابتسمت لنا بحرارة وترحيب، فحيياناها بسرعة من دون أن نكترث بها نظراً للظروف الصعبة التي نمر بها، مما جعلها تأخذ على خاطرها كما سأخبركم لاحقاً. ونحن ننتظر المصعد في المستشفى، قالت أمي إنها تحس بأنه سيغمى عليها عند اللقاء، فدقات قلبها تزداد حتى أنها تكاد أن تحصيها، وعندما دخلنا على أخي في الغرفة أقبلت أمي على أخي العليل وضمته نحوها وقبلت رأسه ويديه وهي تبكي بحرقة وحزن ولها نشيج يقطع نياط القلوب، وبقيت أنا وأبي نرقب عاطفة الأمومة الجياشة التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيها لنحو خمس دقائق حتى أجلستها وأفسحت الطريق لأبي الذي كان مسيطراً بعض الشيء على أعصابه للسلام عليه.

في يوم لاحق وصل سليمان البابطين وخالد أبو سمرة، من السعودية واقتصر السماح بالزيارة لهما فقط بالإضافة لشخص آخر اسمه الدكتور عبد الله الخاطر، وهو من أصدقائه السابقين في مدينة الدمام وكان يحضّر الدراسات العليا في الطب النفسي في لندن في الفترة نفسها التي كنا

Twitter: @ketab_n

فيه في لندن. وقد ردّ لي الأشخاص الثلاثة الثقة في الشاب السعودي الملتزم بعد أن هزها من جذورها ومن ثنايا ضلوعي ذلك الخليط المجنون من الأفاقين والسفاحين والانتهازيين. وتحسنت بذلك نفسية أخي كثيراً فعادت له الابتسامة وأشرق وجه لاطمئنانه بوجود والداي وأصدقائه المقربين، فقسمنا اليوم بيننا لزيارته، فخالد وسليمان يعودانه من الصباح حتى الظهيرة، وأنا ووالداي من بعد الظهيرة حتى المساء.

Twitter: @ketab_n

والدتي في أسواق لندن

بعد أن هدأ روع والدتي واطمأنت على أخي، أحببت أن أسري عنها وأنتشلها من الحزن الطويل الذي أنهكها فقررت أن أشتري لها هدية من محال لندن الجميلة، خصوصاً وأنه قد تجمع لدي في الشقة تحت البطانية إلي أنتم عارفينها أكثر من عشرين ألف باوند لا أعلم ماذا أفعل بها، لذلك أخذت والدتي معي نحو محل راقٍ اسمه «جراف دايموندز» Graff Diamonds، يقع في «نيو بوند ستريت»، وكانت والدتي تتسربل بالغطاء الأسود من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وعند مدخل المحل الراقي والذي يقف أمامه رجلان طويلان وسيمان يرتديان بدلات سوداء من تصميم فالنتينو ونظارات سوداء كذلك. وأتذكر بأن الحاجبان أوجسا منا خيفة وتفاجآ بأننا نقصد محلهما كزبائن لأن في تلك الأيام لم ينتشر العرب في كل ركن وزاوية مثلما هو حاصل الآن، كما أن الغطاء الأسود الكامل لم يكن منتشراً بكثرة. دلفنا نحو المحل الأنيق واخترت لها خاتم ألماس جميلاً وناعماً على شكل ماسة تاج الملكة إليزابيث الذي يزيّن تاج عرشها اسمه Crown Diamond Ring قيمته ٩٩٩٩ باونداً، أي حوالي ٤٥ ألف ريال بسعر تلك الأيام وحوالي ٦٠ ألفاً بسعر الصرف الآن، ولكن سعر الخاتم قد يصل هذه الأيام إلى أكثر من مئة ألف بعد ارتفاع أسعار الألماس. ولكن للأسف لم يعجب أمي الخاتم أبداً ولم تحفل به بالمرة وكأني كنت سأشتري لها براية، وتفركشت المفاجأة، فقلت لها: «لا ترديني يا أمي الله يرحم والديك، يجب أن أشتري لك هدية قيمة ترجعين فيها السعودية معاك، وتتفاخرين بها قدام أم عبد الله وأم سعود وأم سلطان.» فكرت بعض

Twitter: @ketab_n

الشيء ونحن نجلس على المقاعد الوثيرة في متجر «جراف» وبجانبنا مستشارة المبيعات الجميلة كأنها مرسومة رسماً بأبعاد رباعية، فقالت: «أريد أن أشتري قدور وصحون وتباسي، يمدحون قدور لندن.» ضحكت من طلبها الغريب وقلت: «تتركين الألماس من أرقى محال لندن وتبين بداله قدور ومواعين، أمري لله!!!» فخرجنا من «بوند ستريت» واتجهنا «لسلفردجز»، لتختار الأطقم التي تريد، ولكن لم يعجبها شيء أبداً مرة أخرى، وقالت لي: «يا ابني طول عمرنا في السعودية نشتري من المحال الشعبية، نفحص البضاعة ونقلبها ونطرق عليها ونفاصل في قيمتها، لكنني لا أستطيع أن أشتري من هذه المحال، أحس أنه تبذير ما له داعي والله لن يرضى أن أدفع ١٥٠٠ ريال ثمن قدر.» عندها طرأت لي فكرة الذهاب إلى شارع «بريك لاين» الذي يقع في منطقة شعبية شرق لندن ويقطنه الكثير من الجاليات البنغالية والهندية واليهود الاشكناز، ويقام فيه سوق الأحد الذي يشبه تماماً سوق الخميس في مدينة القطيف. وهنالك اشترت ما تريد وعبينا السيارة قدور وفنجاين وملاعق، حتى أننا ويا لطرافة هذا السوق، وجدنا «كمر» وهو الحزام الذي يربطه الحاج في وسطه لحفظ الأموال والأوراق المهمة فأضفناه لبضاعة لندن المميزة التي ستجلبها أمي معها إلى السعودية!!! ولم تكلفنا البضاعة كلها على بعضها مع غداء «فش آند شبس» أكثر من ثمانين باونداً، وبكذا تكون أمي وفرت لي من العشرين ألفاً الي كنت أنوي أن أهديها لها تسعة عشر ألف وتسعمائة وعشرين باونداً، ولكن والدتي كانت سعيدة جداً بقدورها أكثر من سعادتها عندما كانت في محل «جراف دايموندز» الراقي للمجوهرات، فأكدت لي بتصرفها هذا أن السعادة شيء نسبي وكل إنسان يستشعرها بطريقته الخاصة، وأن سر السعادة هو القناعة في الحياة والبساطة وتقدير الأشياء التي يرزقنا الله بها، فالقدور والطناجر والفناجين وخراطة الملوخية ومقوار الكوسى، من الممكن أن تعني للإنسان أكثر من الألماس والذهب واللؤلؤ وساعات معوض والدهام، ومجوهرات إرم.

Twitter: @ketab_n

رحلة نهرية مع سميرة توفيق

في أحد الأيام وجدت والدتي تتجاذب أطراف الحديث مع سميرة توفيق في صالة المستشفى وكانتا منسجمتين جداً في الحديث، فوالدتي قبل ما يسمى «بالصحوة» كانت مثل غيرها من النساء السعوديات في نهاية الستينات وبداية السبعينات الميلادية، تحب التمثيليات البدوية وتحفظ أغاني سميرة توفيق الشهيرة كلها والتي كنا نحن كأطفال نحفظها كذلك ودوماً نترنم بها جل أوقاتنا، مثل أغنية «لعين موليتين واثنعش مولية جسر الحديد أنقطع من دوس رجليّ» و«بالله تصبّو هالقهوة وزيدوها هيل واسقوها للنشامى ع ظهور الخيل» و«رف الحمام مغرد». فنادتني والدتي وأخبرتني بأن سميرة كانت ماخذة على خاطرها في أول لقاء لأننا تقريباً تجاهلناها عندما رحبت بنا بحرارة، ويومها كان أخي مريضاً ولم نحفل بها، وبالرغم من أن والدتي اعتذرت منها وشرحت لها الظروف وتقبلت سميرة بكل حب ورضا ما قالته والدتي، إلاّ أن والدتي قالت يجب أن ندعو سميرة لوليمة عندنا في الشقة لنرضي خاطرها. ويبدو أن والدتي أحبت سميرة الإنسانة قبل الفنانة، فحاولت أن تظهر أن الاعتذار منها هو حق قد ركبنا ويجب أن نقوم بالواجب، فسعدت بذلك لأنه أمر سيفرح والدتي وسيسري عنها ويغير من روتينها اليومي في زيارة المستشفى والتسوق من الأماكن الشعبية التي تعشقها.

تحدثت مع أبي عن دعوة سميرة فوافق بدوره، وبالرغم من أنه رجل متحفظ ووقور ويظهر الكثير من الكياسة أمامنا، بيد أنه يبدو لي بأن خبرات لبنان القديمة ظهرت فجأة «كرمال خاطر سميرة توفيق»، فقال: «ليس من

Twitter: @ketab_n

المناسب يا ابني أن ندعوها لشقتنا المتواضعة، لكن من الأفضل أن نأخذها في جولة سياحية في نهر «التيمز» ونعمل لها غداء يليق بمقامها أثناء الرحلة.» وفعلاً لم يخب ظني، فبدلاً من أن نحجز طاولة يتيمة في السفينة التي ذكرها أبي، تحجج بأنه يريد أن يكون هنالك خصوصية حتى تأخذ والدتي راحتها وحجز السفينة عن بكرة أبيها وأحضر غداء فخماً وخاصاً من مطعم فخر الدين مع ست مباشرات لبنانيات مثل «لهطة القشطة». فكانت رحلة ممتعة حقاً، فبجانب الطعام اللذيذ والخدمة الخمسة نجوم وسوالف سميرة البدوية الذربة وطيبتها وانسجام أمي الشديد معها وإعجاب سميرة بالقصائد التي قالتها أمي وقد دونت بعضها، فقد مررنا خلال الرحلة على مبنى البرلمان وساعة «بيغ بن» ولندن القديمة أزيلت الآن وتطورت إلى منطقة «الدوكلاند». ثم رست السفينة عند الأصيل واتجهنا إلى كوخ عتيق ذي أضواء خافتة ونار مشتعلة عند مدخله ويقع على رابية فوق الضفة الجنوبية من النهر. استمتعنا بالجلوس ونحن نرقب هدير مياه النهر الخلابة الذي تمخر فيه أنواع شتى من السفن، وشربنا فيه القهوة قبل أن نعود أدراجنا نحو مبنى البرلمان. وهذا الكوخ كان قد اتخذه الأديب الكبير شكسبير سكناً له في لندن لفترة من الزمن عندما كان يعرض مسرحياته الخالدة في شارع «شافتسبري أفينيو»، في منطقة الفنون والمسارح في «الويست أند».

Twitter: @ketab_n

فصل المدرسة وفصول لندن الأربعة

برغم مرور سنوات طويلة منذ أن وطأت قدماي لندن لأول مرة في العام ١٩٨٤، وزياراتي المتعددة لها لاحقاً، وكذلك دراستي الجامعية فيها لنحو خمس سنوات متواصلة، إلاّ أن الحنين إلى تلك الأيام الخوالي لا يزال متمكناً مني حتى هذه اللحظة، ودوماً ما أستسلم لأحلام اليقظة وأستعيد شريط ذكرياتي وأنا أتجول في شوارعها العتيقة وحدائقها ومتاحفها وحاناتها ذات الطراز الفيكتوري الذي يأسر الألباب، والأماكن المتعددة في كل زاوية وشارع من منطقة وسط لندن والتي تعني لي شخصياً الشيء الكثير. لأني قد أكون تعرفت فيها على إنسان عزيز في ذاك المطعم أو لهوت وتناجيت مع حبيب على ضفة ذلك النهر الجاري أو ضحكت بجنون مرة، وبكيت مرات بأنين وألم من لوعة فراق كوى أضلعي وأنا أسير وحيداً في ظلال أشجار «الهايدبارك».

ففي تلك الفترة التي امتدت نحو سنتين وأنا أودع فيها آخر سنة من سني المراهقة، تعلمت فيها ما لم أتعلمه طوال سبعة عشر عاماً، خلت من عمري غير المحسوب في السعودية. فقد خرجت من مدينة الدمام ذات يوم صيفي مغبر مصفراً ورأس مالي ومبلغ علمي ذكريات هشة هي مجموع ما سمعته في بوفيه الميناء التي تجمع السلنتح أو بوفيه عزيز التي تجمع لاعبي كرة القدم. وقبلها استراحة ريم في العدامة أو استراحة سقراط في الخبر. لم أذكر مدرستي هنا، لأني لم أتعلم منها شيئاً قط، ولم تضف لي شيئاً لولا أني كنت ميالاً بطبعي للقراءة وعقلي يتساءل دوماً عن طبيعة الأشياء، ولم

Twitter: @ketab_n

أذكر أني استفدت من مدرسة الفيصل المتوسطة بالذات شيئاً سوى قصتين مأساويتين لم أنسهما أبداً. أولهما عندما ضحك علينا المدرسون النصابون وأكلّونا مقلباً عندما أخبرونا بأنه سيكون هنالك يوم مفتوح في أحد أيام الخميس لتنظيف المدرسة وزراعتها وتجميل مداخلها، وسوف يُكرّم الطلاب المشاركون والمميزون في الحفل بجوائز قيّمة ودرجات إضافية نهاية السنة الدراسية. لم أكذّب خبراً مع مجموعة من أصدقائي المقربين وحضرنا صباح الخميس مبكرين قبل حضور فرقة حسب الله للتدريس أو التدليس، لا فرق، وبدأنا العمل مبكراً ننظف الأرض ونزيل الأحجار ونردم جحور الزواحف والعقارب، ونزرع الأشجار. واصلنا العمل خلال الضحى وحتى الظهيرة الحارقة عندما وصلنا إلى صخرة كبيرة جداً تتوسط فناء المدرسة، طلب منا الأستاذ «فرغلي»، الحفر تحتها لإخراجها من القاع وإزاحتها إلى آخر السور. حفرت حتى كلَّ متني وجلست من الإرهاق والتعب وأنا مصمم على متابعة الحفر مع زملاء سذج مثلي، وأثناء الحفر مر بعض رفاقنا الماصلين وقاموا بالانتقاص منا والضحك على إخلاصنا الذي لا طائل منه، ثم توجهوا لقيلولة طويلة حتى آذان العصر داخل الفصول المكيفة يتقدمهم أحدهم وكانت عيارته «خسيو»، عدم المؤاخذة، وكنا في هذه الأثناء قد تمكنا بشق الأنفس من إزاحة الصخرة الضخمة إلى آخر سور المدرسة.

واستعددنا للحصول على الجوائز والتكريم من قبل مدير المدرسة «عريج»، وهيئة التدليس، وتفاجئنا والله العظيم بأن «خسيو» وشلته الماصلة هم من حصل على الجوائز والتكريم، فكل دقيقة ينادي الأستاذ «فرغلي»، الطالب المثالي «خسيو»... تصفيق... وتهليل، ثم الطالب صاحب الروح الرياضية «خسيو»... فرجل العام «خسيو»... تصفيق... الله أكبر... تهليل... والغريبة أن «خسيو»، لم يكتفِ بسرقة عرق الغلابة أمثالنا بل إنه في نهاية الحفل أمسك الميكرفون وبدأ بالاستهزاء بنا، نحن الملطخون بالطين المنتفين وأشكالنا كالمشردين أمام المدرسين الذين أبدوا

Twitter: @ketab_n

إعجاباً بموهبته بالتنكيت علينا حنا عيال...؟؟؟... وقد أعطي «خسيو»، كل ذلك لأنه كان لدى والده محطة بنزين، وكان يوزع للمدرسين طوال السنة كوبونات مجانية لتعبئة سياراتهم الكحيانة. في ذلك اليوم حلفت وأقسمت بيني وبين نفسي بأني «لن أخلص في عمل سوف أؤديه ما حييت أبداً»، بعد هذه الصدمة القوية في حياتي، ولكن مع مرور الزمن نسيت «خسيو» والمدلس «فرغلي» ودفعت كفارة عن حلفي وعدت لطبعي الإخلاص وحب إتقان العمل، حتى أتى يوم وأخبرنا «فرغلي»، بزهو وهو يضحك كالمرابي اليهودي كعادته في النصب بأن هنالك مسابقة جديدة لأجمل وأنظف فصل وسيكون «البرايم»، تبعها بعد ثلاثة أشهر، فطفقنا بتنظيف الفصل وعمل اللوحات الجميلة والديكورات الرائعة وأحضرت من وكالة أبي لتموين شركة هونداي بعض اللوحات والتحف المناسبة للفصل ووضعتها في كل ركن من الفصل حتى بدا الفصل كأنه مدرسة إنجليزية وبقية الفصول كعنابر مجانين، ومن حين لآخر يأتي طلاب الفصول الأخرى وقت الاستراحة وينظرون من الباب بذهول نحو فصلنا، بل إن أحدهم وعيارته «قرش قريش»، قام عند الباب بخلع نعاله خارج الفصل ودخل حافياً، «قرش قريش» كان مجنوناً عن جد ولم يكتشف أنه مجنون حتى وصل مرحلة الثانوية وهذا يدل على أن المدرسة أصلاً لا تفرق بين إنشتاين أو إسماعيل ياسين.

وبعد ثلاثة أشهر إلاّ يوم انصرفنا من المدرسة وكنا واثقين بأننا نحن الفائزون لأنه لغاية آخر يوم لم يهتم فصل من الفصول الأخرى بهذه المسابقة التي لا تعني لهم شيئاً، ولكن عندما أتى اليوم المشهود يوم «البرايم»، وكان يوماً مشؤوماً كذلك لأنه اليوم نفسه الذي دخل فيه «جهيمان»، واستحل الحرم المكي الشريف «ما قلت لكم ذكريات المدرسة كلها ما صلة»، وفجأة في طابور الصباح صعد مدرس صعلوك كذاب اسمه «بسيوني الحدق»، فوق الدرج وأمسك الميكرفون وتمايل ذات اليمين وذات الشمال، وهز وسطه برشاقة على صدى الميكرفون وهو يعلن بحبور

Twitter: @ketab_n

وانشكاح، بأن الصف الفائز بجائزة الأوسكار للنظافة والنظام والفصل المثالي هو فصل ثاني «ب». نعم... نعم، كيف ثاني «ب» يا صعلوك وحنا تركناه خرابه عند «الصرفه» في الأمس، لكنه قدس الله سره أخبرنا بأن طلاب ثاني «ب»، قد سهروا طوال الليل يعملون على تنظيم الفصل وتنظيفه حتى الساعة الثانية ليلاً وبذلك تذهب الجائزة إليهم بالتزكية من مجموعة المدلسين الأفاقين خريجي خطة طه حسين «كيف تحصل على مدرس نصف حمار في خمسة أسابيع». صدمت مرة أخرى وأنا لم أفق بعد من صدمة «خسيو»، فهؤلاء الأوغاد عملوا في آخر لحظة للفوز بالجائزة وليس بهدف جعل الفصل جميلاً طوال السنة كما هو مطلوب. لكن ما زاد الطين بلة وزاد حنقي على هذه المدرسة التعيسة عندما وصلنا فصلنا «ثاني أ»، بأن وجدنا أن اللوحات التي وضعناها لتزيين فصلنا والله قد سرقت بالإضافة إلى الكثير من التحف وصحف الحائط. وندمت على الكفارة التي دفعتها في المرة الأولى، فهل هذه مدرسة ممكن أن يستفيد منها أحد!!! كما أني لم أذكر قبل مغادرتي مدينة الدمام سوى الحفريات التي تنتشر في كل شوارعها من مدينة العمال والعمامرة وسوق الحب والقزاز وعبد الله فؤاد والعدامة والناصرية. كذلك لا أنسى جريدة اليوم، التي يسميها صاحبها «جريدة النوم»، المليئة بإعلانات هروب العمال، أو المواضيع المكررة التي تتحدث عن أهمية النخلة، وتطورات الحرب العراقية الإيرانية. فأعيش سبعة عشر عاماً رتيباً مملاً، بل عاماً واحداً مكرراً سبع عشرة مرة، فلا يوم يفرق عن آخر وصورة كربونية مكررة وكئيبة.

لكن تلك الصورة اختلفت كلياً من الوهلة الأولى التي وصلت فيها لندن في نهاية صيف وبداية خريف العام ١٩٨٤، فلقد رأيت لأول مرة الفصول الأربعة التي طالما قرأت عنها في الكتب التي كنت أقتنيها من مكتبة الحجاز أو مكتبة المتنبي. فبعد أيام قليلة من وصولي في شهر أغسطس أسدل الصيف اللندني ستاره وانفض سامره وبدأت رياح الخريف تهب سريعاً تستقبلني بصفيرها الذي تقشعر له الأبدان نشوة، فكنت أتعمد

Twitter: @ketab_n

أن أسير وسط الرياح المتقلبة في حديقة «كنجنستون بارك» لأتمتع بحفيف الأشجار الذي كان يُسري في جسمي قشعريرة تُكسب وجهي حيرة غريبة، وفي معظم الأيام أمرّ على فتاة غجرية غاية في الجمال تقف عند شجرة باسقة تحت نوافذ قصر الأميرة ديانا وتعزف على القيثارة سيمفونية «المونامور»، والتي عرفت لاحقاً أنها للمغني الفرنسي «رتشارد أنتنيو»، كانت الفتاة الشقراء تربط رأسها بخيط ذهبي كذلك وتلبس ثوباً أبيض قصيراً برغم برودة الجو. تعزف بهدوء وسكينة في أجواء حالمة وأوراق الأشجار التي تحولت إلى اللون الذهبي في الخريف تتساقط حول قدميها فتحملها الرياح على أنغام موسيقاها نحو نهر «السربنتاين» فتحملها نسمات الهواء وتسري بها بعيداً نحو الريف الإنجليزي.

وبعد الخريف يأتي الشتاء متسللاً فيقصر النهار لخمس ساعات فقط وتهاجر أسراب الطيور الجزيرة البريطانية نحو جنوب الكرة الأرضية تاركة أعشاشها فوق الأشجار، ليظهر الكون خالياً، لكن سرعان ما تتساقط الثلوج فتُكسي تلك الأشجار والبيوت والأكواخ العتيقة ثلوجاً بيضاء صقيلة، فتتحول الدنيا كلها بيضاء لا لون آخر فيها سوى زينة الحسناوات الإنجليزيات من كنـزات وإشاربات وقلنسوات مزركشة وأبوات طويلة جذابة، فتعود لوحة كبيرة متحركة صورها رسام عاشق للجمال والحياة. عندما حل الشتاء أول مرة وتساقطت الثلوج انكفأت على نفسي في الشقة بجوار جهاز التدفئة العتيق وكأني كهل متقاعد من «مكتب مكافحة التسول»، في انتظار الموت وبجانبي خير صديق للمتقاعدين «الوجار المليء بالجمر المتقد»، بيد أني مع إشراقة الصباح رأيت الأطفال والكبار والنساء، بل حتى رجال البوليس يلهون بالثلوج ويتقاذفونه فيما بينهم، فتشجعت ونزلت وشاركتهم اللهو واللعب بالثلوج.

بعد الشتاء الرومانسي وفصل الأناقة للنساء الإنجليزيات، يأتي الربيع مبشراً بالهواء الطلق والنسيم العليل، ولا تسألني عن ربيع لندن، لكن إن استطعت يوماً ما فسل عينيك إن كنت تريد جواباً شافياً، فلو قدر لك وزرت لندن في الربيع لن أطلب منك أن تنظر إلى الحدائق الملكية الغناء

Twitter: @ketab_n

ولا إلى الأنهار الرقراقة، ولكن أنظر لشارع «ساسكس جاردن» المتفرع من «ادجورورود»، والمتجه إلى «بادينجتون ستيشن»، ستجده عند بداية فصل الربيع شارعاً آخر لا علاقة له بالشارع أيام الشتاء، فهو قد تغير من ركن «ادجورورود»، وعلى مدى البصر لتبدو أطراف الأشجار منسدلة نحو الشارع بألوان زهرية ثم كحلية فحمراء فأقحوانية وبيضاء وصفراء، وأشجار بكل ألوان الطيف مصطفة كعارضات أزياء سرياليات بقبعات كلاسيكية ملونة تعرضن أجسادهن في الهواء الطلق.

أما صيفك يا لندن فهو قصة تُحكى من قصص ألف ليلة وليلة، فعندما يتسلل الدفء النسبي فهو يحمل البشرى بقدوم خير أوان وأحلى الأيام وشعور شبيه بلقاء الحبيب بعد طول فراق، ويا ليت الدنيا كلها صيف لندن. فعندما يقرع الصيف اللندني أجراسه يطول النهار وتشرق الشمس عند الثالثة صباحاً وتغرب عند الساعة العاشرة والنصف مساءً، لتتهيأ للجميع ظروف استثنائية لمن أراد أن يتمتع بمقاهي لندن وحاناتها ومطاعمها وأنهارها وحدائقها الغناء وأسواقها الراقية وأزياء نسائها الصيفية المتجددة. وكلما سرت في الحدائق ترى العوائل والأطفال المرحين يلهون في الأراجيح والزلاجات والألعاب وآبائهم يجلسون بالقرب منهم بأناقة فوق سجادات مقلمة وبجانبهم حقيبة رحلات وبها عادة أجبان فرنسية ومربيات وأنواع شتى من المشروبات.

هذه الأجواء الجميلة والفصول المتغيرة بتباين واضح هي بيئة صحية للتأمل والهدوء واستقراء الحياة والتفاعل الإيجابي معها، فكل تلك الفصول عشتها وأدركتها بحواسي الخمس لأول مرة في حياتي، وغبطت الإنجليز على النعمة التي يرفلون بها وعلى جمالها، ولا عزاء لمن بكى من الفرحة عندما وجد فقعة عجفاء في ربيع النعيرية أو عرعر أو أفنى عمره في مطاردة الجرابيع.

Twitter: @ketab_n

المفتاح ضاع في الباص

في ليلة «الكريسماس» كنت ذاهباً لزيارة أخي، بعد أن سبقني والداي فركبت الباص رقم ٢٣ من «البايزووتر» في بداية شارع «الكوينز واي»، وكنت ألبس بنطلون رياضة وماخذ راحتي على الآخر، حتى وصلت إلى محطة الباصات مقابل حديقة «كنجنستون بارك» وركبت الباص اللندني العتيق الأحمر ذي الطابقين متجهاً نحو وسط «أكسفورد ستريت»، لأتوقف هنالك ومن ثم أمشي إلى مسافة بسيطة نحو المستشفى في «هارلي ستريت». ولمن لم يحالفه الحظ ولم يركب باص لندن الأحمر العتيق ذي الطابقين، والذي توقف العمل به في ٩ ديسمبر ٢٠٠٤ عند الساعة الواحدة ظهراً، سأشرح له بعض الذكريات الحلوة عنه، فباص لندن الأحمر الشهير ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمدينة لندن مثله مثل أكشاك الهواتف العامة الحمراء منذ أكثر من خمسين سنة، فقد استخدم الباص الأحمر لأول مرة بطرازه العتيق في العام ١٩٥٤، وأحبه الناس وأقبلوا عليه بشكله الفريد ذي الطابقين. كان باص لندن الأحمر مفتوحاً تماماً من ركن الجهة الخلفية اليسرى ولا يوجد فيه باب، إنما يوجد درجة بسيطة وعمود في مدخله ليسند الراكب في القفز إلى الداخل والارتكاز على العمود لحفظ توازنه عند استقلال الباص، وكنت دوماً أفضل صعود سلمه الحلزوني والجلوس في الطابق الأعلى لأكتشف معالم الطريق أثناء تنقلي به. وبعد برهة من ركوب الباص كان يمر علينا «الكمساري» ومعه مكينة تذاكر ويسأل الراكب عن وجهته ومن ثم يعطيه وصلاً بعد أن يستلم ثمن الرحلة. عندما يرغب أحد بالنزول، هنالك جرس بزر أحمر موجود في الطابق الأول يضغطه الراكب مرة واحدة لطلب النزول، وبعد أن ينزل الراكب يقوم «الكمساري»

Twitter: @ketab_n

بضغطه مرتين ليتحرك السائق، كنت أضغط مرة واحدة للنزول، وعندما أقفز للخارج أقوم بضغطه مرتين ليتحرك الباص فأغيظ بذلك «الكمساري» لأني أتدخل في عمله. لكن الباصات الآن تعتمد على سائق واحد ويستخدم عادة الركاب بطاقة ذكية إلكترونية للتنقل أو يدفع مسبقاً للرحلة من أجهزة أوتوماتيكية توجد عند المحطة قبل استقلال الباص خصوصاً في وسط لندن.

في رحلتي لأخي في تلك الليلة في الباص رقم ٢٣، كنت منشكحاً على الآخر وأنا أقرأ الصحيفة في الباص وعندما وصلت أكسفورد سيركس نزلت عند المحطة المقصودة بعد أن ضغطت الزر مرة واحدة للنزول، ومرتين حتى يتحرك الباص، ومن شدة البرد وضعت يديّ في جيبي ولكنني اكتشفت ويا للهول بأن مفتاح الشقة غير موجود في جيبي، وأعتقد بأن ذلك حدث بسبب انشكاحي للآخر على مقعد الباص، فصعقت من المصيبة التي وقعت بها لأنه لا يوجد لدي مفتاح احتياطي فعدوت من الخرعة نحو الباص الذي نزلت للتو منه فسبقته وسبقت الذي قبله والذي قبل مَن قبله، لأن هنالك عادة أكثر من باص يحمل الرقم ٢٣، يخدم نفس الخط وتفصل بينهما دقائق معدودة، وتوقفت بعد ذلك عن العدو لأني خفت أن أخرج بسبب ركضي المتواصل عن حدود لندن أو أني من الممكن لو تابعت في العدو أن أغرق في بحر المانش الذي يفصل بريطانيا عن فرنسا، فانتظرت الباصات عند إحدى المحطات المتقدمة وبدأت بإيقافها بكل قوة عين واحداً تلو الآخر وفتشتها جميعاً أمام دهشة «الكمساري» والسائق وخوف الركاب من البلطجة إلي ما يقدر يقوم بها حتى رجل البوليس الإنجليزي، ولكن للأسف لم أجد أثراً للمفتاح. عدت إلى المستشفى قافلة وياي واتصلت على جوال أبي وأنا في الطريق وأخبرته بالمصيبة التي حصلت وأني أضعت مفتاح الشقة ولازم نروح فندق حتى الغد لحين يحلها ألف حلال... أووووبس... لحظة يا شباب، شلون مشت عليكم الشلخة... كلمت أبي بالجوال... إذا أنتم مركزين صح، ترى القصة صايرة في العام ١٩٨٤، يعني حتى البيجر ما كان موجوداً!!! ما عليه واحد

Twitter: @ketab_n

صفر عليكم، تصدقون كل شيء، بس الحقيقة إني وصلت المستشفى وأخبرت والدي بما حدث، وكانت موجودة معنا ممرضة اسمها «مسز جراث»، فقالت بكل بساطة: «مادمت بالليل ولا يوجد محل مفاتيح اتصل بالمطافئ وسوف يفتحون لك الباب.» وفعلاً اتصلت بهم وأعطيتهم العنوان وطلبوا مني التواجد خلال نصف ساعة وذهبنا إلى هنالك وبكل بساطة فتحوا الباب، ووصلت رسالة لنا بعد أسبوعين بأن الخدمة مجانية بمناسبة أعياد الميلاد... واكتشفت أن المارائون إلي سويته وتفتيش الباصات وتعطيل الأوادم إلي رايحين يحتفلون بأعياد «الكريسماس» ما كان يسوى علي... والمسألة ما في أبسط منها... بس تسلمون والله يا مطافي لندن وشكراً على العيدية الحلوة.

Twitter: @ketab_n

ليلة رأس السنة في سجن "بادينجتون"

كنت أسيراً مرة أخرى في شارع «الكوينـزواي»، بعد نحو خمسة أيام من ضياع المفتاح في الباص، وكانت تلك الليلة هي ليلة رأس السنة الجديدة وصادفت شخصاً في مقهى الفكر العربي، أسمراني أبو كشة، وناداني بالعربي ... نادم... نديم، لو سمحت يا أخ، أأنت اسمك نادم، قلت: «لا، لا، أنا اسمي نديم.» ورحب بي بشدة واكتشفت أثناء الحديث معه بأنه أخ أحد أصدقائي في الدمام وسبق أن تقابلنا بس هو عرفني وأنا ما عرفته، كان اسم الشخص «علي ولي»، وهو يدرس اللغة الانجليزية ويتصرمح في لندن منذ ستة أشهر. سألني عن وجهتي، فأخبرته بأني ذاهب لأحتفل برأس السنة الميلادية الجديدة في ساحة الحمام في «الترافلغار سكوير». قال: «زين بجي معاك بس تعال خلني أكمل مشروبي حتى أستطيع أن أستمتع هنالك بكل لحظة.» وبدأ الرجال يشرب حتى الثمالة، ثم استقللنا تاكسياً أسود واتجهنا إلى مكان الاحتفال في ساحة «الحمام زي»، وكان عدد المحتفلين أكثر من مئة ألف. كان الكل سعيداً ويغني ويرقص وهم ينتظرون الثواني العشر الأخيرة من السنة الحالية ليقوموا مع دقات ساعة «بيغ بن»، وساعة كنيسة «تشرينغ كروس»، القريبة من موقع الحفل بحساب تلك الثواني العشر الأخيرة، فعندما تدق آخر ثانية سيعلن دخول السنة الجديدة فيبدأ الاحتفال والقبلات والأحضان والصخب الهستيري الجماعية والرقص الحميم واختلاط الحابل بالنابل تحت فرقعات الألعاب النارية والتمنيات بسنة سعيدة. وتذكرت خلال دقات الثواني العشر الأخيرة لساعة «بيغ بن»، التي كانت تعلن من خلال طنينها الهادر إسدال

Twitter: @ketab_n

الستار عن العام ١٩٨٥، ومولد العام الجديد ١٩٨٦، تذكرت، ولا أعلم لماذا، تلك الأغنية الخالدة التي كنت أسمعها قسراً من «غصب وان»، والتي أصبحت من مراسم كل عيد «من العايدين... ومن الفايزين... إن شاء الله... من العايدين... ومن الفايزين... إن شاء الله»، فللّه درها من أغنية، فمنذ أن ظهرت تغير أكثر من أربعة وزراء إعلام معمرين ولم تتغير ولم يتبدل لحنها ولم يؤدها مطرب آخر ولم يعمل لها فيديو كليب وكأنها من المسلمات التي لا نقاش فيها، فبقيت كاتمة على أنفاسنا ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. ولسوء الطالع أو النازل، لا فرق!!! فإن بعض أصدقائي عندما يأتي العيد يحولها نغمة لهاتفه الجوّال. وخلال آخر خمس ثوان لدقات ساعة «بيغ بن»، تذكرت كذلك عيدنا المليء بتصنع الابتسامة وعبارات المحبة والترحيب المكررة، فلا شيء يميز العيد لدينا سوى الإسهاب بالمجاملات وكثرة السؤال عن الحال، ومظاهر الاحتفال لدينا سيارات محملة بالبطانيات والعفش تجوب الطرق السريعة بين المدن، إلي في الشرق يروح الغرب والشمال للجنوب والعكس، فعيدٌ بأي حالٍ عُدتَ يا عيدُ، بمَا مَضَى أمْ بأمْرٍ فيكَ تجْديدُ.

وعندما دقت آخر ثانية وبدأت بالفعل السنة الجديدة، يبدو أن صاحبنا «علي ولي»، قد أخذه الطرب ليخرج عن طوره تماماً مثله مثل بقية الناس من حوله، فقام بكل صفاقة بعمل حركة غريبة للاحتفال بطريقته الخاصة وسط الزحمة، فكان كلما مررنا من جانب حشد من البشر أعطاهم شلوتاً سريعاً ومن ثم يلتفت نحوي بخفة وكأنه يتحدث معي وليس له علاقة بمن فعل الشلوت. طبعاً ما حد عرف إنه هو الي يعطي شلوت لأنه يسويها بحركة احترافية رغم أنه خارج وعيه، وبصراحة شاركته مرتين أو ثلاث بإعطاء الشلاليت بعد ما عجبتني الشغلة. لكن في آخر مرة تصوروا وش سوا «علي ولي»، وبغباء منقطع النظير شات له واحد عسكري انجليزي عكنف طوله مترين من غير حساب طول الطاقية، ومن هول المفاجأة والصدمة من تصرفه الأرعن صرخت بلهجة دمامية بائسة «بلل بلل بلل». وانتبه الشرطي لي وأنا أتأسى على ما سيغدو عليه حالنا لا محالة بالرغم من

Twitter: @ketab_n

حذر «علي ولي»، فعرف أننا نحن من أعطاه الشلوت المحترم وسط الزحمة فقبض علينا من رقابنا وقذف بنا وسط فان الشرطة ونقلنا مباشرة إلى مركز البوليس في «بادينجتون»، وحشرنا داخل السجن لساعات طويلة مع السكارى والبلطجية، وهي أول مرة في حياتي أدخل فيها السجن كمدان. وبسبب كثرة الموقوفين تلك الليلة أخذوا عناويننا وأطلقوا سراحنا، وبعد نحو ثلاثة أسابيع استدعونا للمحكمة وحكموا عليّ بأن أكتب عشرين صفحة، لثلاثة أيام، وفي كل صفحة أكتب «أنا أحترم رجال البوليس»، أما «علي ولي»، فلأنه الفاعل، فقد حكم عليه بغسل درج ساحة الحمام لمدة ثلاث ساعات ولثلاثة أيام، اختارها لتكون أيام الجمعة والسبت والأحد سحبة واحدة بعد أن اشترى له مكنسة وسطل وعلبة تايد من الحجم العائلي.

Twitter: @ketab_n

قاضيان في لندن

بعيداً عن علي ولي وورطته المهببة، سأخبركم بقصة طريفة حصلت لي لاحقاً مع القاضي الذي حكم عليّ بكتابة عشرين صفحة «أنا أحترم رجل البوليس»، وحكم على صاحبي «بغسل درج ساحة الحمام لمدة ثلاثة أيام». فقد رأيت ذلك الرجل الطيب في صيدلية «بوتس» ولم أعرفه لأنه كان يرتدي في المحكمة باروكة بيضاء، وهي تقليد بريطاني يعمل به منذ نحو ثلاثمئة سنة لإضافة الهيبة والوقار للقاضي، فتبسم لي وحياني فحييته وعرفني وقال: «كيفك أيها الشاب الصغير أرجو أن لا أكون قسوت عليك في الحكم.» فقلت له: «كلا الحكم كان جداً بناء ويذكرني دوماً بأن أحترم رجال البوليس.» ودعوته لتناول القهوة فوافق وقال: «ليس بيننا قضية الآن ولا يوجد مانع مهني من أن ألبي دعوتك.» وفعلاً تشرفت كثيراً بمعرفته واستفدت من طريقة إدارته للحوار ونظرته إلى الأمور وتواضعه، وحدثني أنه يحب الشرق وسحره وقد عمل في كل من العراق وعدن عندما كان شاباً.

وهذا اللقاء الجميل وبساطة القاضي الإنجليزي، ذكراني بأحد أصدقائي الصعاليك أيام المرحلة المتوسطة الذي أصبح لاحقاً شيخاً وقوراً وقاضياً في إحدى المحاكم، وقصة هذا الشيخ واسمه «زريق»، وكان ضعيف البنية في الأيام الخالية ودقيق الملامح وأحمر الخدين كأن به عرق شامي، وكان حقنة بمعنى الكلمة طوال الثلاث سنوات التي قضيناها في مدرسة الفيصل المتوسطة التي تقع في شارع الخطوط الأربع في الدمام. لم نكن نعطيه وجه بالمرة ولا يلعب معنا أبداً، وفي مرة من المرات كنا نلعب

Twitter: @ketab_n

كرة قدم وقت الفسحة في ساحة مدرسة الفيصل المتوسطة، وهو ما كان يعرف يلعب، وكان غصب يبيي يلعب معنا أو يخرب علينا، كان قاعد برى الملعب ولما جات الكورة عنده شاتها برا سور المدرسة انتقاماً منا، رحت له قلت له: «جيبها يا زريق زي ما شتها برا السور.» قال: «ماني جايبها، جيبها يا ابن الحلال أنت إلي شقحتها فوق السور، ماني جايبها.» قمت أعطيته كف، وكف ثانٍ وقلت: «بروح أجيبها أنا.» فجأة قام نقز علي مثل القرد وتعلق في وسطي وحط رجولة حول جسمي ويديه خلف ظهري، استنيت بشوف إيش يسوي يمكن بيرد لي الكف أو يعضني أو يجر شعري أو أي شيء!!! لكنه ما سوى شي أبداً، واقف كأني غوريلا وكأنه أبني على غفلة متعلق في. قلت: «انزل يا بن الحلال.» قال: «ماني نازل.» قلت: «انزل يا حمار.» قال: «ماني نازل.»أعطيه كف، كفين، لكمة، ما فيه فايده. أطيح فوقه في الأرض ما هو راضي يفكني. أدور فيه عشان يدوخ، دخت أنا وطحت وهو متمسك فيّ، كأنه قفل الكتروني. «يا زريق عيب عليك انزل؛ طيب أعطيك الوجبة المدرسية واليخنة (وجبات مدرسية كانت توزع مجاناً على الطلاب)؛ طيب أعمل كإسكان شعبي يا حبيبي؛ ما نزل، نعن أبوك الفسحة خلصت؛ انزل بروح الفصل؛طيب تعلق من ظهري عشان الأستاذ لا يشوفك لما أجلس في الفصل...» ما نزل حتى وصل الخبر لمدير المدرسة «عريج»، وأستاذ «حسنين»، مدرس الهندسة والدكتور عبد الله الربيعة وزير الصحة المتخصص في فصل الأطفال السياميين (أمزح)، وفكوه مني بعد أن قبل يديه المدير وقال: «وعد يا «زريق»، إن فكيت نديم بنجحك هذي السنة وبنخليك عريف الفصل بعد، بس فك الولد».

هذا الزريق دارت الأيام وقابلته لما رحت لمدينة صغيرة بالقرب من الدمام لبيع أرض للوالد، وعندما لم نتفق مع المشتري قرر الوالد عمل توكيل لي بمحكمة المدينة نفسها عشان لما يجي زبون آخر أقوم أنا ببيعها بدل أن يأتي أبي لتلك المدينة مرة أخرى، وجينا مع الشهود ودخلنا المحكمة وتفاجأت بأن «زريقاً»، هو القاضي أو كاتب العدل فلما رآني أندهش أكثر مني، وكاد أن يبتسم وأن يفزّ من مكانه ويطير من ثنايا بشته

Twitter: @ketab_n

الملكي، لكنه بجزء من المليون من الثانية سيطر على جميع الأجهزة لأن ذلك سوف يؤثر على هيبته على ما يبدو. كنت سوف أطقه بكفه وأقول: «كيفك يا أبو الشباب والله زمان عنك يا زروووق يا حبيب قلبي.» بس لاحظت إن الرجّال كاتم مرة، وبدأ يسأل بصوت مسرحي مفخم: «أين الموكل، أين الوكيل، أين الشهود؟» سلمناه البطاقات وقلت: «يمكن يعرفني الحين...» أنزل رأسه وهو يخفي وجهه داخل طيات شماغه كأنه يقرأ البطاقات، وصدر عنه صوت مثل صوت المساحة لما نسحبها على طاولة الفصل «ايييءءء»، فتأكدت أنه يحاول أن يكتم ضحكة في نفسه وهو يصارع تلك الضحكة بكل ما أوتي من قوة. قد يكون تذكر عندما نط علي وجثا على صدري مثل الجاثوم في متوسطة الفيصل، فحاولت أن أنظر إليه من تحت شماغه لأتأكد من حدسي، فأنزل رأسه زيادة مثل الطلاب الخايبين إلي يغشون في الامتحانات من البراشيم. ثم استأذن للذهاب للمختصر، وقلت لزميلي الشاهد معنا: «تركش الهاجر على حكاية زريق.» فمات من الضحك، وقلت: «أحلق شنبي يا عمي إذا ما كان منسدح الحين على كنب المختصر وفاقع ضحك علينا.» قال: «يا عمي أنتبه لا تستهون في هذا الشيخ، ترى الأسبوع إلي راح صك واحد بستة شهور سجن.» ورددت باستغراب: «هذا زريق ، يقدر يسجن واحد ستة شهور.» قال: «إيه زريق، انتبه والله ليطلع حرة الطق إلي طقيته يومنكم صغار بشخطة قلم واحدة ولا أحد يفكك منه.» بعد شوي طلع من المختصر وكان وجهه أحمر كأنه فلاح سوري في عز الشتاء، وتأكدت أنه فك الضحكة لربع ساعة في المختصر ورجع بعد ما رجعت له السكينة والوقار المزيف.

«زريق»، إنسان طيب بطبعه ولكن يبدو أنه كان خايف تنقلب الجلسة ضحك أمام المراجعين وإلا إني أفضحه بالحكايات إلي صارت بيننا أيام المتوسط، وآخر مرة شفته فيها في العام ٢٠٠١، عند بيتي عند أشارة المعهد الصحي في الدمام. كان فيه إشارة في آخر شارعي ومر من جنبي وشافني فوقف السيارة لوهلة لأن الشارع كان خالياً، لكنه غير رأيه في آخر لحظة وكمل طريقه لحد الإشارة، وأنا أطالعه وهو يطالعني من

Twitter: @ketab_n

المراية العاكسة وهو ميت ضحك، وبعدين لما ولعت الإشارة علق على الهرن ولوح لي بيده الكريمة من شباك سيارته «الجيب الفي إكس آر»، التي يفتن بها كل سنة مرة أو مرتين.

قبل أن أسدل الستار الأخير على مذكراتي، وددت أن أهديكم هذه الصورة العائلية التي تجمعني مع أخوتي ونحن أطفال صغار، وعمرها أكثر من ٣٤ سنة. قام بتصويرنا زوج أختي في منزلنا الكائن في حي الريان، في مدينة الطايف.

ومن في الصورة هم من اليمين:

أخي المريض «يحيى»، الولد الشقي «نديم»، أخي «محمد»، المتبرع بجزء من نخاعه لأخي المريض ويعيش حالياً في أمريكا، أختي «نورة».

Twitter: @ketab_n

على فراش الموت

وبعد أن طال بنا المقام في لندن وتعاقبت علينا فصول السنوات أكثر من مرة وأخي خلالها يتلقى العلاج وتتأرجح حالته بين الشفاء والانتكاسة، حانت أخيراً ساعة الفراق بعد أن فقدنا كل أمل في شفائه أو أي إشارة لتحسن حالته بالمرة. فمع بداية العام ١٩٨٦، اتضح أن أخي يتجه ببطء نحو الموت، وأنه لم يبقَ له في هذه الدنيا سوى أيام معدودات، فقد تدهورت حالته بسرعة كبيرة حتى وصلت لحالة حرجة جداً ودخل في غيبوبة تامة اعتباراً من يوم الثلاثاء من منتصف شهر يناير من العام ١٩٨٦. كنا في ذلك اليوم نحيط به أنا ووالداي منذ الصباح الباكر ونرقبه من غير حول لنا ولا قوة، ولم يكن بيد أمي المسكينة سوى البكاء المستمر والدعاء له طوال الوقت، أما أبي فكان يذهب كل فترة وأخرى ليختلي بنفسه في الصالة الخارجية أو في فناء المستشفى ليخفي عنّا دموعه لكي لا يبدي ضعفه أمامنا.

وعندما جن علينا الليل، طلبت منهما المغادرة على أن أبقى معه تحسباً لأي مفاجأة، فقد كنا نخشى أن يفارق الحياة في أي لحظة، فغادرا بعد إصرار شديد مني ووعدتهما بأن اتصل بهما لو جد جديد في أي وقت من الليل. جلست لوحدي بجانبه طوال الليل وأنا أرقبه من على الأريكة السوداء، ثم تناولت المصحف وسط ظلام الغرفة وبدأت بقراءة سورة ياسين مكتفياً بالنور الصادر عن الأجهزة الطبية المتصلة به. بيد أني سرعان ما غطيت في نوم عميق بسبب ما كابدت طوال ذلك اليوم من نصب

Twitter: @ketab_n

وشعور بالخوف عليه وأنا لم أنهِ نصف السورة، فبدأت تخالجني الأحلام وتتلقفني الكوابيس فأستشعرها وكأنها حقيقة وليست كالأحلام العادية التي تمر عليّ كل يوم، فرأيت نفسي في المنام أتنبأ بوفاته، وأنا أسير بنعشه فوق عربة سوداء تجرها ستة من الخيول السوداء، ويتبعني جمع غفير من جماعة المسجد الإسلامي في وسط شارع «ريجنت بارك» باتجاه شارع «بورتلاند»، ثم نقطع «ريجينت ستريت» و«البيكاديلي» ونهر «التيمز»، متجاوزين آلاف المتسوقين الذين يرمقوننا بفضول، وآخرين بحزن من داخل الحافلات الحمراء ونحن في طريقنا نحو مقبرة «بروك وود» في جنوب غرب لندن. وبعد أن وصلنا المقبرة، صلينا عليه صلاة الميت فنزلت معه القبر نحو مثواه الأخير وسجيت جسده اللحد ووجهته شطر المسجد الحرام، لكن فجأة بدأ تراب القبر ينهال عليّ من كل الجهات وأنا قابع في وسطه، فحاولت أن أستغيث بأعلى صوتي من هم في الأعلى كي لا يحسبون أني أنا الذي سوف أدفن، ولكن لم يكن ليصدر عني أي صوت وكأنني فقدت القدرة على النطق، ورأيت فوق سطح القبر، الذي أصبح عميقاً جداً، سليمان الزنجي وهو ينظر نحوي نظرات تشفي ويدفع الرمال وهو منتشٍ للغاية ويساعده في ذلك نسيم الجزائري. حاولت القفز إلى الأعلى فعاقني عمق القبر الذي يبلغ ارتفاعه نحو مترين، وبدأ التراب يغمر جسدي ووصل حتى رأسي وأنا أغوص وسط القبر ويكاد التراب يكتم أنفاسي.

وبينما أنا أحاول النجاة بنفسي بعد أن فقدت كل أمل في ذلك، ظهرت لي فجأة من داخل القبر يد أخي فجذبتني بقوة نحو الأسفل، فحاولت التخلص منها بكل ما بقي لدي من قوة، ولكن قواي خارت وأنا أسبح داخل الظلام الدامس ورائحة الطين تحشر أنفاسي، فأغمضت عينيّ وسددت أنفي حتى انتهى بي المطاف وسط اللحد. فوجدت أخي وقد تخلص من كفنه وتقرفص داخل اللحد الذي بدا لي أنه فسيح وأكبر بكثير من الحجم الذي حفرته، ويشرف على منظر خلاب تحيطه حديقة غناء

Twitter: @ketab_n

أبهى جمالاً من «الهايدبارك»، في أوج الربيع، ويتخللها أنهار وأشجار تتلألأ، وتسبح فيها طيور السنور والبجع والحمام الأبيض. سألت أخي بخوف ورهبة ممزوجين بسعادة، ألم تمت بعد يا أخي؟ وكيف تخلصت من الكفن، وأين نحن الآن، هل نحن في الحياة الدنيا أم في الآخرة، رد: «كلا، كلا يا أخي، نحن بين الدنيا والآخرة، ولم أمت أنا ولن تموت أنت، فالله قد كتب لي من العمر بقية ولا بد لي أن أحياها لأني دفنت قبل أواني ويجب علينا أن نخرج معاً من هنا وبأسرع وقت وبأي طريقة لنعيش ما بقي لنا من الحياة.» أجبته بخوف وذعر شديدين: «كيف يمكننا ذلك ونحن تحت التراب وفوقنا من يتربص بنا إن حاولنا الخروج؟» ثم نظرنا حولنا فوجدنا على يمين اللحد أحد المسلمين متكئاً على سرير ويتناول التين والعنب، فأخبرناه بأننا نريده أن يساعدنا لنخرج من هنا، فابتسم لنا ابتسامة صافية وأخبرنا بأنه يتوجب علينا إذا ما أردنا العودة إلى الحياة الدنيا بأن نقطع تلك المفازة التي تقع فيها قبور الكفار في الجهة المقابلة من اللحد، وهي صحراء قاحلة لا يوجد فيها ماء أو كلأ، وقد يقضى علينا قبل أن نصل طريق الحياة فنعود إلى هذا المكان نفسه الذي نحن فيه الآن، ونصحنا أن نبقى هنا في مكاننا فهو أجمل من الدنيا كما نرى.

وبالرغم من جمال المكان إلا أننا تمسكنا بخيار الحياة الدنيا فعدونا فوق الرمال لا نلوي على شيء ونحن نقطع المفازة برمالها الحارقة وجوها اللاهب شديد الحرارة. وبعد أن قطعنا نصف المسافة وتجاوزنا قبور الكفار، دخلنا وسط واد عميق وضيق جداً وذي صخور كلسية عالية تتشكل صخوره كوجوه لأناس عرفناهم في الدنيا، ويغص الوادي بأشجار طلح متشابكة تحمل شوكاً كأنه رؤوس الشياطين. فأسرعنا الخطى أكثر فأكثر وفجأة ظهر خلفنا قطيع من الإبل السوداء ترمقنا بنظرات متوعدة وتعدو خلفنا تريد أن تفتك بنا، فبدأنا بقراءة المعوذات ونحن نلهث وتكاد تنقطع أنفاسنا من وادي الشياطين المرعب، فلما دنت منا وأوشكت على نهش رقابنا، نفث عليها أخي فاندثرت كرمال واستوت على الأرض. فأكملنا عدونا نحو خط الحياة الدنيا، وقبل أن نصلها بأمتار بسيطة سقط

Twitter: @ketab_n

أخي منهكاً من التعب فعدت إليه أرجوه أن يكمل ما بقي من الطريق لأنه لم يبقَ سوى أمتار قليلة ونعود إلى الحياة، إلاّ أنه لم يستطع أن يتحرك من مكانه وبدأ يستغيث ويطلب الماء. أريد ماء، نديم لا تدعني أموت من العطش، أريد جرعة من الماء، حتى أنه صرخ بأعلى صوته فأحدث دوياً هائلاً تردد صداه في جنبات وادي الشياطين. فصحوت مذعوراً من النوم على صوت استغاثته التي صمت أذنيَّ. تحسست نفسي وسط ظلام الغرفة وسكونها والذي لا يقطعه سوى صوت قطرات المغذي المتصل به تسقط رويداً رويداً، فاستعدت توازني وحمدت الله أننا ما زلنا على قيد الحياة، وأنه مجرد كابوس وسوف يهدأ روعي بعد قليل.

وبالرغم من إدراكي أني كنت أحلم طوال الوقت، بيد أن كلمات أخي التي ترددت في الحلم «أريد ماء، نديم سأموت من العطش، اسقني ماء أرجوك»، لا تزال تتردد على مسمعي، فأنصت جيداً وإذا بي أسمع هذه المرة أخي المسكين يرددها لي حقيقة وسط الظلام. قمت من فوق الأريكة وتعوذت من شر ذلك الكابوس ثم سقيته قليلاً من الماء بالملعقة وهو غائب عن الوعي تماماً. ولم أستطع أن أعود إلى النوم بعد ذلك حتى انفلق نور الصباح لشدة تشاؤمي وأدركت أنه نذير برحيله عنا لا محالة. ثم وصل والداي بعد ذلك بقليل ويبدو أن النوم لم يخالج أعينهما البتة، وفعلاً ازداد تدهور حاله إلى أقصى مدى، ويبدو أنها هذه المرة بلا عودة، فعلامات رفض جسمه للنخاع الذي تبرع به أخي الصغير له أصبحت تسوقه للموت بكل تأكيد، ونتائجه الطبية تدل على أنه بدون الأجهزة الموصلة به يُعتبر ميتاً. وعند الضحى قام الدكتور «جولدمان»، بعمل فتحة في صدره من جهة القلب تتصل بكيس معلق كالمغذي لإعطائه الأدوية عن طريقه، وقد جربوا في ذلك اليوم الأخير علاجاً جديداً يُستخدم لأول مرة على إنسان ويجعل حرارته تنخفض بشكل كبير فيبدأ بالارتعاش وكأنه وسط ثلاجة من دون فائدة تُذكر، بل إن روحه بدأت تنازع جسده بالتدريج بسبب ذلك الدواء.

وعندما حل المساء الكئيب أخبرنا الدكتور بحزن بالمفاجأة التي كنا

Twitter: @ketab_n

نتحاشى سماعها، بأنه قد فقد كل الآمال بتحسن حالته ويتوقع أن يتوفاه الله خلال الساعات الثلاث القادمة. صدمنا بالخبر وبالحقيقة المفجعة خصوصاً والدتي التي أبيضت عيناها من الحزن على ابنها الذي بدا أمامها شاحباً كهيكل عظمي ومسجى بلا روح فوق السرير، وتتصل به العديد من الأجهزة وصدره مفتوح في آخر محاولة لإنقاذه. وحضر في هذه اللحظات العصيبة لوداع الدكتور عبد الله الخاطر، الطبيب النفسي الطيب الخلوق، وقام بتهدئة والدتي وتهيئتها لتقبل المصيبة وتذكيرها بما لها من أجر يوم القيامة إن هي صبرت واحتسبت، وأن الله لن يحرمها الأجر وهي المرأة المؤمنة، وأن الله هو الذي وهبنا أخي، وهو سبحانه الذي سيأخذه منا، وأن تحمد الله وألا تحزن على فراقه فهو رجل ملتزم بتعاليم الدين وكان يؤم المصلين في مدينة العمال في الدمام. وفعلاً، كان لأسلوبه الإيماني ولتخصصه كطبيب نفسي سحراً كالبلسم الشافي لوالدتي فبدت مؤمنة صابرة جاهزة لاستقبال المفاجأة وكأنها سوف تودعه، كما قال لها، في المطار وستلقاه بإذن الله، يوم القيامة في أبهى الحلل في جنات النعيم.

اختلى الدكتور عبد الله الخاطر بي وبوالدي في الصالة الخارجية، وبدأ يحدثنا عما يجب علينا أن نفعله للتعامل مع مراسيم الصلاة عليه في مسجد لندن، ومن ثم مواراة جسده الثرى في مقبرة المسلمين في «بروك وود» في لندن، لأن الجثة لو نقلت بواسطة الطائرة فيجب أولاً استئصال بعض الأعضاء مثل الكبد وغيرها، وإلا فلن يسمح بنقله بواسطة الطائرة من قبل شركات الطيران، وأوضح أن المقبرة الموجودة في «بروك وود» في لندن خصصت للمسلمين بعد أن تم دفن نحو أربعة وعشرين مقاتلاً مسلماً خلال الحرب العالمية الأولى والثانية، ومعظمهم كانوا من الهند حاربوا مساندة للبريطانيين وعندما أصيبوا في الحروب نقلوا للعلاج في بريطانيا ثم توفوا فدفنوا في قسم خُصص للمسلمين ومن ثم اتسعت المقبرة مع الوقت بسبب تكاثر المسلمين، فهي إذن الخيار الأفضل لدفنه.

وفي الساعة الأخيرة التي حددها الدكتور «جولدمان» للوفاة قام بفتح المغذي بعد أن حقنه ببعض الأدوية لأقصى نسبة كخيار أخير، وأخبرنا

Twitter: @ketab_n

بأسى بأن ليس لديه أي حلول طبية، وأن علينا الدعاء لأخي فقط ولن تفيده الأدوية التي أعطاه إياها شيئاً، إنما هي محاولة أخيرة لعل وعسى، وقال إن الأمر متروك لكم الآن لوداعه فلا تدخل طبياً بعد الآن وغادر بعد أن واسى والدتي وقال لها بأنه فعل كل ما بوسعه ويؤسفه أن تفقده، وإنها مشيئة الله. عندها، بدأ الدكتور عبد الله الخاطر يقرأ عليه آيات من القرآن وهو يغالب دموعه ويمسح على رأسه ويلقنه الشهادة وسط نشيج أمي وحيرتي أنا وأبي، وأخي المسكين في غيبوبة تامة لا يشعر بشيء يدور حوله، فنزل مستوى الأوكسجين إلى أن أصبح يتنفس همساً، بينما تشير الأجهزة الأخرى لانخفاض ضغطه رويداً رويداً، ودقات قلبه تتباطأ وتكاد تتوقف. ثم دوت فجأة صفارات أجهزة الإنذار الطبية الموصلة به معلنة اقتراب الموت منه قاب قوسين أو أدنى وإسدال الستار عن حياته القصيرة، فما هي إلاّ لحظات ويغادر بعدها الدنيا التي عاش فيها اثنين وعشرين عاماً فقط كعابر سبيل نحو حياة البرزخ السرمدية تحت التراب وحده في اللحد إلى أن تقوم الساعة. فطفق الدكتور عبدالله الخاطر بأسى وحزن شديدين والدموع تنهمر منه بتلقين أخي الشهادة: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله... أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله... اللهم أرحمه يا رب، إنك رؤوف رحيم، اللهم إني أسألك أن تكتبه عندك من الصالحين والصديقين والشهداء... الله المستعان.

وفي يوم الأحد الموافق ٣ جمادى الآخرة ١٤١٠، بعد نحو ست سنوات من تلك الليلة الأليمة، «قام أخي المريض»، بيديه بدفن الدكتور عبدالله بن مبارك بن يوسف الخاطر رحمه الله في مقبرة غرب الدمام، عندما أصيب الدكتور بنوبة ربو حادة أثناء صلاة الفجر، رحمه الله... مات الدكتور، وعاش أخي...» ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

«نديم الهوى»

النـــهايـــة

Twitter: @ketab_n

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾

المرحوم بإذن الله، صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز، والذي بسبب توقيع بسيط من يده الكريمة، لم يستغرق ٤٠ ثانية، حصلت لي كل تلك الأحداث وتهت في لندن السبع توهات اللهم ارحمه وأغفر له وأدخله فسيح جناتك

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n
8.4.2012

مذكراتي اللندنية

تدور أحداث الرواية في مدينة الضباب لندن خلال العامين ١٩٨٤ و١٩٨٥ وجزء من العام ١٩٨٦، عندما سافر الكاتب لمرافقة أخيه لتلقي العلاج من داء سرطان الدم. سردها بدقة بعد مرور أكثر من ٢٥ سنة على حدوثها. يؤكد الكاتب بأن أساس القصة حقيقي، بيد أن داعي الحبكة الدرامية وأسلوبه في السرد هما اللذان أطلقا العنان لقلمه لينسجها كما ستبدو فصولها للقارئ. كُتبت كل حكاية كما طرأت بدون ترتيب للتواريخ، وسيجد القارئ فيها الجوانب التراجيدية والكوميدية والرومانسية والجريمة والخيال.

ISBN 978-603-00-9317-5
9 786030 093175

دار المؤلف
Dar Al-Moualef
info@daralmoualef.com
www.daralmoualef.com